

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



نظم الفاطميين ورسوئهم في مصر ١

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

مدرس التاريخ بكلية الآداب — جامعة إبراهيم

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

(صباحي وشركاه)

مطبعة ابن أبي العزني

١ شارع مشهق هاشم كامل. القاهرة

نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ١

INSTITUTIONS ET CÉRÉMONIAL
DES FATIMIDES
EN ÉGYPTÉ

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب — جامعة إبراهيم

١٩٥٣

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)
(صبيحي وشركاه)

طبعة بنزل البيان العربي
١ شارع مشرف باشا كاشان - لاغوس

893.717

M276

pt. 1

افتتاح



فهرس الكتاب

إفتتاح :

- تمهيد .
- مقدمة .
- نقد المراجع .

الكتاب الأول :

- الفصل الأول : الإمامة .
- الفصل الثاني : الوزارة .
- الفصل الثالث : الإدارة .
- الفصل الرابع : النظم الدينية .
- الفصل الخامس : النظم الحربية .

الكتاب الثاني :

- الفصل الأول : البلاط .
- الفصل الثاني : الرسوم أو الخفلات .

خاتمة :

جدول المراجع :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

كان لقيام الدولة الفاطمية في مصر أهمية خاصة في التاريخ ؛ فالفاطيون قد حكموا مصر زهاء قرنين من الزمان، من ٣٥٨ إلى ٥٦٧ (٩٦٩-١١٧١ م)، وهي فترة تطورت خلالها النظم السياسية والاجتماعية تطوراً خطيراً .

وسنحاول أن نقدم عرضاً كاملاً - إن أمكن - لنظم الفاطميين ورسومهم، وهو يحتاج إلى عناية خاصة بجمع الوثائق النادرة، والمادة التاريخية الغزيرة، في حزمة محكمة الربط. وتقدم إينا المراجع العربية هذه النظم الإسلامية - عادة - بطريقة مضطربة لانظام لها وبدون مناهج بحث علمية؛ مما يسبب اضطراباً وسوء فهم: اضطراباً للنظم بعضها مع بعض، أولصفة كل منها بالنسبة لكل دولة إسلامية. فعمل عرض واضح دقيق لنظم الفاطميين ورسومهم، برسم لوحتها الميزة، هو عرضنا الأساسي من هذا البحث.

ثم إننا استعملنا ألفاظاً اصطلاحية فنية عديدة ظهرت لتدل على النظم السياسية والاجتماعية في العصر الفاطمي، فهذا العصر يحدد انتهاء الفترة العربية - الفارسية في مصر. وقد بقيت تلك التعبيرات الجديدة لنظم مصر الوسيطة، حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية في عهدي الدولتين: الأيوبية، والمملوكية.

ولهذا البحث استخدمنا مادة غزيرة، وإن كانت محتاجة دائماً إلى غربلة لتخرج منها خلاصة علمية صحيحة. وقد وجدنا المصادر الأصلية لهذه المادة مبعثرة في مخطوطات مختلفة معاصرة للفاطميين، في مصر وإنجلترا، وهي عبارة عن مناجم لم تستغل، وكنوز بكر لم تنشر بعد: وكذلك استخدمنا معظم المؤلفات الحديثة التي ظهرت في البلاد الإسلامية من ناحية، وفي فرنسا وإنجلترا والمانيا وروسيا بلغاتها الأصلية من ناحية أخرى، مما يتعلق بموضوع النظم والرسوم.

عبد المنعم ماجد

تقدمة

كان ملوك الدولة الفاطمية يسمون رسمياً في الوثائق^(١) التي تصدر من ديوان الإنشاء — وهو أشبه بوزارة الخارجية الحالية — : « الفاطميون »^(٢) ؛ وهي تسمية صادرة عن اسم فاطمة ، ابنة النبي وزوجة علي ، التي ينتسب إليها الفاطميون . فسلطة هذه الدولة الروحية والزمنية ترتكز على صلة القرابة بأسرة النبي ، ولذا كان اسم « الفاطميين » غالباً على خلفاء هذه الدولة في مصر حتى خارج الوثائق الرسمية .

ولهم أيضاً تسمية رسمية أخرى تغلب عليهم مثل تسمية الفاطميين ، هي : « العلويون »^(٣) ، وهي صادرة عن اسم مؤسس أسرتهم علي بن أبي طالب ، الجد الشرعي لسلالة خلفائهم في مصر ، كما أن سلالة خلفاء « العباسيين » صادرة عن اسم العباس ، عم النبي .

وكال يطلق رسمياً على دولتهم واحد من هذه التعبيرات الثلاثة : « دولة »^(٤) ، أو « إمامة »^(٥) ، أو « خلافة »^(٦) ، وهي تبين أسس الدولة السياسية .

وملوك الفاطميين تسميات أخرى غير رسمية أطلقها عليهم أنصارهم ، ولذلك

(١) رسائل المستنصر بمخطوطة بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن ، برقم ٢٧١٥٥ .

(٢) المرجع نفسه . رسائل : (٣٢) ورقة ١٤٩ ؛ (٣٤) ورقة ١٥٧ .

(٣) نفسه . رسائل : (٢٧) ورقة ١٣١ ؛ (٤٤) ورقة ٢٤٢ ؛ (٤٦) ورقة ٢٥٢ .

(٤) نفسه . رسائل : (٢٧) ؛ (٣٢) ؛ (٣٤) ؛ (٤٤) ؛ (٤٦) ؛ (٥٣) .

(٥) نفسه . رسائل : (١٨) ؛ ورقة ٩٠ ؛ (٣٥) ورقة ١٦٠ .

(٦) نفسه . رسائل : (١٨) ورقة ٨٩ و ٩٠ ؛ (٣٥) ورقة ١٦٠ ؛ (٤٣) ورقة

فلها صفة خاصة مذهبية محضة ، فنحن نعرف أن الفاطميين ينتمون إلى عليّ ؛ فكانوا يعرفون « بشيعة عليّ » أو « بالشيعّة »^(١) .

ولكن الشيعة انقسمت على نفسها في أول عهدا إلى عدة فرق ؛ ولكي يتميز الفاطميون من بين الفرق الأخرى الشيعية تسموا « بالاسماعيليين^(٢) » ، نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، الإمام الشرعي السابع ، من سلالة فاطمة وعليّ . وهو في اعتقاد الفاطميين آخر امام فاطمي ظاهر لهم ، فبعد اسماعيل تنابح الأئمة من سلالاته بدون انقطاع ، ولكن كأئمة مستورين ، حتى ظهور دولة الفاطميين في شمال إفريقيا ، فنسبة إلى هذا الإمام السابع من الأئمة الظاهرين ، سمي الفاطميون — أحياناً — « السبعية »^(٣) .

ويطلق على الفاطميين أيضاً اسم « العبيدين »^(٤) باسم اخليفة « عميد الله المهدي » ، أول خليفة فاطمي ؛ وهو الذي أسس الدولة الفاطمية بالمغرب في ٢٩٦/٠٩٠٩ وكان نسب هذا الخليفة سبباً في تكهنات عديدة : فهو في قول البعض أول امام ظاهر بعد سلسلة الأئمة المستورين الذين كانوا قد اضطروا إلى اخفاء شخصياتهم أو ما يسميه الشيعة « التقيّة^(٥) » أي الاحتياط ، خوفاً من اضطهاد العباسيين ، أعدائهم الألداء . فاسم « العبيد بين » أطلق على الفاطميين نظراً للشك الذي يحيط بصحة نسب عميد الله ؛ ولعله أطلق عليهم أيضاً من قبل

(١) النعمان ، شرح ، ورقة ٦٨ ؛ افتتاح ، ورقة ١ ؛ قلقشندي ، ١٣ ص ٢٢٦ ؛ ابن خلدون ، مقدمة . تحقيق Quatremère ، ١ ص ٣٥٥ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ ؛ قلقشندي ، ١٣ ص ٢٣٥ .

(٣) شهرستاني ، الملل والنحل ، القاهرة ١٣١٧ ، ٢ ص ٢٧ — ٢٩ ؛ انظر :

؛ Weuleresse : le dogme. trad. Felix Arin. p 201. Goldziher. Les pays des Alouites, p. 52.

(٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٠٣ — ١٩٠٤ ، ص ٢١٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، ١ ص ٢٠١ .

(٥) النعمان ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيضى . القاهرة ١٩٥١ ، ١ ص ٧٤ — ٧٥ .

أعدائهم سخرية واحتقاراً رغبة في القضاء على مزايم الفاطميين في الانتساب إلى على وزوجته فاطمة^(١).

ومن ناحية أخرى، فإن مؤرخي العرب يسمونهم «الخلفاء المصريين»^(٢) «لأنهم كانوا ملوك مصر؛ كما أن سلالة بطليموس — مع أنهم يونان في الأصل — كانوا يسمون «ملوك مصر».

وأخيراً رغبة في هدم انتحال الفاطميين لكل شرعية في النسب إلى بنت الرسول، ورغبة في محو كل احترام قد ينتج عن الاعتقاد فيه، فإن أعداءهم الألداء — وبخاصة السنين — لم يترددوا في تسميتهم «بالرافضيين»^(٣)، أى الذين خرجوا على الدين. كذلك سموهم «المجوس»^(٤)، على اسم اتباع المذهب الزردشتي: الذين كانوا في فارس حتى ظهور الإسلام، وبهذه التسمية يرمون إلى هرطقة المجوسية الفارسية التي رفضها الإسلام. وسموهم أيضاً «الباطنيين»^(٥)، لأن أئمة الفاطميين كانوا يدعون معرفتهم بالمعاني التي وراء ألفاظ القرآن، أو ما يعرف بالمعنى الباطن للقرآن. كما نعتوا دولتهم «باليهودية»^(٦)، وذلك لأنهم يقولون بانتساب الفاطميين إلى جد يهودى.

على أننا يجب أن نقرر أن الدولة الفاطمية — سواء أكانت في المغرب أم في

-
- (١) سيموطى، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٤.
(٢) ابن خلكان، وفيات، طبعة بولاق ١٩٢٩ هـ، ١ ص ٥٣٧.
(٣) إن المحضر الذى برز أيام خليفة بغداد القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ / ٩٩١ — ١٠٣١)، المعاصر للخليفة في مصر الحاكم بالله (٣٨٦ — ٤١١ / ٩٩٦ — ١٠٢٠) في سنة ٤٠٢ / ١٠١١، يتضمن هذه التسميات العداوية للشيعنة، بقصد إثارة الشكوك حول صحة نسبهم: ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٤؛ انظر
Mamour: Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs, p. 16.
(٤) أبو شامة، الروضتين، ١ ص ٢٠١؛ انظر:
Mamour: Polmics, p. 16; 30 et suiv.
(٥) أبو شامة، الروضتين، ١ ص ٢٠١. انظر: كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية، ص ٩.
(٦) أبو شامة، الروضتين، ١ ص ٢٠١؛ انظر:
Mamour: Polmics, p. 16: 101 et suiv.

مصر - مثل غيرها من الدول الإسلامية ، ترتكز في أساس بنائها على الدين . وقد لاحظ ابن خلدون ، المفكر الكبير ، أنه ليس من السهل أو الممكن فصل الدين عن الدولة^(١) ، والدولة الإسلامية تقوم على أسس تتشابه فيها الدولة بالدين . ورغم ذلك فإننا نستطيع أن نقيم حداً مميزاً بوضوح ، بين نظم الدولة السياسية التي ترتكز على أسس دينية ، وبين النظم الدينية الخالصة التي تقوم على أسس العقيدة المذهبية والفلسفة الدينية ذاتها ، وبمعنى آخر ، نستطيع أن نفرق بين نظم الدولة ونظم الكنيسة .

فنظم الدولة الفاطمية به تتشامع نظم الدول الأخرى التيموقراطية (الدينية) الإسلامية ، في العصور الوسطى ، فالعقيدة الفاطمية مثل العقيدة السنية ، كانت مزيجاً من عناصر دينية وتشريعية . ولما كانت الدولة الفاطمية شيعية أصبحت مذهبية ، تغلبت فيها الصفة الدينية على كل مظاهر الحياة ، وصبغت كل نظمها من الخليفة أو الإمام ، حتى أقل كاتب فيها . فكانت العقيدة الدينية الفاطمية في مصر ، كما كانت سابقاً في المغرب ، الأساس الذي تقوم عليه الدولة ، وكل تنظيم سياسي في الدولة ما هو إلا انعكاس لروح العقيدة الفاطمية نفسها . وحقاً ، لم تعرف مصر منذ عهد الفراعين ، دولة دينية شبيهة بالدولة الفاطمية .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان من الممكن الفصل بين النظم السياسية التي لا تخلص من الدين والدين نفسه ، وإن كانت كلمة « دولة »^(٢) التي تملأ وثائق ديوان الإنشاء الفاطمي ، وتكون جزءاً من ألقاب كبار الموظفين^(٣) ، لم تعن يومئذ المعنى الذي نلصقه بها الآن ، ففي العصور الوسطى كانت الدولة ترتكز على أساس ديني وسياسي .

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٩٣ .

(٢) رسائل المستنصر : (٢٧) ؛ (٣٤) ؛ (٥٣) (٦٣) ، الخ .

(٣) نفسه ؛ انظر :

ففرضنا إذاً من هذا البحث ، هو دراسة النظم السياسية والرسوم الفاطمية في مصر ، وليست العقيدة الدينية الفاطمية ، ولكي نبرز المعالم المختلفة لنظم الدولة في وضعها الطبيعي ، رتبناها على كتابين .

الكتاب الأول ، ويشمل الفصل الأول فيه نظام الإمامة الفاطمية في مصر ، وفي الدولة الفاطمية — كما في غيرها من الدول الإسلامية — كانت الإمامة أو الخلافة هي أساس كل النظم السياسية الدينية .

ونعرض بعد ذلك في الفصل الثاني نظام الوزارة ، وهو أيضاً من النظم التي تميز الدولة الفاطمية ؛ فقد كان الوزير يأتي في المحل الثاني بعد الخليفة ؛ في التنظيم السياسي في الدولة الفاطمية .

وفي الفصل الثالث ، نتكلم عن الإدارة ، وسندرس منها ديوان الإنشاء ، والنظم المالية ، والإدارة المحلية للولايات . وكانت وظائف الإدارة عامة ، تكون جزءاً من وظائف أرباب الأقلام ، حيث أن الدولة الفاطمية ، كغيرها من الدول الإسلامية ، تميز بين مرات السيف والقلم .

وفي الفصل الرابع ، سنقوم بدراسة الوظائف الدينية ، وهي أيضاً من وظائف أرباب الأقلام ، وتشمل النظم القضائية ونظام الدعوة ، فالأولى ترتكز على الشعائر القانونية ، والثانية على العقيدة الدينية .

وفي الفصل الخامس ، نتعرض للنظم الحربية : جيش وبحرية ، وهي تتميز عن مراتب القلم : الإداريه والدينية ، وهذا التمييز لم يهمله أي كاتب في العصور الوسطى تعريضاً لدراسة نظم الدول الإسلامية .

أما الكتاب الثاني ، فلنكمل معارفنا عن النظم السياسية للدولة الفاطمية ، فإنه من الضروري بعد عرض هذه النظم ، التعرض لنظام البلاط ورسومه . فسنعرض في الفصل الأول إذاً لنظام البلاط .

وفي الفصل الثاني ، بعد ذلك ، سنتكلم عن رسوم هذا البلاط .

نقد المراجع

وسنوزع المادة التاريخية التي في متناولنا ، على الموضوعات المختلفة التي سنعالجها في كل فصل من الكتابين .

الإمامة :

فقد جعل مؤلفو الشيعة مكاناً خاصاً في كتبهم لموضوع الإمامة أو الخلافة الفاطمية ؛ وهي كتب عديدة في علم الدين ، والفقه ، والأدب ، والفلسفة ، والدعوة . ومن حسن حظنا حقاً أننا نملك عيون المؤلفات الموثوق بها ، والتي ألفها كبار الكتاب الفاطميين في الإمامة . فهذا النظام الجوهري في الدولة الفاطمية تناولته ووضحته وثائق أغلبها مخطوطة ؛ لم تر الضوء على يد البُحاث إلى الآن .

ومعظم مصادر الدرجة الأولى ؛ من تأليف أشهر فقيه من فقهاء العقيدة الفاطمية ، القاضي النعمان بن حيون^(١) ، المتوفى ٣٦٣ / ٩٧٤ . فقد كان هذا القاضي ذا صلة شديدة بكل خلفاء الفاطميين في المغرب ، من الخليفة عبيد الله (٢٩٧ - ٣٢٢ / ٩٠٩ - ٩٣٤) ، إلى الخليفة العزيز بالله (٣٤١ - ٣٦٥ / ٩٥٢ - ٩٧٥) ، الذي غزا مصر . فجعل هذا الخليفة النعمان كبير قضاة وحجته أي كبير دعاة ، وهو ككاتب ضليع ، ألف كتباً عديدة في كل أنواع العلوم^(٢) : فألف في الوعظ ، والتاريخ ، والأخبار ، والسير ، والعقائد ، والحقائق والتأويل ، والفقه . ويروي ابن خلكان^(٣) فقرة عن هذا الكاتب مأخوذة

(١) ابن خلكان ، وفيات ، ٢ ، ص ٢١٩ ؛ انظر : كامل حسين ، في أدب مصر الفاطمية ص ٤٢ - ٥٤ ؛ Fyze : Kadi an-Nu ' mân J. R. A. S. 1934. p.-32; The Ismaïli law and its founder, Isl. Cult. vol. IX, no 1 Jan. 1935, p 107 et suiv.

(٢) Ivanow : A Guide to Ismaïli literature, p, 34.

(٣) وفيات ، ٢ ، ص ٢٤٦ .

من ابن زولاق مؤرخ الفاطميين فيقول : إن النعمان «من أهل الفضل والعلم» . ولا ريب ، فقد ترك النعمان آلاف الأوراق في العلوم الفاطمية ، وبلغ ما ألفه ٤٤ كتاباً ، معظمها لم يصل إلينا ؛ ومع ذلك فقد بقى من تأليفه ونائق ذات قيمة عظيمة .

ومما يزيد في أهمية كتبه ، أنها ألقت بناء على أمر من الخليفة المعز الذي راجعها بنفسه بعناية كبيرة . ومعنى هذا أن الخليفة المعز يعتبر مشاركاً للنعمان في تأليف هذه الكتب ؛ فهو الذي شجعه على البحث في أصول العقيدة الفاطمية ، وأخرج إليه كتب أجداده^(١) .

فندكر من بين مؤلفات النعمان التي تلتقى النور على نظام الإمامة الفاطمية أربعة : منها اثنان ما زالوا خطيين .

الكتاب الأول : دعائم الإسلام^(٢) تحقيق . آصف بن علي فيضي ، القاهرة ١٩٥١ ، وهو نص معاصر مملوء بالشعائر الفاطمية الخاصة بالعقيدة والتشريع ، ويتكون من جزئين لم ينشر منهما إلا الجزء الأول^(٣) . فالأول يبحث في حق عليّ وسلالته في الإمامة ، مع الاستشهاد بالقرآن والحديث ، وحتى المنطق ، وعرض آراء الفرق الخاصة للفاطميين . وربما كان أحص ما يمتاز به هذا الكتاب ، أننا هنا بعداء عن الغموض الشيعي . فنستطيع أن نستخلص النقاط المهمة في نظام الإمامة مثل : (النص) أو تولية الإمام خلفه حيث أن أصل

(١) النعمان ، مجالس ، ٢ ورقة ١١٥ ؛ ورقة ٢٨٨ .

(٢) العنوان الكامل لهذا المؤلف هو : دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام . انظر :

Brockelmann : Gesch. der Litt. Suppl. Leiden 1934, I, p. 324 — 25

; Ivanow : A Creed of the Fatimids, p 6 — 10 ; Guide, p. 37 N. 64;

Fyze : The Isma'ili Law of wills; J. R. A. S. , 1934, p 20—25.

(٣) المخطوطة المصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ب ١٩٦٦٥ ، لا تشمل إلا أعلى

الجزء الأول ، انظر : Fyze : Kadi an-Nu mân J. R. A. S, Jan, 1934, p 20.

النص يرجع إلى آدم ؛ (والولاية) أى سلطة الإمام ؛ وعصمة الإمام وسلطته الروحية . أما الجزء الثانى وهو الذى لم يُنشر بعد ، فهو يشتمل بخاصة على المصادر التشريعية للقانون الفاطمى ، وستكلم عنه عند الكلام على مصادر القانون الشيعى .
الكتاب الثانى : شرح الأخبار^(١) عبارة عن مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ح ٧٠٦٢ ، ويشتمل على ١٩٣ ورقة . ونقول ابن النعمان أنه مختصر لكتاب لم يصل إلينا عنوانه : « مناقب بنى هاشم ومثالب بنى أمية » . وهو يتكون من ستة عشر فصلا وينصب على ذكر تفاصيل وصاية النبی لعلى في خلافة المسلمين ، ونتف من حياة على وفضائله ، ومقتل عثمان . فأهمية هذا الكتاب — الذى استخلصنا منه حقائق مفيدة — راجعة قبل كل شيء إلى تفاصيله الوافية عن أصل الإمامة الفاطمية ، أو بمعنى آخر ، عن مبدأ الوصاية أى تولية النبی لعلى في خلافة المسلمين من بعده . ويصح هذا النص ترجمة للنعمان مأخوذة — على ما يظهر — عن كتاب الوفيات لابن خلكان ، حيث أن الناسخ لا يذكر لنا اسمه .

الكتاب الثالث : المجالس والمسائرات^(٢) وهو مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد بالقاهرة برقم ٢٦٠٦٠ ، ويشتمل على ثلاثة أجزاء تتكون بالتوالى من ٣٧١ ؛ ٣٧٢ ؛ ٦١٤ صفحة . ويحدثنا النعمان عن السبب الذى من أجله ألف هذا الكتاب : فقد أراد أن يجمع فى مكان واحد أقوال الأئمة الفاطميين المعاصرين له ، وبخاصة أقوال المعز ، التى كانت تُذكر فى المجالس الفاطمية ، وهى مجالس الدعوة لشرح أصول العقيدة . وهذا النص مكتوب بعناية كبيرة ، حيث يجمع فيه

(١) العنوان الكامل : شرح الأخبار فى فضائل النبی المختار وآله المصطفين الأخيار

من الأئمة الأطهار عليهم السلام . انظر :

Brock : Suppl, I, 325. ; Ivanow : Guide , p 38 (68).

(٢) العنوان الكامل : المجالس والمسائرات والمواقف والتوقيعات عن الإمام المعز لدين الله

وعن آباءه صلوات الله عليهم . انظر :

Brock : Suppl, I, p 325. ; Ivanow : Guide, p 40 (100).

المؤلف أقوال الأئمة دون أدنى تحريف . فيجب ألا ننسى — في الواقع — أن أقوال الأئمة كألفاظ القرآن في الجزالة والفخامة والبيان يعجز أن يحكيها البشر . فتمدنا المجلس بمعلومات غزيرة عن نظام الإمامة الفاطمية ، مع حفظها من كل مغالاة أو مبالغة ، فالإمامة الفاطمية تتشابه مع غيرها من النظم السياسية ، حيث أن الصفة الروحية للإمام لم تكن خارقة ، كما تحاول إبرازها المراجع الأخرى ، التي ألفها السنيون — على الأخص — أعداء الفواطم . ففي هذه المجالس ، كثيراً ما اعترض المعز على الدعاة الذين تغالوا في الكلام عن صفاته . ثم إن الكتاب يحمل في ثناياه سلطة الأئمة الدينية والروحية ، والعلم اللدني الذي يتوارثه إمام عن إمام . وبجانب كل هذا نجد في الكتاب معلومات ليست ذات قيمة كبرى عن دور القاضي وواجباته ، وعن الأسطول الفاطمي وغاراته .

الكتاب الرابع : كتاب الهمة^(١) تحقيق كامل حسين . القاهرة ١٩٤٨ ، وهو جزءان في كتاب واحد . الأول يحوى مادة غزيرة — على الأخص — عن نظام (الولاية) أو سلطة الإمام على رعاياه ، وهو من أسس الإمامة الفاطمية في مصر . والثاني خاص بالرسوم المتبعة في حضرة الإمام ، وسنتكلم عنه عند الكلام على رسوم الفاطميين .

وتمت بجانب هذه المؤلفات الأربعة الكبيرة للنعمان ، نملك وثائق أخرى معاصرة وذات قيمة كبرى تفيدنا في البحث عن نظام الإمامة في العصر الفاطمي ، وها هي نظرة سريعة تحليلية . .

١ — سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله إلى دعاة اليمن وغيرهم^(٢) ، وهي مخطوطة بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٧١٥٥ ،

(١) العنوان الكامل : كتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة . انظر : Ivanow : Guide : p 39 (85) ، هذا الكتاب لم يرد ذكره في Brock .

(٢) انظر : Hamdani ; The letters of Mustansir, B. S. O. S., 7, 1933 : 312. — 1935, p, 306 — 312.

وتشتمل على ١٧٥ ورقة . فهذه المخطوطة التي أقوم بنفسى على تحقيقها ، تشتمل على ست وستين رسالة صادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمى ، إلى صليحيى اليمن فى عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤) ، وأوائل حكم الخليفة المستعلى (٤٨٧ — ٤٩٥ / ١٠٩٤ — ١١٠١) . فتسمح لنا التفصيلات الواردة فيها ، بالتعرف على ألقاب الخلفاء ، وعلى التقاليد المتبعة فى مراسلاتهم . وفوق ذلك فإن هذه المخطوطة تمدنا بمعلومات ثمينة عن طبيعة (النص) ؛ وتساعدنا على إلقاء نظرة جامعة على تاريخ سلطة الإمام الدينية الروحية . وفى الجملة هذه المخطوطة ذات فائدة جلى فى الناحية الأدبية ؛ كما هى فى الناحية التاريخية .

٢ — « الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية فى إبطال الدعوة النزارية »^(١) ،

تحقيق وتقديم آصف فيضى (أظر. Isl. Res. Ass. Series No. 7. Bombay, 1938.) ؛ تشتمل على رسالتين صادرتين عن ديوان الإنشاء فى عهد الخليفة الفاطمى العاشر ، الأمر بالله (٤٩٥ — ٥٢٤ / ١١٠١ — ١١٣٠) . وهاتان الرسالتان — من كتب الدعوة — ترميان إلى نقض أحقية نزار الإبن الأكبر للخليفة المستنصر فى الإمامة ، وتميلان إلى تأييد سلطة الإمام المستعلى ، الإبن الأصغر للخليفة ، ووالد الخليفة الأمر . فنستطيع أن نستخلص من الرسالتين معلومات ضافية فى غاية الأهمية عن تولية الإمام خلفه ، وعن السلطة الروحية والدينية للأئمة ، ومن ناحية أخرى ، فإن الرسالتين تبرزان العالم الإلهى الذى يتوارثه الإمام عن سلفه عن طريق النص ، ميزة خاصة بالأئمة .

٣ — « تاج العقائد ومعدن الفوائد » ألفه سيدنا على بن محمد بن الوليد

(م ٦١٢ / ١٢١٥) ، وترجمه إلى الإنجليزية Ivanow تحت عنوان :

(١) انظر : Ivanow : Guide, p. 50 (173).

« A Creed of the Fatimids. Bombay 1936. » . ويعتبر هذا الكتاب
سرجعاً من الدرجة الأولى ؛ فقد ألف خصيصاً لإصلاح الأغلاط التي ارتكبها
المؤلفون في كتاباتهم عن الإمامة، وعن العقيدة الفاطمية . فهو يمدنا بمعلومات صحيحة
عن أسس الإمامة، وعن وصاية عليّ وحق خلفائه في الخلافة، وعن سلطة الإمام
الدينية، وأخيراً عن نظام البيعة .

وبجانب هذه المراجع الرئيسية، لدينا مراجع أخرى تأتي في الدرجة الثانية،
وإن كانت أيضاً ثمينة في دراستنا لنظام الإمامة .

فستعين أولاً بكتب الدعوة الفاطمية التي ألفها الدعاة الفاطميون أنفسهم،
والتي تظهر أهميتها في الدراسة الدقيقة لطبيعة الإمام الفاطمي الروحية والدينية .

فندكر الكتاب المعنون : « المجالس المستنصرية »^(١)، تحقيق كامل حسين،
الذي قد يكون من تأليف كبير دعاة الخليفة المستنصر : « المؤيد في الدين الشبرازي »
(م ١٠٨٧ / ٤٧٠)^(٢) .

ثم ندكر كتاب « السيرة المؤيدية »^(٣)، من تحقيق كامل حسين أيضاً، وهو
من كتب السير العظيمة المقدار .

وفوق ذلك نجد معلومات قيمة في المؤلفات الجليلة التي خلفها لنا ناصرى
خُسرو، الذي وفد على مصر في ٤٥٢ / ١٠٦٠، والتي سنتكلم عنها عند الكلام

(١) انظر : Ivanow : Guide, p 48 (155).

(٢) المجالس المستنصرية، تحقيق كامل حسين، القاهرة، ص ١١ .

(٣) انظر : Ivanow : Guide, p 48 (154); Brock : Suppl, I, p 326. ;

Hamdani : The history of the Isma'ili Da ' wat and its literature. J.R.A.S.
1932, p 26 — 36.

على مصادر نظام الدعوة مثل: خوانى اخوان^(١)؛ ووجه الدين^(٢)؛ وزاد المسافرين^(٣). وهذه الكتب الثلاثة نجدها مضمّنة في كتاب الخشّاب تحت عنوان: «Nāsiri Husrau. Le Caire. 1946.»

ويجدر بنا أن نفسح هنا في مراجعنا — لتكملة معلوماتنا عن صفات الإمام الفاطمي — مكاناً لدواوين الشعر؛ فقد تركت العقيدة الفاطمية في نفوس الشعراء وقلوبهم أثراً كبيراً وعميقاً. فنعرف من الشعر الفاطمي، دواوين أربعة شعراء كبار، وهي:

- ١ — ديوان ابن هاني (م ٣٦٢/٩٧٣)، تحقيق زاهد علي، بيروت ١٣٥٦^(٤).
- ٢ — ديوان ناصري خسرو، وهو نص فارسي، ذكرت أجزاء كثيرة منه في كتاب الخشّاب الذي ذكرناه عن ناصري خسرو^(٥).
- ٣ — ديوان المؤيد في الدين، تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩^(٦).
- ٤ — ديوان الشاعر عمارة (م ٥٦٩/١١٧٤)، تحقيق Derenbourg، باريس ١٨٩٧. وقد عاصر عمارة آخر خلفاء الدولة الفاطمية، وهو في ديوانه يتكلم — مثل غيره من شعراء الفاطميين — عن الصفة الروحية للإمام.

ولكى يزداد بحثنا عن الإمامة دقة، لا مناص لنا من أن نقيم وزناً للمصادر الكلامية التي كتبها على الأخص السنيون أعداء الفاطميين؛ فقد أمهّب علماء الدين المسلمون عن الإمامة في كتاباتهم.

(١) Ivanow : Guide, p 93 (594).

(٢) نفسه، ص ٩١ (٥٩٠).

(٣) نفسه، ص ٩٢ (٥٩١).

(٤) ابن خلكان، وفيات، ص ٢ — ٥ — ٧، انظر: Kremer : Ueber den

Schī'itischen Dichter. Ibn Hani' Z. D. M. G. , 24, 1870 P, 481—494,

(٥) Ivanow : Guide, p. 91. (587)

(٦) نفسه، ص ٤٨ (١٥٦) : Brock : Suppl, 1, p326.

فنجده الغزالي (م ١١١٢/٥٠٥) في فضائح الباطنية، تحقيق Goldziher ،
ينقد مبدأ النصّ عند الخلفاء الفاطميين في مصر، ولكن بأقوال ساخرة . كذلك
الموردى (١٠٥٨/٤٥٠) : في أحكام سلطانية ، يعطينا فكرة عامة عن نظام
الخلافة بمعناها الواسع الخاص بخلافة بغداد السنية . وفي المقدمة ، وهي دائرة
معارف واسعة ، نجد ابن خلدون المفكر الكبير لا يُبدي مع ذلك ، غير
ملاحظات عابرة عن الخلافة الفاطمية .

من كل الذي أورده من المصادر الأصلية المتعددة والمختلفة ، يتبين لنا أهمية
نظام الإمامة الفاطمية في بناء الدولة .

الوزارة :

ليس لدينا عن الوزارة مرجع واحد شامل ، فنحن مضطرون في تحقيق
معلوماتنا عنها ، للرجوع إلى مصادر مختلفة ومتنوعة .

فقبل كل شيء ، لا غنى لنا عن أن نستعين بسجل في غاية الأهمية خاص
بتولية الوزير الجرجاني في ١٠٢٧/٤١٨ — أحد الوزراء في عهد الخليفة الفاطمي
الظاهر (٤١١ — ٤٢٧/١٠٢٠ — ١٠٣٥) — وهو موجود بنفسه الكامل في
كتاب ابن القلانسي (م ١١٦٠/٥٥٥) المعنون : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت
١٩٠٨ ، ص ٨٠ — ٨٣ . فنجد فيه التسميات المختلفة للوزارة ، وألقاب الوزير ،
وطريقة اختياره ، وسلطانه . وهذا السجل عينه — مع أنه في غاية الطرافة —
لا يختص إلا بوزير التنفيذ ، أحد أنواع الوزراء في عهد الفاطميين .
ومن حسن الحظ أننا نملك أيضاً حصيلة تاريخية من الدرجة الأولى عن وزير

التفويض في رسائل الإمام المستنصر إلى صليحي اليمن، وهي المخطوطة التي تحدثنا عنها. فنستطيع أن نستخلص من هذه المراسلات حفلة التولية، وألقاب الوزراء، وسلطاتهم الواسعة، حيث يظهر لنا فيها — على الأخص — أسما وزيرين للتفويض هما بدر وابنه الأفضل.

وكذلك نجد سجلات تولية الوزير شيركوه، والوزير صلاح الدين في كتاب القلقشندي، ج ١٠ ص ٨٠ — ٩٠؛ ٩١ — ٩٨، فنلاحظ فيهما تطور سلطة وزير التفويض السني، المعين من قبل الخلافة الشيعية.

علاوة على هذه السجلات، وهي مصادر من الدرجة الأولى، نعتمد على المراجع الأصلية التي تتناول تراجم وزراء الدولة الفاطمية. فنطلع على كتاب ابن الصيرفي (م ١١٤٧/٥٤٢): الإشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٥ — ١٩٢٦. وهو كتاب قيم، ومما يزيد من أهميته أن ابن الصيرفي كان معاصراً للفاطميين، وعمل بدواوينهم من عهد الخليفة العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦/٩٧٥ — ٩٩٦) حتى الأمر (٤٩٥ — ٥٢٤/١١٠١ — ١١٣٠). فهو يقتبع في هذا الكتاب، تراجم الوزراء إلى عهد الأمر، ويذكر لنا بدقة تطور رتبة الوزير وألقابه، كما يروى أيضاً طريقة اختياره.

وكتاب آخر يعرض لسيرة الوزراء في آخر عهد الدولة، ألفه الشاعر عمارة اليميني (م ١١٧٤/٥٦٩)، وعنوانه: النكت العصرية في أخبار الوزارة المصرية، تحقيق Derenbourg، باريس ١٨٩٧. ففي هذا الكتاب يرسم لنا عمارة في قصائده صورة شائقة لحياة وزراء الفاطميين ونفوذهم، وقد زار عمارة هذا مصر في آخر حكم الدولة الفاطمية سنة ١١٥٥/٥٥٠.

كذلك ترك لنا المقرئ في كتابه المخطوط، طبعة بولاق، ص ٤٣٨ — ٤٤٣،

فقرة قصيرة هامة عن نظام الوزارة الفاطمية ونفوذها وألقابها وزيتها .
كما نجد فقرة أخرى أوردها القلقشندي في كتابه صباح الأعشى ، طبعة
دار الكتب المصرية ، ٣ ص ٤٨٩ — ٤٩٠ ، وإن كان هذا المصدر تنقصه
التفاصيل الدقيقة التي أوردها المقرئزي .

ومن الجلي أن نستعين في بحثنا عن الوزارة الفاطمية بكتب الأخبار الخاصة
بتاريخ الدولة الفاطمية مثل : ابن ميسر : تاريخ مصر ؛ ابن القلانسي : ذيل
تاريخ دمشق ؛ ويحيى : تاريخ ؛ ابن خلدكان : وفيات الأعيان ؛ ابن الأثير :
الكامل ؛ ابن تغري بردي : النجوم ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، وحسن المحاضرة ؛
وأبو الفداء : المختصر ؛ وأخيراً أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين .

ومن ناحية أخرى علمنا أيضاً أن نهتم بالكتب الكلامية ، التي تمدنا
بمعلومات عن نظام الوزارة ، وتهيء لنا فرصة المقارنة والنقد .
فن هذه الكتب : كتاب الماوردي : قوانين الوزارة وسياسة الملك ،
والأحكام السلطانية ؛ وكتاب ابن خلدون : المقدمة ؛ وكتاب ابن الطقطقي :
الفخرى . وهذا الأخير يقدم إلينا تاريخ الخلافة والوزارة منذ نشأتها حتى سقوط
الخلافة العباسية .

وجدير بالذكر هنا ، أن نتكلم على مالدينا من نصوص أثرية خاصة
بوزراء الفاطميين .
فلدينا ما كتبه Sauvaget عن نقش بدر (م ٤٨٧ / ١٠٩٤) وزير الخليفة
المستنصر : « Inscription de Badr al-Jamâlî » ، وهو نص أثرى في
غاية الأهمية . (أنظر . Ext. de la Revue Syrienne . 1929) .

وغير هذا النص ، لدينا نصوص أخرى لفقوش كثيرة فاطمية جمعها :

Le Répertoire chronologi- Sauvaget. Combe. Wiet.
que d'épigraphie arabe. (أنظر . 1931. Inst. franc. d'arch. Le Caire.)

بقي علينا أن نذكر مقالة هامة من تأليف Goitein :

Isl. Cult. July and . (أنظر) the vizierate and its true character.
October 1942.)

الإدارة :

عمدتنا في دراسة النظم الإدارية بصفة عامة مصدران أساسيان هما القلقشندي
(م ٨٢١ / ١٤١٨) : صبح ؛ المقر يزي (م ٨٤٥ / ١٤٤٢) : الخطوط ؛ فقد
اعتمد المؤلفان على مقتطفات من أنفس المراجع التاريخية ، التي عاصرت العهد
الفاطمي الزاهر^(١) . ومما يزيد من أهمية هذين المصدرين أن كلا من المؤرخين كان
(١) نذكر من المؤلفات التي رجع إليها المؤلفان ، ما كتبه ابن زولان « الحسن بن ابراهيم »
(م ٣٨٧ / ٩٩٧) ، ومعظمها قد ضاع لسوء الحظ . فكل ما نعرفه من مؤلفاته ، شذرات غير
ذات قيمة لبحثنا ، مأخوذة من كتاب « فضائل مصر وأخبارها وخواصها » موجودة في المكتبة
الأهلية بباريس ، تحت رقم ٢٠٦٩ ، أو في مكتبة دارالكتب المصرية بالقاهرة ، تحت رقم ٣٥٩١
تاريخ . بيد أن أهمية مؤلفاته تظهر فيما نقله منها المؤرخون المتأخرون كالمقر يزي والسكندي ،
من حصيلته التاريخية ثمينة . ولنذكر أيضاً المسيحي : « الأمير المختار عز الملك محمد » (م ٤٢٠ /
١٠٢٩) ، الذي ينسب إليه ابن خلكان تأليف كتاب « أخبار مصر » ، في ١٣٠٠ ورقة .
(انظر وفيات ، ١ ص ٧٣٦) . وقد اقتطف المقر يزي — على الأخص — كثيراً من فقرات
هذا المؤلف . وكذلك ما زال لدينا من المسيحي مقالة قصيرة عن حكم الخليفة الظاهر ، نشرها
Becker في Beiträge . وعلى العكس ، فإننا نملك كتاب القضاعي : أبي عبد الله (م ٤٥٤ /
١٠٦٢) : « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ،
تحت رقم ١٧٧٩ تاريخ . وإن كنا لا نثق في نسبه إليه ، وذلك لأن هذا المخطوط يستعرض
حوادثاً مشحودة بدون نظام أو ترتيب معقول ، حتى عصر المهاليك . وقوق ذلك فإن المعلومات
الواردة فيه ليست لها قيمة ما ينقله المقر يزي عن القضاعي نفسه .

من كبار الموظفين في القرن التاسع الهجري ، فكان كلاهما وثيق الصلة بالنظام الإداري ، فنقلا إلينا — بمهارة معجزة — ملاحظات قيمة عن الإدارة الفاطمية ودواوينها .

موسوعة ثالثة هامة جداً ، لها قيمة تاريخية مساوية لقيمة « صباح » و « الخطط » ، ألفها النويري (م ٧٣٢ / ١٣٣٢) بعنوان « نهاية الأرب في فنون الأدب »^(١) ، ونشرتها دار الكتب المصرية ، من ١ إلى ١٢ ؛ وقد بقيت الأجزاء الأخرى نسخاً خطية بمكتبة هذه الدار ، برقم ٥٤٩ — معارف عامة .

الإنشاء :

لدينا مرجع قيم يعرض لديوان الإنشاء في مصر في العصر الفاطمي ، من تأليف ابن الصيرفي (م ١١٤٧ / ٥٤٢) بعنوان : قانون ديوان الرسائل ، تحقيق علي بهجت ، وترجمة Massé . وهو يعد من أقدم الوثائق العربية التي نعرفها عن تاريخ ديوان الإنشاء في مصر ؛ وبما يزيد أهميتها أن المؤلف نفسه عمل كرئيس لهذا الديوان في عهد الفاطميين .

ثم نذكر القلقشندي الذي اقتبس كثيراً من ابن الصيرفي في صباح ١ ص ١٣٠ — ١٣٩ ؛ والمقرئزي الذي أورد في الخطط ١ ص ٤٠٢ ، معلومات ذات فائدة كبيرة إلا أنها مختصرة ؛ وابن ممتي (م ٦٠٦ / ١٢٠٩) الذي تعرض في قوانين الدواوين لديوان الإنشاء بصفة عامة .

ونذكر أخيراً الكتاب الألماني الطريف : Beiträge zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Ägypten. ، وهو من

تأليف Björkman

المالية :

نستند في دراسة النظام المالي إلى كتابي المقريري والقلقشندي؛ وهما المصدران الكبيران في هذا الصدد. فيصف لنا المقريري في « الخلط » دواوين المالية المختلفة ، وأنواع الضرائب ، ويضمن كتابه ثبثاً مفصلاً عن الضريبة المسماة « مكس ». ولكن الجدول الخاص بهذه الضريبة يبدو أكثر وضوحاً في

ترجمة Bouriant : Description Topographique et Histo-

rique de l'Egypte p. 298 et suiv. . أما ما أورده القلقشندي في

صبح ٣ ص ٤٩٣ — ٤٩٦ ، فيشمل على الأخص بعض الدقائق الخاصة بالحياة

المالية .

ونستند كذلك إلى كتاب أبي صالح : « الكنائس والأديرة » ، تحقيق وترجمة Evetts . فهذا الكتاب ألف حوالي ١١٧٢/٥٦٨ ، ويحتوى على جدول في غاية الأهمية ، عن ضريبة الخراج في عهد الخليفة المستنصر . كما يوضح لنا أبو يوسف الضريبة الأرضية في « كتاب الخراج » .

على أننا يجب أن نذكر بعض الكتب الحديثة التي تناولت النظام المالي في عهد الفاطميين مثل : مذكرات الأمير طوسون عن « مالية مصر من عهد

الفراعنة إلى الآن » ؛ وبمحت Michel Bernard : L'organisation de

Van Berchem : l'Egypte sous les sultans mamelouks ؛ وكتاب

Becker : La propriété territoriale et l'impôt foncier . ومقالة

عن « L'Egypte » في دائرة المعارف الإسلامية ؛ وأخيراً كتاب راشد البراوي :

« حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين » .

النقود :

عن موضوع النقود ؛ نطلع على كتاب المقريزي : النقود الإسلامية الذي نشره انستاس ماري مع ما كتبه البلاذري و ابن خلدون و القلقشندي عن النقود في كتابه التمين : النقود العربية و علم النميات ^(١) . وكتاب المقريزي هذا يشمل على معلومات ضافية عن النقود في الفترة السابقة على الإسلام ، وفي الدول الإسلامية على الأخص في مصر حتى عصره .

وقد ترجم De Sacy هذا الكتاب تحت عنوان : Les monnaies musulmanes ، بعد أن حذف منه الجزء الخاص بنقود مصر . ويظهر أن انستاس ماري اعتمد على نسخة من كتاب النقود المقريزي أكثر تفصيلاً من تلك التي اعتمد عليها De Sacy .

ولنذكر أيضاً خاصاً بالنقود جدول Lavoix : Catalogue des monnaies musulmanes ، في ثلاثة أجزاء ، أهمها الجزء الثالث ، وهو يشمل على نقود خلفاء الفاطميين .

كما نذكر كتاب Sauvaire : Matériaux pour servir à l'histoire de la Numismatique et de la Métrologie musulmanes . وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : نقود ، موازين ، مقاييس ، ويسمح لنا بنظرة مدققة عن تطور العملة .

وكانذكر مقالة طريفة كتبها Gateau : Sur un dinar fatimide . في مجلة Hesperis الصادرة في ١٩٤٥ ص ٦٧ — ٧٢ ، يشرح لنا فيها النصّ بلغت حجة الله المطبوعة في دينار ساسك في سنة ٢٩٧ .

(١) توجد طبعة أخرى لكتاب المقريزي تحت اسم : شذور العقود في ذكر النقود ،

وأخيراً نذكر مقالتيين طرفيتين : فالأولى من Influence : Massignon
de l' Islam au Moyen — Age sur la fondation et l'essor des
banques juives. (انظر : Bull. d'Et. Or. Paris. 1931) ؛ والثانية من
« The origin of Banking in Mediaeval Islam: A : Fischel
contribution to the economic history of the Jews of Baghdad
(انظر . J. R. A. S. 1933) in the tenth century. » .

الولايات :

لم يصلنا عن الولايات إلا البعض القليل من المعلومات : فيورد لنا أبو صالح
في كتابه « الكفائس » جدولاً عن التقاسيم الإدارية ؛ ويمدنا عمارة في كتابه
« الدكت » بمعلومات مفيدة — بين السطور — عن نظام الولايات وذلك عند
إظنابه بالمدح في الولاة ؛ أما القلقشندي في صبح ٣ ص ٤٩٧—٤٩٨ ، فيأتي
بنبذة شيقة للغاية عن نظام الولايات الفاطمية .

ونذكر كتب الجغرافيين العرب مثل : المقدسي (م ٣٨٧ / ٩٩٧) : أحسن
التقسيم ؛ وابن حوقل (القرن الرابع) : المسالك ؛ والأدرسي (م ٥٦٠ / ١١٦٦) :
نزهة المشتاق ؛ وابن جبير (٦١٤ / ١٢١٧) : رحلة . فهؤلاء قصرُوا وصفهم على
الحالة السياسية ، وعرضوا للتقسيم الإدارية ، وذكرُوا شمرة المدن من الناحية
الجغرافية والاقتصادية .

وأخيراً نذكر كتاب الأمير طوسون : « جغرافية مصر » ، وهو يكمل معلوماتنا
عن هذه التقاسيم ؛ ومقالة Becker : « L'Egypte » (في دائرة المعارف الإسلامية) ؛
وفيها يشرح الكاتب الفايغ بنظرته المدققة التقسيمات الإدارية لهذه البلاد .

النظم الدينية :

يعرض الفصل الرابع للنظم الدينية؛ وسنورد المراجع التي تتعلق بكل موضوع.

القانون الفاطمي :

فمعظم النصوص الرسمية التي تعالج القانون الفاطمي غير معروفة؛ فلعل أكثرها قد ضاع أو أنها ما زالت في مجموعات خطية مجهولة. فقد ألف عدد كبير من رجال الدولة الفاطمية كتباً في القانون الجديد، نذكر منهم القاضي الفقيه علي بن النعمان (م ٣٧٤/٩٨٤) الذي ألف مختصراً في الشرع سماه «الاقتصار»^(١)؛ والوزير يعقوب بن كلس (م ٣٨٠/٩٩١) الذي كتب مختصراً في الفقه باسم «الرسالة الوزيرية»^(٢). وهذان المرجعان قدما ولم يصلنا إلينا.

ولحسن الحظ أننا نملك أقوم مصدر هام للتشريع الفاطمي نفسه من تأليف النعمان بن حيون (م ٣٦٣/٩٧٤) وعنوانه: «دعائم الإسلام»^(٣). فهذا الكتاب أخذ به كل فقهاء تلك الدولة في مصر، ولا يزال الإسماعيلية في الهند^(٤) يستعملونه حتى وقتنا الحاضر. وهو يحتوي — كما بينا سابقاً — على جزئين في عقائد الفاطميين وتشريعاتهم، فهو عبارة عن قاموس حقيق للقانون الشيعي. فالجزء الأول منه بجانب الكلام في العقائد يبحث في نظام العبادات، والجزء

(١) مقریزی، خطط، ٢، ص ٣٤١ س ٣.

(٢) ابن الصيرفي، إشارة، نشر عبد الله مخلص (B. I. F. A. O.)، ٢٥، ١٩٢٥،

ص ٢٢.

(٣) انظر ما سبق.

(٤) The Isma'ili law of wills, Bombay, 1933 p. 5. : Fyze (٤)

الثاني يبحث في المعاملات . وقد وصف لنا الكاتب العبادات الدينية بتفصيل دقيق ، فمدنا بمعلومات ضافية من « الطهارة » و « الصلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الحج » وأخيراً « الجهاد » . وقد نشر فيضى الجزء الأول من هذا الكتاب ؛ كما نقل أيضاً في كتابه : « The Isma'ili law of wills » ، كتاب الوصايا الوارد في الجزء الثاني ؛ أما باقى النص فما زال مخطوطاً . وفي الواقع أن كتاب دعائم الإسلام هام جداً في الناحية القانونية ، فهو يشرح أصول القانون وفروعه .

ولكى يزداد فهمنا للتشريع الفاطمى على وجهه الصحيح ، علينا أن نقارنه بالتشريعات الأخرى ، وبخاصة تشريعات المدارس الفقهية السنية ، أو شيعية إمامية .

فنطلع على كتاب الموردى : أحكام سلطانية ؛ وفيه يشرح المؤلف القواعد العامة للقانون المدنى في الإسلام من الوجهة النظرية الصرفة ؛ وعلى كتاب الحقق (١٢٧٧/٦٧٦) : شرائع الإسلام ، ترجمة Querry ، وهو عبارة عن مجموعة كاملة لشرائع الفرقة الإمامية تبرز فيها الواجبات الدينية ونظام المعاملات .

والحق أنه ليس من السهل أن نذكر هنا أسماء كل فقهاء القانون ، الذين ألفوا كتباً عديدة عن الشرائع السنية أو الشيعية ، في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

القاضى :

إن بين أيدينا مصادر من الدرجة الأولى تحتوى على أدق المعلومات عن وظيفة القاضى في كتاب الكندى (م ٣٥٠ / ٩٦١) : الولاة والقضاة ، تحقيق

Guest (انظر. Gibb. Mém. Series. 1912.)^(١)؛ وفي كتاب ابن حجر (م ٨٥٢)
١٤٤٩) : رفع الإصر عن قضاة مصر^(٢) ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ،
رقم ١٠٥ تاريخ . فالأول يتقصد ترجمة القضاة حتى عصره ، وقد أكلها ابن
زولاق (م ٣٨٧ / ٩٩٧) ، ثم ابن حجر من بعده ؛ فنجد فيها صوراً بديعة عن
الحياة القضائية الفاطمية ، ومادة غزيرة لبحث رتبة القاضي . أما الثاني فهو عبارة
عن جدول مرتب ترتيباً أبجدياً بسّير جميع قضاة مصر ومذاهبهم حتى عصر
المؤلف ؛ فنجد فيه معلومات عديدة عن طريقة اختيار القاضي وتوحيته وسلطته
وألقابه . وفي نهاية المخطوطة ، نقل إلينا ابن حجر عن ابن الطوير المصري (عاش
في أوائل العصر الأيوبي)^(٣) من كتابه الذي ضاع : نزهة المقلتين في أخبار
الدولتين ، خواص وظيفة القاضي الفاطمي .

ومن ناحية أخرى يقدم إلينا ابن شاهين (م ٨٢٨ / ١٤٢٤) ، حفيد ابن حجر ،
في النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار مصر والقاهرة ، وهي مخطوطة بالمكتبة الأهلية
٢ بباريس ، رقم ٢١٥ ، تفاصيل مطابقة تماماً لما كتبه ابن حجر ، وثبتتاً قيماً بأسماء
جميع قضاة مصر .

و بالإضافة إلى ما سبق ، لا غنى لنا عن الإطلاع على الفقرات الرائعة الواردة في
كتاب المقريري : الخطط ، ص ١٤٠٣ — ٤٠٤ ؛ وفي كتاب القلمشندي : صبح
٣ ص ٤٨٦ — ٤٨٧ ؛ وفي كتاب السيوطي : حسن المحاضرة ، الجزء الثاني ؛ حيث
نجد فيه فصلاً خاصاً بقضاة مصر .

(١) انظر Bergsträsser of Egypt, : Guest, The Governors and judges of Egypt, :
Z. D. M. G., 68, 1914, p. 395—417.

(٢) انظر Brock : Suppl, 2, p. 67.

(٣) يظهر أن ابن الطوير عاش في عصر الأيوبيين ، حيث أن كتابه (المقلتين) يتقصد
في الواقع أخبار الفترة الأيوبية . انظر Becker. Beiträge, I, p 29—30.

وعليها أن نستعين أيضاً بكتب الأخبار التي تتناول تاريخ العصر الفاطمي ،
والتي أوردنا بعض أسمائها عند الكلام عن الوزارة .

وأخيراً يجب أن نذكر بعض الكتب الحديثة مثل كتاب Gottheil :
« A distinguished family of fatimids cadis (an-Nu ' mân) in
the tenth century. » (انظر. J.A.O.S. vol. XXVII, 1906, p. 217-298.) ؛
وكتاب Tyan : « Histoire de l'organisation judiciaire en pays,
« Le Notariat et le régime de la : d'Islam. »
preuve par écrit dans la pratique du droit Musulman. »

صاحب المظالم :

جل اعتمادنا خاصاً بهذا الموظف على بعض الفقرات الواردة في كتاب
المقرئزي : خطط ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ ؛ ٢ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ؛ وفي كتاب
ابن الصيرفي : قانون ديوان الرسائل . فقد كان قضاء المظالم يكون جزءاً من عمل
ديوان الإنشاء .

ونستخدم لذلك أيضاً بعض الكتب النظرية ؛ مثل كتاب المأوردى :
أحكام ؛ وكتاب ابن خلدون : المقدمة (Prolégomènes) .

المحتسب :

كل المعلومات التي تتناول وظيفة مفتش الأسواق (المحتسب) الفاطمي في
مصر ، موجودة في بعض فقرات كتاب المقرئزي : خطط ١ ص ٤٦٣ — ٤ ؛

وفي سطور قليلة من كتاب الفلقشندي : صبح ٣ ص ٤٨٧ .

أما الكتب التي تمدنا بمعلومات ضافية عن (الحسبة) ، أو (تفتيش الأسواق) ، فهي الكتب التي ألفت للمحتسب ؛ لتبين له الغش الذي قد يرتكبه التجار ، وأصحاب الحرف ؛ فتعرض هذه الكتب على الأخص لطوائفهم المختلفة . ولكن لم يقع في أيدينا أي كتاب ألفت عن المحتسب في العصر الفاطمي نفسه ، فأهم الكتب التي ألفت كانت في عصر متأخر ، وعلى الأخص في عصر الأيوبيين . فنجد كتاب الشيذري (عبد الرحمن) (م ٥٨٩ / ١١٩٣) : نهية الرتبة في طلب الحسبة^(١) ، تحقيق العريفي ، القاهرة ١٩٤٦ ، ألف في عهد صلاح الدين . فقد عمل الشيذري على كتابة أربعين فصلاً ، وضع فيها نصب عينيه المسائل الخلقية الخاصة بالتجار ، وأصحاب الحرف . ومهما يكن من شيء ، فإننا نستنبط غير مخطئين ، أن الحسبة في العصر الأيوبي بقيت في كل خصائصها ؛ مشابهة للحسبة في العصر الفاطمي ، وعلى ذلك ، فإن كتاب الشيذري له أهمية كبيرة في بحثنا عن نظام الحسبة الفاطمية .

وبجانب هذا الكتاب الهام ، نملك أدباً غزيراً ، فيما ألفت — سواء في الشرق أم في الغرب — يبعث نوراً جديداً يحللو معارفنا عن هذا النظام الإسلامي للحسبة . فنستعين بكتاب ابن الإخوة : معالم القربة في أخبار الحسبة ، تحقيق

Reuben Lévi (أنظر : Gibb. Mémoires New Series vol, XII,)

(Cambridge, 1938)؛ وفيه يعالج المؤلف المسائل الخلقية الخاصة بالتجار وأصحاب

الحرف ، في ستين فصلاً ؛ وكتاب السقطي : أداب الحسبة ، تحقيق

Lévi Provençal, Colin ؛ وهو يصف لنا حياة المدن وأصحاب الحرف في

إشبيلية ، في أوائل القرن الثاني عشر . وفضلاً عن ذلك نستند إلى ما كتبه

ابن خلدون : في المقدمة ؛ والماوردي : في الأحكام السلطانية ؛ وابن تيمية : في الحسبة والإسلام ؛ والدمشقي : في محاسن التجارة . فمن الطبيعي أن يوحي مثل هذا النظام الهام إلى كثير من المؤلفين بالكتابة عنه ؛ بحيث يصعب إيراد جميع أسماء الكتب التي ألفت في هذا الموضوع ^(١) .

ولنذكر بعض البحوث الحديثة من Enquête sur les Massignon corporations d'artisans et de commerçants au Maroc. »
(انظر : R. M. M. 1924 p. 1-250.) ؛ ومن Tyan Hist. de l'org. ؛ ومن Elia Qoudsi jud. en pays d'Islam vol. II. »
« Notice sur les corporations de Damas. » ، تحقيق Carlo Landberg ؛ ومن De Sacy الذي يجمع في مقدمة كتابه Druzes سجلات الخليفة الحاكم التي تختص بالحسبة .

صاحب الشرطة

نجد معلومات عنه فيما كتبه المقرئ في الخطوط ٢ ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛
وابن خلدون في المقدمة ؛ والماوردي في الأحكام .

وأخيراً نعتمد على بعض الكتب الحديثة مثل : Bernhauer :
« Mémoires sur les institutions de Police chez les Arabes. »
(انظر : J. A.S. série t. XV et XVI, 1860, 1861.) ؛ و Tyan Hist. ؛
de l'org. jud. en pays d'Isl. 2, Paris 1943. »

(١) انظر حاجي خليفة : كشف الظنون لندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ ، الجزء الأول .

الدعوة :

من المؤسف حقاً أننا لا نملك الجزء الأكبر من كتب الدعوة الفاطمية ،
فلعلها ما زالت موجودة في مخطوطات مجهولة لنا ومحفوظة بعناية؛ وإن كان أكثرها
قد بُدِد طواعية . فمن المحقق أن النضال الدموي غالباً بين الشيعة والسنة —
ككل الحروب الدينية — كان لا يقف عند اتباع المذهبين فقط ، وإنما يتناول
الكتب والوثائق الحاوية للعقائد والنظم . ولذلك عمل الشيعة على نقل بعض كتبهم
إلى مكتباتهم البعيدة في الهند أو في اليمن ، وهم يحرصون عليها ويسترونها أشد السترة
فأصبحت مجهولة تماماً لنا . وحتى بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر ، أخذت
الدول اللاحقة التي تولت بعدها — كالأيوبيين وكانوا أكثر تحمساً للسنة من
غيرهم — تعمل على محو مظاهر الدعوة الشيعية من مصر وعلى الأخص كتبها .
ومع ذلك فإننا نستحوذ على أنفس نصوص الدعوة الفاطمية وفلسفتها ، وهي
مؤلفات كتبها الدعوة أنفسهم ، عن الدعوة الدينية للمذهب أو ما يسمى (بالحقائق) ،
وهي الفلسفة التي تكون المعنى (الباطن) أو المؤول لما أُصطلح على تسميته بالعقيدة
(الظاهرة) للشيعة .

وأهم المراجع التي بين أيدينا عن هذه الدعوة وفلسفتها هي : «المجالس المستنصرية» تحقيق
كامل حسين^(١) ، وقد يكون مؤلفها المؤيد في الدين الشيرازي (م ٤٧٠/١٠٨٧) ،
أ كبر دعاة الخليفة المستنصر ، وقد يكون غيره .

ومن تأليف المؤيد أيضاً : الموسوعة التي تضم ثمانمائة مجلس والمعروفة
« بالمجالس المؤيدية »^(٢) ، وهي مخطوطة بمكتبة كامل حسين الخاصة ، تشمل
على المحاضرات التي ألقاها المؤيد بنفسه في مناسبات مختلفة ، فهي تعتبر دائرة معارف
ضخمة جداً وغير منظمة عن الدين الفاطمي .

(١) انظر ما سبق .

(٢) انظر ما سبق .

ولنذكر أيضاً الكتب ذات المغزى الفلسفي التي ألفها كبير دعاة الفاطميين
الفارسي ناصرى خسرو^(١) ، وهي : خوانى اخوان ؛ الديوان ؛ ووجه الدين ؛
وزاد المسافرين ؛ وجميعها مضمّنة فيما كتبه الخشّاب عن سيرة Nāsiri Husrau
وكذلك لا تغفل الرسائل الطريفة عن الدعوة الفاطمية ، الموجودة في
مجموعات خطية بدار الكتب المصرية برقم ٣٥ ، ٥٤ ، ١٣٣ — عقائد نجل ،
وإن عدّها الفاطميون أنفسهم مرفوضة ومبالغاً فيها . وهي موجودة أيضاً في
نسخة خطية أخرى بالمكتبة الأهلية في باريس ، وعليها اعتماد De Sacy في
كتابه Druzes و Chrestomathie . وقد ألفت هذه الرسائل على ما يظهر
الداعية حمزة بن عليّ ، الذي جاء مصر في ٤٠٥ / ١٠١٤ ، في أيام الحاكم
(٣٨٦ — ٤١١ / ٩٩٦ — ١٠٢٠) .

على كل حال هذه الميافيز بقيمة الفاطمية لا تكاد تطرق لإتفاصيل مقتضبة
عن التنظيم السياسي للدعوة ، مع أنها تسهب في شرح العقيدة الدينية . فالنعمان —
حجة الخليفة المعز — حاول أن يكتب تاريخ الدعوة في مصنفه : افتتاح الدعوة^(٢) ،
وهو مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد برقم ٢٤٠٨٨ في ٢٠٧ ورقة ، ولكن ما ورد
فيه ليس به شيء عن تنظيم الدعوة ، أو عن منصب الدعاة ، وإنما هو كتاب
للأخبار .

وعلى العكس فإن كتاب كبير الدعاة المؤيد في الدين الشيرازي المعروف
باسم : السيرة المؤيدية^(٣) ، يبعث نوراً على « نظم » الدعوة الفاطمية في مصر .
كما أنه لم يكن في الإمكان بحث نظام الدعوة أيضاً بدون الرجوع إلى كتاب

(١) انظر . ما سبق .

(٢) انظر . Brock . : Suppl, I, p 716—17.

(٣) انظر . Ivanow . : Guide, p 40 (103) . : Brock : Suppl, I, p 325.

(٤) نفسه ، ص ٤٨ (١٥٦) ؟ نفسه ، ص ٣٢٦ .

المقريري : الخطط ١ ض ٣٩٠ — ٣٩٧ ؛ وفيه يتحدث عن الداعي ومنصبه وألقابه ومجالسه والأماكن التي يحاضر فيها ، وعن الدعوة نفسها ، وكذلك نجد في سجل أحد الدعاة في القلقشندي : صبح . ١ ص ٤٣٤ — ٤٣٩ ، معلومات إضافية مفيدة . وأخيراً يعرض الغزالي في كتابه : فضائح الباطنية ، للدعوة ونظامها ، في عهد الفاطميين .

ولنذكر أيضاً أبحاثاً هامة عن الدعوة الفاطمية من Canard :

« L'imperialisme des Fatimides et leur propagandé. »

(أنظر . A. I. E. O. 1942—1974)؛ ومن Ivanow « The organi-

zation of Fatimid Propaganda » (أنظر . J. B. B. R. A. S. 1939)

و « Isma'ilis and Qarmatians » (أنظر . J. B. B. R. A. S. 1940) ؛

ومن كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية . وهذا الأخير يقدم إلينا معلومات قيمة عن مراتب الدعوة الفاطمية وسراكرها ، جمعها خاصة من كتب فاطمية أصلية محفوظة في مكتبته الخاصة .

أما عن الفصل الخامس : جيش وأسطول ، فإن معلوماتنا نادرة ومبعثرة في مراجع مختلفة .

الجيش :

فيمدنا رحلتان من العصر الفاطمي بمعلومات دقيقة عن الجيش : الأول ناصرى خسرو ، وقد زار مصر في السنين الأولى من حكم المستنصر ، ويصف لنا بدقة في كتابه « سفر نامه » الجيش الفاطمي أثناء الإحتفال بفتح الخليج؛ والثاني

أسامة بن منقذ، وقد زار مصر في سنة ٥٣٩ / ١١٤٤، ويمدنا في كتابه
« الاعتبار »، بتفاصيل ثمينة عن كتائب الجيش الفاطمي.

وعن الأسلحة، جاءنا وصف مفصل في كتاب المريزي : الخطط ١ ص
٤١٧ — ٤١٨ . وقد ترجم منه فقرات بعض المستشرقين مثل Quatremère :

« Mém. Hist et-Geog sur L' Eg. » و Inostrantsev في كتابه الروسي :

« ركوب خلفاء الفاطميين » .

وكذلك كشف لنا Gahen بنشره وترجمته كتاب لمؤلف مجهول عن
الأسلحة تحت عنوان : « Un traite d'armurerie » (انظر . B. E. O.t, xll, .
(années 1974—8, p 103—163.) ؛ معلومات ثمينة عن الفن الحربي الوسيط عند
المسلمين . وقد يكون من الجائز أن هذه الأسلحة كانت عيناها أسلحة الفاطميين ،
ذلك لأن هذا الكتاب ألف في عهد صلاح الدين ، ومما يؤيد هذا الرأي أن
المؤلف يذكر اسم صانع الأسلحة : أبا الحسن الأبرقي الإسكندراني ، وأنه كان
يمارس مهنته في صنع الأسلحة أيام وزارة ضرغام في أيام الفاطميين .

ويمكننا أن نستعين أيضاً بكتاب Schwarzlose : « Die Waffen der
Alten Araber aus Ihren Dichtern dargestellt. » ؛ و بكتاب

« Cultergeschichte des Oriants unter den Califen. » : Kremer
ولنذكر مقالة Rehatsek : « Notes on some old arms and

« instruments of war, chiefly among the Arabs. » (انظر :

« De l'art : de Reinaud ؛ ومقالة (J. B. B. R. A. S. vol. XIV 1880.

« militaire chez les Arabs au Moyen-Age. » (انظر : J. A. IV

(12, 1848.)

وعن حارات الجيش الفاطمي، وصلنا وصف مُسهب في كتاب : شرح اللمعة

من أخبار المعز ، لمؤلف مجهول ، وهو مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد برقم ٤٠٢٢ ،
في ٢٤ ورقة . ومن المرجح ؛ أن يكون هذا المخطوط قد أُلف في العصر المملوكي ،
ذلك لأن المؤلف يذكر فيه حوادث هذا العصر .

ولنذكر أيضاً في هذا الصدد ما كتبه المقرئ في الخطط ٢ ص ٢ — ٢٠
خاصاً بالحارات ؛ وهو في نظرنا المرجع الأصلي لهذا الباب .
وكذلك نجد في كتاب Saladin : Lane — Poole ، خريطة عن حارات
الجيش الفاطمي في القاهرة ؛ أما Ravaisse في مقاله Essai (انظر Mém
(. de la Miss. Arch. Franc. au Caire t. I. Paris 1887.) فإنه يمدنا
بشروح وافية عن طبوغرافية القاهرة .

وعن فن الحرب ، ليس لدينا غير النذر اليسير المذكوراً في الرسالتين (٣٥)
و(٤٣) ضمن رسائل الإمام المستنصر بالله إلى دعاة اليمن ؛ وفي بعض ما أورده
النعمان في كتابه « دعائم » عن التقاليد الحربية في الإسلام .
وعليتنا أن نستعين أيضاً بكتب الأخبار التي تتناول تاريخ العصر الفاطمي ،
والتي أوردنا أسماءها عند الكلام عن الوزارة ، فهي تفيدنا في هذا الصدد .

الأسطول :

له مصدران أساسيان المقرئ في : خطط ٢ ص ١٨٩ — ١٩٧ ؛ والقلقشندي
صبيح ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

ونستمد معلوماتنا أيضاً من كتب الرحالين والجغرافيين في العصور الوسطى
مثل : المقدسي ؛ أحسن التقاسيم ؛ وناصر و خسرو ؛ سفرنامه ؛ والإدريسي ؛
نزهة المشتاق ؛ وابن جبير ؛ رحلة .

وكذلك ترد معلومات عظيمة القيمة فيما ألفه الكتّاب الحديثون مثل :
Biblioteca arabo-sicula : Amary ؛ وعبادة : سفن الأسطول الإسلامي ؛
ومحمد ياسين الحموي : تاريخ أسطول العرب ، و Kindermann : « Schiff »
« im arabischen. Untersuchung über Vorkommen und
« Ueber arabisches : Gildemeister ؛ و Bedeutung der Termini. »
« Schiffswesen. » (ترجمة من كتاب مجهول عن مراكب بحر الروم) ؛
والبارون Rosen : Basile le Bulgaroectone. (مستخرج من أخبار يحيى
الأنطاكي) وهو بالروسية .

وانذ كر أيضاً عدة مقالات قيمة عن البحرية العربية في مجلة Isl. Cult.
أعداد: ١٥. أكتوبر ١٩٤١؛ و ١١. يناير ١٩٤٢؛ و ١٦. أبريل ١٩٤٢؛ وعن
الأسطول في اللغة والأدب والتاريخ في مجلة «الثريا»؛ وعن غابات مصر في مقال Bahgat؛
« Les Forêts en Egypte » (انظر . Mem. de l'Inst. d'Ég. 1900.) ؛
وأخيراً قاموس Dozy : Suppl. I et II. .

البلاط :

عن البلاط نرجع إلى المقريزي : الخطط ؛ والقلمشندى : صبح ؛ فقد اعتمد
الكتّابان على المصادر الأصلية من العصر الفاطمي الزاهر .

وعن خزائن البلاط ، اقتبس المقريزي في الخطط ، ١ ص ٤٠٨ — ٤٢٥
معلوماته الغزيرة من كتب معاصرة للفاطميين ضاعت آثارها ، مثل « كتاب

التحف والزخائر»^(١) الذي لا يُعرف له مؤلف ، ومن قائمة خزائن البلاط التي بيعت في عصر الخليفة المستنصر ، ومن كتب ابن الطوير التي فقدت . وقد ترجم فقرات المقريزي الخاصة بهذه الخزائن Inostrantsev في كتابه : « ركوب خلفاء الفاطميين » ؛ و Quatremère في كتابه : Mém. Hist. et Geog sur l'Ég. في مقاله « Die Schätze der Fatimiden » و Kahle في مقاله « Die Schätze der Fatimiden »

(انظر . Z. D. M. G. 1935; neue Folge XIV, p. 329 et suiv.)

ومن ناحية أخرى ، يمدنا القلقشندى في صبح ٣ ص ٤٧٥ - ٤٨٠ ، بشذرات مختصرة ، ولكن دون أن يشير إلى المراجع التي استقى منها . وقد ترجم بعض ما أورده القلقشندى في هذا الصدد الكاتب الألماني Wustefeld في كتابه Die Geographie .

وعن موظفي البلاط ، أورد القلقشندى في صبح ٣ ص ٤٨١ - ٤٨٦ - وهو المصدر الأساسي - أسماء وظائفهم وألقابهم ، دون شرح أو تفصيل لنوع الوظيفة ؛ كما أورد المقريزي في الخطة ١ ، أسماء الموظفين الفاطميين ؛ دون أن يحاول اظهار الفروق بين كل وظيفة .

الرسوم :

عن رسوم البلاط ؛ لدينا معلومات كثيرة متنوعة وغير منتظمة ؛ فقد أسهب مؤرخو مصر في وصف الحفلات التي كان يشترك فيها الخلفاء .

وعن الملابس التي كانت تلبس في هذه الحفلات ، ليس لدينا إلا النذر

(١) نحن نجهل مؤلف هذا الكتاب . ففعل هذا الكتاب عبارة عن قائمة للتحف التي بيعت من خزائن الخلفاء أو مجرد وصف لمحتوياتها . انظر Inostrantsev : ركوب خلفاء الفاطميين (بالروسية) ، ص ٤٦ - ٤٧ .

اليسير في الخطط ١ ص ٤٠٩ — ٤١٤ ؛ ص ٤٧١ س ٨ وما بعده ؛ ص ٤٧٢
س ٣٠ وما بعده . وينقل المقرئى هنا عن مؤرخ اسمه ابن المأمون ، وهو
ابن الوزير المعروف مأمون البطائحي (٥١٥ — ٥١٩ / ١١٢٢ — ١١٢٥) ،
وزير لخليفة الأمر . ويظهر أن مركز ابن المأمون^(١) مكنه من وصف ملابس
الفاطميين بدقة متناهية ، حيث أن المعلومات التي استقاها المقرئى منه ، لا توجد
في أى مرجع آخر . فهو يصف لنا توزيع الملابس في المناسبات الرسمية الفاطمية ،
ويذكر الموظفين الذين تُعطي لهم ، ولكن بدون اسهاب .

فوق ذلك نطلع على مقالة Bahgat : Les Manufactures d'etoffes :
en Egypte au Moyen-Age. (نظر : Mém. de l'Inst. Eg. Avril 1903.)
فهي تمدنا بوصف شيق لمناسج الخليفة (طراز) ؛ وعلى قاموسى Dozy المعروفين :
« Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les
Arabes. » و « Supplément . » ، وبهما شرح لمعاني الكلمات الغامضة
للملابس العربية .

وأخيراً ؛ نذكر مقالة Serjeant : « Material for a History of
Islamic Textiles up to the Mongol conquest. » (انظر : A R S .)
(Islamica vol. IX - XII, 1942—1496 et XIII-XIV, 1948.) على
الأخص الصفحات الخاصة بالنسيج المصرى .

وعن شارات الخلافة ، نجد معلومات من الدرجة الأولى فيما أورده القلقشندى
في وصف الآلات الملوكية المختصة بالموكب العظيم في صبح ٣ من ص ٤٧٢
إلى ٤٧٥ ؛ وفيما أورده المقرئى في كتابه الخطط ، على الأخص الجزء الثانى .

وفضلاً على ذلك نعتمد على المقدمة لابن خلدون ؛ وعلى السلوك للمقرئزى ؛
وهما يساعدان على المقارنة بين شارات الفاطميين وغيرهم فى الدول اللاحقة أو
السابقة عليهم .

وعن الأعياد والرسوم الفاطمية ، لدينامادة غزيرة ، أخذناها على الأخص من
كتاب المقرئزى : الخطط ؛ ففيه يمدنا المؤلف بوصف شامل للحفلات ،
وينقل على الأخص من ابن الطوير الذى يبدو فى غاية العلم بتفاصيل الأعياد
الفاطمية . وقد ترجم Griveau الجزء الذى أورده المقرئزى من أعياد الأقباط
(أنظر . Patrologia Orientalis X p. 316 et suiv.)

ويتفق وصف المقرئزى هذا مع وصف مؤرخ مصرى آخر ، هو ابن تغرى بردى
(٨١٣ — ١٢٧٤ / ١٤١١ — ١٤٦٩) فى النجوم الزاهرة . فهذا المؤرخ مع أنه قد تكلم
عن مواكب الخلفاء الفاطميين ، إلا أنه لم يتكلم لنا عن جلوسهم .

وعلى العكس فأننا نجد وصفاً دقيقاً لمواكب الخلفاء وجلوسهم فى كتاب
القلقىندى : صبح ٣ ص ٤٩٨ — ٥٢٢ ؛ وهو يتفق فى كل تفاصيله ، فى
أحيان كثيرة ، مع ما أورده المؤرخان السابقان .

وفضلاً على هذه المراجع الثلاثة نعتمد على مصادر معاصرة ، ذات قيمة أولى
فى البحث التاريخى .

أولاً وقبل كل شىء ، نعتمد على كتاب ناصرى خسرو : سفرنامه ؛ وفيه
يصف الرحالة — كشاهد عيان — حفلة فتح الخليج والوليمة (السباط)
الرسمية التى تقام فى مناسبة عيد الفطر . ثم نطلع على رسائل المستنصر بالله
الخليفة الفاطمى : سجلات وتوقيعات ، التى هى بمثابة سجل للحفلات الفاطمية .

أما الكتب الحديثة فلا غنى لفاغنها ، وهي ذات قيمة كبيرة ، منها كتاب
«Campagnes du roi Amaury I^{er} de Jérusalem en : Schlumberger
Egypte au XII ème siècle» وفيه وصف للنظام العجيب الذي كان سائداً
في استقبال الخليفة لرسل الملوك؛ وكتاب Essai sur l'histoire : Ravaisse
et sur la topographie du Caire d'après Maqrîzî (Palais des califes
fatimides) ؛ وفيه وصف لطبوغرافية القاهرة تساعدنا على تتبع سير الموابك
الخليفة ؛ وكتاب Inostrantsev الروسى : « ركوب خلفاء الفاطميين » ، وهو
عبارة عن ترجمة لوصف المقرئى لركوب الخليفة فى أول العام الهجرى مصحوبة
بتذييلات وتعليقات قيمة للغاية ؛ وكتاب Constantin VII Porphyrogénète :
Le livre des cérémonies ؛ وفيه نص الحفلات البيزنطية حقه وترجمه
Albert Vogt ؛ وكتاب Christensen : l'Empire des Sassanides ؛
Le Peuple, l'Etat, La Cour ؛ وهو يساعدنا على تتبع ما كان عند العرب
من رسوم وتقاليد ؛ وأخيراً نجد قائمة للأعياد الدينية الخاصة بالمذاهب منقولة عن
كتاب للأعياد العلوية جمعها المستشرق Massignon (أنظر : R. M. M.)
XLIX 57-60 p.221 et la suite.)

الكتاب الأول

12th 14

جدول بأسماء خلفاء الفاطميين في مصر

ميلادى		هجري	
٩٥٢	أبو تميم معد	٣٤١	المعز
٩٧٥	أبو منصور نزار	٣٦٥	العزیز
٩٩٦	أبو علي المنصور	٣٨٦	الحاكم
١٠٢٠	أبو الحسن علي	٤١١	الظاهر
١٠٣٥	أبو تميم معد	٤٢٧	المستنصر
١٠٩٤	أبو القاسم أحمد	٤٨٧	المستعلي
١١٠١	أبو علي المنصور	٤٩٥	الأمير
١١٣٠	أبو ميمون عبد المجيد	٥٢٤	الحافظ
١١٤٩	أبو المنصور إسماعيل	٥٤٤	الظافر
١١٥٤	أبو القاسم عيسى	٥٤٩	الفاتح
١١٦٠	أبو محمد عبد الله	٥٥٥	المعاضد

سقوط الخلافة الفاطمية ١١٧١/٥٦٧

جدول (١) بأسماء وزراء الفاطميين (٢) في مصر

العزیز

أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس .	٩٧٨ / ٣٦٨
جبر بن القاسم .	٩٨٣ / ٣٧٣
ابن كلس ثانی صرة .	٩٨٣ / ٣٧٣
أبو الحسن علی بن عمر العداس .	٩٩١ / ٣٨١
أبو الفضل جعفر بن الفرات .	٩٩٣ / ٣٨٣
عیسی بن نسطورس .	٩٩٣ / ٣٨٣

الحاکم

الحسن بن عمار .	٩٩٦ / ٣٨٦
أبو الفتوح برجوان .	٩٩٧ / ٣٨٧
أبو العلا الفهد بن ابراهيم .	١٠٠٠ / ٣٩٠
الحسين بن جوهر .	١٠٠٠ / ٣٩٠
أبو الحسن علی بن العداس .	١٠٠٣ / ٣٩٣
صالح بن علی الروزباری .	١٠٠٨ / ٣٩٨
منصور بن عبدون .	١٠٠٩ / ٤٠٠
زرعة بن نسطورس .	١٠١٠ / ٤٠١
الحسين بن طاهر الوزان .	١٠١٢ / ٤٠١
عبد الرحمن بن أبي السيد .	١٠١٤ / ٤٠٥
الفضل بن جعفر بن الفرات .	١٠١٤ / ٤٠٥
أبو الحسن علی بن جعفر بن فلاح .	١٠١٤ / ٤٠٥
المسعود بن طاهر الوزان	١٠١٨ / ٤٠٩

(1) Manuel de généalogie et de chronologie pour, : Zambaur .
l'histoire de L'Islam. p. 94 et 96.

(٢) فی عهد العزیز والحاکم ، لم یحمل هؤلاء الأشخاص لقب « وزیر » ، ما عدا ابن
کلس . أنظر . بعده . ولقد أضفنا بعض الأسماء الناقصة فی الجدول ، وضبطنا التواريخ حسب
مراجعتنا .

الظاهر

أبو الحسن عمار بن عمار بن محمد .	١٠٢١ / ٤١١
أبو الفتوح موسى بن الحسين .	١٠٢١ / ٤١٢
أبو الفتوح المسعود بن طاهر الوزان .	١٠٢٣ / ٤١٤
أبو محمد الحسن بن صالح الروذباري .	
أبو القاسم أحمد بن علي الجرجرائي .	١٠٢٧ / ٤١٨

المستنصر

الجرجرائي ، استنصر .	١٠٣٦ / ٤٢٧
ابن الأنباري .	١٠٤٥ / ٤٣٦
أبو المنصور (أو نصر) صدقة بن يوسف الفلاحى .	٩ — ١٠٤٨ / ٤٤٠
أبو البركات الحسن (أو الحسين) بن عماد الدولة محمد .	٩ — ١٠٤٨ / ٤٤٠
أبو الفضل سعيد بن مسعود	١٠٥٠ / ٤٤١
أبو محمد الحسن (أو الحسين) بن علي بن عبد الرحمن اليازورى .	١٠٥٠ / ٤٤٢
أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي .	١٠٥٨ / ٤٥٠
أبو الفرج محمد بن علي بن الحسن المغربي .	١٠٥٨ / ٤٥٠
البابلي ، ثانی مرة ؛ بعد ذلك صرف مستمر للوزراء .	١٠٦٠ / ٤٥٢
أبو النجم بدر الجمالی ، أمير الجيوش .	١٠٧٤ / ٤٦٧
أبو القاسم شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالی .	١٠٩٤ / ٤٨٧

المستعلي

الأفضل ، استنصر .	١٠٩٤ / ٤٨٧
-------------------	------------

اللامر

الأفضل ؛ استنصر	١١٠١ / ٤٩٥
أبو عبد الله محمد المأمون بن فاتك بن مختار البطائحي .	١١٢٢ / ٥١٥

من ٥١٩ إلى ٥٢٥ بدون وزراء

الحافظ

أبو علي أحمد بن الأفضل ، المعروف بكتيفات .	١١٣٠ / ٥٢٥
يانس .	١١٣١ / ٥٢٦
أبو علي الحسن (ابن الحافظ) .	١١٣١ / ٥٢٦
أبو ربيع سليمان (ابن الحافظ) .	١١٣٣ / ٥٢٨
أبو المظفر بهرام .	١١٣٥ / ٥٢٩
رضوان بن ولحشى .	١١٣٧ / ٥٣١

من ٥٣٣ إلى ٥٤٤ بدون وزراء

الظافر

أبو الفتوح نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال اللسكى .	١١٤٨ / ٥٤٣
أبو الحسن علي بن سلار الملك العادل سيف الدين .	١١٤٨ / ٥٤٣
العباس بن أبي الفتوح بن تميم ، الأفضل ركن الدين .	١١٥٣ / ٥٤٨

الفارز

الملك الصالح طلائع ، أبو الغارات بن رزيك .	١١٥٤ / ٥٤٩
--	------------

العاصر

أبو شجاع العادل محي الدين رزيك بن طلائع .	١١٦١ / ٥٥٦
أبو شجاع شاور بن مجير .	١١٦٣ / ٥٥٨
أبو الأشيال ضرغام بن عاصم بن سوار اللخمي .	١١٦٣ / ٥٥٨
شاور ، ثاني مرة .	١١٦٥ / ٥٦٠
شيركوه .	١١٦٩ / ٥٦٤
صلاح الدين .	١١٦٩ / ٥٦٤

الفصل الأول

الإمامة

الوصاية أو تولية على — حق الفاطميين في الإمامة — النص أو تولية
الإمام — الولاية أو سلطة الإمام — السلطة الدينية — السلطة الروحية
— السلطة الزمنية — الألقاب .

الإمامة هي أصل جميع نظم الحكم في الدولة الفاطمية في مصر^(١)، وكلمة
« امامة » ، التي كان يستعملها الشيعة بعامة والفاطميون بخاصة ، لها مدلول كلمة
« خلافة » ، التي كان يستعملها — غالباً — الأمويون والعباسيون^(٢) . ولكي
نعرف نظام الإمامة ؛ يجب أن نبحث أولاً عن أصلها : أو فيما يعرف « بالوصاية » ،
أو « تولية النبي لهي »^(٣) .

وكلمة « الوصاية » ، « تولية على » جد كل إمام شيعي ، مشتقة من فعل
« أوصى » لتدل على معنى : ولى ؛ وهي مثل القرآن ، موحى بها من الله ؛ حتى
تكون الإمامة إرثاً في بيت علي ، إلى يوم الدين^(٤) . ولذا كانت « تولية علي »
من الأمور التي يستند إليها الشيعة ، وعلى الأخص الفاطميون ، في تمسكهم
بمذهبهم في الإمامة . فأصبحت بالنسبة لهم جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الفاطمية

-
- (١) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٩٣ ؛ Ostorrog : Le droit du Ca'ifat, p 76
الملاوردي : أحكام سلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ ، ص ٣ .
(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٤٢ و ٤٠٨ .
(٣) النعمان ، شرح ، ورقة ١١ ؛ دعائم ، ص ٢٠ و ٥٢ .
(٤) النعمان ، دعائم ، ص ١ و ٥٢ ؛ غزالي ، فضائح الباطنية ، تحقيق Goldziher ص ٣٨ .

الأساسية ، فيقولون : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وعلىّ وليّ الله »^(١) .
ويعلق الشيعة أهمية كبرى على ظروف هذه التولية : فقد وجد محمد وعلىّ ،
في منتصف الطريق ما بين مكة والمدينة ، بالقرب من مكان يُعرف باسم « غدِير
خُمّ » ؛ وهنا أوصى النبي إلى عليّ في الإمامة من بعده^(٢) .

ففي أثناء حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة بالقرب من غدِير خُمّ ،
قام محمد خطيباً في الحجيج ، فقال لهم : « أأستأوى بالمومنين من أنفسهم ؟ » ،
قالوا : « بلى يا رسول الله » ، قال : « فمن كفت مولاة فعلىّ مولاة ، اللهم وال من
والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله » .

وتردد الكتب الفاطمية رواية أخرى مؤداها أن محمداً ، في أثناء غزوة تبوك ،
قال لعليّ : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى »^(٣) . فهذه
الرواية أيضاً يرددها الشيعة غالباً ؛ فقد كان من عادة الأنبياء أن يختاروا أوصياء
من أسرهم^(٤) . فكان عليّ وصيّ النبي ، لأنه على حد قولهم ، أحسن الناس بعد
الرسول^(٥) ، ومن « أفضل » الأئمة ، ومن مادة النبي ، وأنه « الكمال » ذاته^(٦) .

(١) مقرئزي ، خطط ، ١٠ ، ص ٤٠٥ س ٢٠ — ٢١ ؛ انظر . Lavoix : Cat. des
Sauvaire : monnaies musul . de la bibl. N, 3, p. 66; 67, 68, 69, 86
Mat. Pour: Sau vaire;
servir a l'hist. de La Num ; p 228.

(٢) النعمان ، شرح ، ورقة ٣ — ٢ . كانت هذه الوصاية سبباً في ظهور عيد ورد في التقويم
الفاطمي (١٨ من ذى الحجة)

(٣) النعمان ، دعائم ، ١ ، ص ٢٥ .

(٤) نفسه ، ص ٥٢ ؛ تاج العقائد (A Creed of the Fatimids) ص ٣٦

(٥) النعمان ، دعائم ، ١ ، ص ١٢ و ٢٨ .

(٦) تاج العقائد ص ٣٧ .

وهكذا فإن الإمامة الفاطمية هي وارثة وصاية على^(١) . ولكن ، وإن كانت الروايات والكتب الفاطمية سردت تفاصيل تولية محمد لعلي ، في إمامة المسلمين من بعده، إلا أنها أهملت ذكر التفاصيل الخاصة بتسلسل الأئمة ، سلف خلفاء الفاطميين في مصر . فالنعمان الفقيه الفاطمي (م ٣٦٣ / ٩٧٤) ، حاول أن يكتب تاريخ الدعوة الفاطمية من بدايتها^(٢) ، فتكلم أولاً عن دعوة ابن حوشب في اليمن في النصف الثاني من القرن الثالث ، ثم عن حركة عبيد الله الشيعي في المغرب ، حتى قيام خلافة عبيد الله المؤسس للدولة الفاطمية في إفريقية في (٢٩٧ / ٩٠٩) . ويلاحظ أن النعمان لا يذكر شيئاً عن تعاقب الأئمة من

(١) يرفض الأمويون الاعتراف بادعاء علي في حقه في الخلافة بعد تحكيم دومة الجندل في سنة ٤٠ / ٦٦٠ ، وهو التحكيم الذي كان من نتيجته تولية معاوية الخلافة وعزل علي (انظر . النعمان ، شرح ، ورقة ٦٨) . ولكن فقهاء الفاطميين من جانبهم ، قالوا ببطان التحكيم ، لأن علياً وأتباعه (أى الشيعة) كانوا قد ثاروا عليه (انظر . نفسه) . كما أن جماعة أخرى متعصبة من المسلمين احتجت أيضاً على مبدأ التحكيم ، بالنسبة لرئيس الأمة الإسلامية ، لأنه في رأيها خطأ يخالف روح الإسلام . هذه الجماعة الثائرة ، عرفت باسم فرقة الخوارج (أى الذين خرجوا على معاوية وعلي) أعلنت ألا حكم إلا لله أى لأمة المسلمين ، وأخذوا على علي بن أبي طالب تنازله عن حقه في خلافة نالها نتيجة لبيعة شرعية . ففي اعتقادهم يجب أن ينال الخلافة أفضل الناس عن طريق اختيار الأمة ، وليس بالوراثة في أسرة معينة ، فهم لا يرون أن تكون الخلافة احتكاراً لجنس معين مختار ، أو حتى في قبيلة قريش التي جاء منها النبي ، فعبد حبشي إذا استوفى شروطها أولى بها من أفضل سيد من سادات قريش (نفسه ، ورقة ٨٥ وما بعدها ؛ ودعائم ، ص ١ ، ٤٩ ، أنظر . Goldziher :

The Califate, p 184) Arnold ; Le dogme, trad Félix Arin, p 160 et suiv : ومن ناحية أخرى ، فإن المرجئة (أى الذين أرجأوا الاختلاف في أى شيء إلى الله حتى يحكم بينهم يوم القيامة) ؛ ترفض بقوة اعتبار دولة الأمويين ناصية للخلافة . فكانت عقيدة المرجئة مخالفة للعقيدة التي تؤيد ادعاءات العلويين في حقه الوراثي المقدس في حكم الأمة الإسلامية . (أنظر . دعائم ، ص ١ ، ٤٩ : Le dogme, p . 68 Gold ;) ، وحتى الزيدية ، اتباع زيد بن علي بن الحسين (م ١٢٥ / ٧٤٣) ، حفيد علي ، وهي من فرقة الشيعة ، لا تعتقد بوجود الإمامة يرثها في أسرة معينة ، وإنما عن طريق الانتخاب . فهي ترى أن الإمامة غير مقيدة بهذه الأسرة أو تلك ، وإنما ينالها كل علوي مستوفى الشروط ومن ناحية أخرى لا تعترف الزيدية بحقوق مقدسة لعلي ، ولا تعتبر الخلفاء الذين أتوا بعده معتصبين ؛ ولذا فهي أقرب الفرق الشيعية إلى السنة . انظر Glod : Le dogme, p. 200 - 201

(٢) افتتاح الدعوة ، مخطوطة بجامعة فؤاد تحت رقم ب ١٧٦٦٥

جعفر الصادق (م ١٤٨ / ٧٦٥) حتى عميد الله ، وهي الفترة التي استقروا^(١) فيها خوفاً من اضطهاد العباسيين . ولذا كانت هذه الفترة غير واضحة المعالم في معظم كتب الإسماعيلية ، وأيضاً وعلى الخصوص في الكتب الفاطمية ، وإن بقي مع ذلك اعتقاد الفاطميين الجوهري سليماً : وهو أن الأئمة الذين ظهروا في إفريقية ، ثم في مصر ، من نسل علي وفاطمة ، هم الورثة الشرعيون لوصاية علي ، وأن حقهم في هذه الوراثة مقدس^(٢) .

وقد كان الدفاع عن شرعية هذا الحق موضوعاً لجدل وتقاش عنيف بين الشيعة وأعدائهم السنيين . ففي رأى الشيعة أن هذا الحق المقدس في الإمامة باق في سلالة علي حتى يوم القيامة ، وهو منصوص عليه ليس فقط في وصاية محمد التاريخية لعلي ، وإنما أيضاً في القرآن ، والحديث ، وحتى بحكم المنطق السليم^(٣) .
حقاً ، إن سور القرآن لا تذكر اسم علي ، ولا أسماء الأئمة الفاطميين ، إلا أن تفسير هذه السور (أى تأويلها) لعب دوراً هاماً في تأييد هذا الحق . فالأئمة كانوا يتوارثون المعنى الصحيح للقرآن ، كما يتوارثون « الوصاية »^(٤) ، وعلى ذلك ، فهم يستطيعون أن يفسروا القرآن لصالحهم .

(١) أنظر . Gold . Le dogme , p 201 .

(٢) إن الاعتقاد في أنهم الأئمة « المكلفون من الله لحكم الأمة الإسلامية » — في رأى Canard - كان بالنسبة للفاطميين أساس حقهم في الخلافة . وهو اعتقاد أقوى من الدين ، الذي أدى إلى الفتوح الأولى ، ومن مطامع الأمويين الشخصية ، ومن استغلال العباسيين الاضطياء ضد الأمويين ، ومن الشعبية الإيرانية وتشيعها ، وحتى من اعتقاد العلويين الآخرين بشرعية حقهم في الإمامة أنظر Canard :

L'impérialisme des Fatimides, Annales de L'Inst. d'Et . Or. 6, 1942-7 p 158 .

هذا ، وأن الاعتقاد في تسليفهم من الله مذكور في الرسالة التي وجهها الخليفة المعز إلى زعيم القرامطة : الحسن بن احمد ، كما بين ذلك Goldziher أنظر ، الرسالة في المقرئى ، اتعاط القدس ١٩٠٨ ، ص ١٣٤ — ١٤٣) . فوجود الأئمة الفاطميين قبل خلق العالم لكي يحكموه ، قد يؤول من معنى القرآن نفسه . (سورة ٢٤ آية ٣٥) انظر . Gold : (مقدمة) Streitschrift (٣) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٤٨ وما بعدها . (٤) نفسه ، ص ٦٧ .

وعن الأحاديث فإنهم ردوا منها عدداً كبيراً لتأييد حقهم الشرعي في
الخلافة ، وإن رفض أعداؤهم السنيون الاعتراف بأغلب هذه الأحاديث ^(١) .
ولكن الشيعة بعامة والفاطميين بخاصة يهتمون أعداءهم السنيين بالسكوت عن
الأحاديث التي تبين حقهم في الإمامة ^(٢) .

أما عن وجوب امامتهم بحكم العقل ، فإن فقهاء الفاطميين قاطبة ^(٣) أجمعوا
على التمسك بشرعية تولية عليّ وخلفائه امامة المسلمين ، ولكن حملوا بشدة على
مبدأ الاختيار الذي يقول به الفقهاء السنيون . فبعض علماء الفاطميين ، يرون أنه
لكي تُعطى البيعة للإمام بإجماع الناس ، فإن الإمامة نفسها يجب أن تكون قد
أُعطيت بيعة مجعماً عليها ، وإلا فإن هذه البيعة لا تكون شرعية ، ولا يمكن أن
تكون لأحد ، ما دام لا يملكها أحد ^(٤) . ثم إن اختيار الإمام المستوفى للكمال
في الأوصاف والأحوال لمنصب الإمامة ، لا يتمسك به السنيون دائماً لأنهم لا يجدون
الإمام المنتخب الذي يستوفى الشروط . ولذا كانوا يلجأون غالباً إلى التولية عن طريق
الوراثة ؛ فالعباسيون أنفسهم ، يشترطون أن يكون الخليفة من نسل أسرة العباس ^(٥) .
وفكرة أن الله لم يترك اختيار الإمام للناس ، يرددها ابن خلدون بوضوح بقوله ^(٦) :
إن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ؛ بل هي ركن
الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبي اغفالها وتفويضها إلى الناس .

على كل حال ، في رأى فقهاء الفاطميين ، كان ميراث الإمامة المقدس يتم

(١) الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص ١٢ ؛ نظر Die Renaissance : Mez. ، ترجمة

أبو ريدة ، ١ ص ١٢١ .

(٢) النعمان ، شرح ، ورقة ٦٨ .

(٣) نفسه ، ورقة ٢٦ وما بعدها .

(٤) نفسه ، ورقة ٢٨ ؛ أنظر الهداية الأميرية (Being an epistle of the tenth

fatimid calife al-Amir) تحقيق فيضي (Fyzee) ص ٧ .

(٥) الهداية ، ص ٩ ؛ أنظر Arnold : the Caliphate , p. 52 .

(٦) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٥٥ .

« بالنص » ، أى « الدلالة الصريحة » للإمام على من سيخلفه^(١) ، فلكامة نص
(دلالة) مشتقة من فعل نص (دلّ) . والنص مبدأ جوهرى يوضح لنا الطريقة ،
التي عالجتها بها العقيدة الفاطمية تعاقب أمتها بعد على ، حتى الإمام الحاضر .
فحسب رأى فقهاء المذهب الفاطمى ، يكون كل إمام غير أئمة الفاطميين معتصباً
للإمامة ، لأن النص مظهر لإرادة الله نفسها ، التي يجب أن تخضع لها كل الآراء
المختلفة فى تعيين رئيس الأمة . فهكذا تستمر — حسب إرادة الله — تولية خلفاء
محمد التي ظهرت فى وصايته لعلى^(٢) وسلالته ، حتى يوم القيامة .

فنص الإمام على خلفه أمر لا يهم أحداً غيره^(٣) ، فليس للأمة ، ولا لأى
فرد أن يطلب سبب هذه التولية . ومع ذلك فى اعتقاد علماء الدين الفاطميين ،
كان يلزم أن يكون الشخص المنصوص عليه من سلالة على وزوجته فاطمة ،
أو كما يقول ناصرى خسرو ، يشترط أن يكون علويًا من آل ابراهيم أهل البيت^(٤) .

إذاً خلاف كونه علويًا ، فإن النص يتوقف فقط على ارادة الإمام وحده ،
وأنه لا يوجد غير هذا الشرط بالنسبة للإمام المنصوص عليه ، على عكس ما عند
النسنيين الذين يطلبون شروطاً لازمة فى شخص الخليفة المنتخب باجماع الأمة^(٥) .

فلا توجد عندهم — على الإطلاق — شروط تتعلق بعمر الإمام^(٦) :
فكثير من الأئمة الفاطميين فى مصر ، تولوا الإمامة صغاراً . فكان عمر الحاكم

(١) الهداية ، ص ٧ ؛ النعمان ، دعائم ، ١ ص ٥٤ ؛ رسائل المستنصر : (٣٥) ورقة ١٦١ ؛
(٤٣) ورقة ٢٢٩ ؛ مقدمة ، ١ ص ٥٣٧ ؛ غزالي ، فضائح الباطنية ، ص ٣٧ و ٦٦ .

(٢) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٥٢ ؛ رسائل المستنصر : (٣٥) ورقة ١٦٠ .

(٣) رسائل المستنصر : (٣٥) ورقة ١٦١ ؛ الهداية ، ص ٣٦ .

(٤) انظر Hassâb : Nâsiri Husrau , p 257 .

(٥) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٤٩ ؛ الماوردى ، أحكام سلطانية ، ص ٤ ما بعدها .

(٦) رسائل المستنصر : (٣٧) ورقة ١٩٣ .

إحدى عشرة سنة ونصفاً^(١)؛ والظاهرست عشرة سنة^(٢)؛ والمستنصر أقل من ثمانى سنوات^(٣)؛ والمستعلى أزيد من عشرين سنة^(٤)؛ والامر خمساً^(٥)؛ والظافر سبع عشرة^(٦)؛ والفائز خمساً^(٧)؛ والعاضد إحدى عشرة^(٨).

وفوق ذلك، لا يقوم النص في الإمامة على أساس استخلاف الإبن الأكبر، فالإمام يستطيع أن ينص على ابن له، ثم يعزله ويعين غيره بدلاً منه^(٩). فنص الإمام على خلفه يتم بناءً على ارادته، وإن كانت معارفه الإلهية هي التي تُوحى إليه بتولية أو عزل من يقع اختياره عليه. ولقد تعاقب الأئمة الفاطميون في مصر من أب إلى ابن حتى الإمام السادس: الأمر. ولكن منذ هذا الإمام، اختل ترتيب التعاقب في الإمامة، لأن الأمور مات قبل ولادة خلفه^(١٠)؛ وقد حدث الاضطراب مرة أخرى، عند موت الفائز الذي لم يسكن له ولد. وفي الحاليتين فإن ابني عم هذين الإمامين هما اللذان حازا الإمامة: فتولى عبد المجيد بعد الأمر، والعاضد بعد الفائز.

هذه «الدلالة الصريحة» أو «النص» غير واضحة في الروايات الفاطمية، فلسنا ندرى، إن كان النص عبارة عن أمر مكتوب أو وصية، أو أمر شفوي، أو حتى تلميح بسيط من جانب الإمام لخلفه الذي ينص عليه بهذه الطريقة.

(١) ابن تغرى بردى، تحقيق Popper، ٢ ص ٦٢.

(٢) نفسه، ٢ ص ١٢٩.

(٣) نفسه، ٢ ص ١٦٨؛ رسائل المستنصر: (٣٧) ورقة ١٩٣.

(٤) ابن تغرى بردى، ٢ ص ٢٩٨.

(٥) نفسه، ٢ ص ٣٢٧.

(٦) نفسه، ٣ ص ٤٦.

(٧) نفسه، ٣ ص ٦٢.

(٨) نفسه، ٣ ص ٨٤.

(٩) رسائل المستنصر: (٣٥) ورقة ١٦٢؛ الهداية، ص ٢٠.

(١٠) ابن تغرى بردى، ٣ ص ٨٦ — ٨٧؛ السيوطى، خلفاء، ص ٩.

ففي كتاب دعائم الإسلام ، يحتفظ لنا النعمان بوصية عليّ إلى الحسن^(١) ،
 تصح أن تكون دليلاً على النص ، وهي تشتمل على نصائح وأسرار . ومن ناحية
 أخرى ، هذا النص قد يكون أيضاً على ما يظهر ، أمراً شفويّاً^(٢) له قيمة الأمر
 الكتابي ، فليس لدينا أية وصية مكتوبة من الأئمة الفاطميين في مصر إلى
 خلفائهم : مما يدعون إلى الظن بأن النص كان شفويّاً في الغالب . وأخيراً
 يكفي ، أن يُظهر الإمام عطفه على خلفه ، أو أن يلح له تلميحاً بسيطاً لكي يتم
 عليه النص^(٣) . فلدينا من رسائل الإمام المستنصر رسالتان على هذا النوع من
 النص ، وهما مكتوبتان من قبل المستعلي وأمه ، إلى ملكة اليمن سيّدة حرّة ، حيث
 يشرحان فيها تلميح المستنصر بالإمامة إلى المستعلي الابن الأصغر ، دون نزار
 الابن الأكبر . وعلاوة على ذلك ، نجد خوي هذا التلميح من المستنصر إلى
 المستعلي ، في رسالة أخرى من عهد الأمر ، ابن المستعلي^(٤) .

ولدينا — لحسن الحظ — مثل واضح على النص وظروفه . فقد نصّ المعز
 على خلفه^(٥) ، وأراد أن يعلن لشيعته الإمام من بعده . فأحضر أحد أولاده ،
 ووجه الكلام إلى شيعته ، قائلاً : « هذه عصا أتوكأ عليها » ، فأجابوا : « سمعنا
 وأطعنا » ، ثم خرجوا من عنده ، وهم يعتقدون أن هذا الابن سيكون الإمام من
 بعده . فلما كان اليوم التالي ، جمع المعز من جديد شيعته ، وأحضر لهم ولداً آخر
 من أولاده وقال لهم : « هذه عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي » ، فقالوا :
 « سمعنا وأطعنا » ، وخرجوا من عنده هذه المرة أيضاً ، وهم يعتقدون أن هذا

(١) Fyze : The Ismaili law of wills, p35.

(٢) الهداية ، ص ١٢ .

(٣) رسائل المستنصر : (٣٥) ورقة ١٦١ ؛ (٤٣) ورقة ٢٢٩ .

(٤) الهداية ، ص ١٤ ؛ ابن ميسر ، ص ٦٧ .

(٥) كان للمعز أربعة أولاد : عقيل (م ١٠٨١/٣٧٤) ، وتيم (م ٩٧٨/٣٨٦)

أو (م ١٠٧١/٣٧٤) ، والعزير (خليفة) ، وعبد الله . انظر ، ابن ميسر ، ص ٤٨ ؛ انظر ،

Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de : Zambaur
 l'Islam, p 95.

الإبن هو خليفة المعز . وأخيراً كان اليوم الثالث ، دعا العزيز (ثاني خليفة فاطمي في مصر) ، وقال لشيعته : « هذه عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى » ، فخرجوا في هذه المرة ، ولم يشكوا في أن هذا الأخير ، هو الذى سيكون حقاً الإمام من بعده .

وهذا النص — فى الواقع — لم يكن تولية عادية من الإمام لخلفه ؛ بل يمنح أيضاً لهذا الأخير طبيعة روحية ، تنتقل إليه بالوراثة^(١) . فكانت نفس الإمام بأسرارها المكنونة وصفاتها الإلهية ، تنتقل ساعة موته ، بالحلول ، فى الإمام الذى سيخلفه ؛ فهذا عند الفاطميين ، كان ميراثاً مميزاً لإمامتهم .

وقد قيل بأن النبى نقل مباشرة إلى على^(٢) بعض علومه الإلهية^(٣) ، فكان على على^(٤) بدوره أن ينقلها إلى ابنه الوريث ، فترتب على ذلك انتقال هذه العلوم بالوراثة من إمام إلى آخر ، على كرم العصور . فنجد فى وصية على^(٥) للحسن — الواردة فى كتاب دعائم الإسلام — ذكر لإرث من كتب وأسرار ، جاء فيها على لسان على^(٦) : « أنت الإمام من بعدى ، وارث على^(٧) » . ويحكى الأمر أن والده المستعلى ، أسر إليه ساعة موته ، ما كان قد ناله عن جده ، فيقول : « وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلى من الحكمة بالفاضل المصون^(٨) » .

وفى الحقيقة ، لا نعرف بالضبط ما هى هذه العلوم أو هذه الأسرار ، وما هى محتويات هذه الكتب ، ولكننا نظن — بدون مداراة — أن هذه العلوم الفاطمية

(١) النعان ، المجالس ، ١ ورقة ٤٥ ؛ ٢ ص ٤٢٦ و ٥٣٩ ؛ رسائل المستنصر :

(٣٥) ورقة ١٦١ ؛ غزالي ، فضائح الباطنية ، ص ٣٧ .

(٢) Isma'ili law, p 35. : Fyze

(٣) نفسه ، ص ٣٥ و ٤٥ .

(٤) السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ ، ٢ ص ١٥ .

تشتمل خاصة على تفسير القرآن (أو ما يعرف بعلم التأويل) : فكل كتب الدعوة الفاطمية تشير إلى تأويل القرآن . وحسب وصية عليّ للحسن ، تحقوى هذه الكتب أيضاً ، على معارف جغرافية ، وعلى أسماء الملوك ، وحتى على أسماء بعض الدعاة حتى يوم البعث . كذلك يحدّثنا المؤرخون^(١) ، نقلاً عن الرواة ، بوجود نسخة من القرآن ، في القاهرة ، جمعها عليّ وعلق عليها بنفسه . ويقول المعز — بصدد علم الأئمة هذا — إنه كان يتضاعف ست مرات ، عند نقله إلى الإمام الجديد^(٢) ، ومع ذلك ، فإن التاريخ يبين لنا أن بعض الأئمة يهتمون بالعلوم ، وأن الآخرين لا يهتمون بها .

كذلك ، نجهد ما كانت عليه حال الشخص المنصوص عليه من الناحية الزمنية ، ولكن على حسب رأى مؤرخى العصر ، كان من اللازم أن يُنعت خلف الإمام بلقب : « ولىّ عهد المؤمنين »^(٣) . ويُبرز الفاطميون المعنى الذى تدل عليه كلمة « مؤمن » ، فهذه الكلمة تدل على (الإيمان) ، بينما كلمة « مسلم » لا تدل إلا على (الإسلام) . فالنصّ على « عبد الرحمن »^(٤) في الإمامة ، كولىّ عهد للخليفة الحاكم ، لم يعتبر شرعياً ، لأن عبد الرحمن نُعت بلقب « ولىّ عهد المسلمين » وليس بلقب « ولىّ عهد المؤمنين » . إن (الإيمان) هو الذى يهيم في العقيدة الفاطمية^(٥) .

وإنا لا نعرف أيضاً ، الرسوم المتبعة في مناسبة النص على خلف الإمام ، وإن كان أكبر الظن أن الإمام هو الذى يقال البيعة لولىّ عهده^(٦) . فالعز عندما

(١) صبح ، ٣ ص ٥٢٢ ؛ مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٠٨ س ٣ — ٤ .

(٢) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ١٧٨ .

(٣) الهداية ، ص ١٣ .

(٤) نفسه ؛ ابن القلانسى ، تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٦٩ .

(٥) النعمان ، دعائم ، ١ ص ١٥ .

(٦) ابن القلانسى ، ص ١٥ .

نصّ عليه والده ، خرج متبوعاً بموكب عظيم^(١) ؛ كما أن الدولة قامت بتوزيع أموال طائلة وخلع سنوية كثيرة على كبار الموظفين ؛ كذلك فرق الطعام على الناس^(٢) .

على كل حال ، أوجد مبدأ النص اضطراراً كبيراً بين الشيعة ، فعدد لا يحصى من فرق وطوائف الشيعة نشأ نتيجة للنصّ الذي لم يتفق عليه . ويدين الفاطميون أنفسهم بوجودهم ، إلى مثل هذا الانشقاق ؛ فهم جعلوا النصّ من جعفر الصادق (م ١٤٨ / ٧٦٥) إلى ابنه اسماعيل ، بدلاً من ابنه موسى الكاظم . فتسمى الفاطميون باسم الاسماعيلية^(٣) ؛ كما تسمى أنصار موسى بالإمامية ، وذلك بسبب اعتقادهم في إمامة موسى الكاظم .

و بسبب النص ، انقسم الفاطميون أيضاً في مصر على أنفسهم ، إلى قسمين رئيسيين : الزارية أنصار نزار ، الابن الأكبر للمستنصر ؛ والمستعلية أنصار المستعلي ، الابن الأصغر^(٤) . فقد قيل بأن الحسن الصباح لما جاء مصر في سنة ١٠٧٨/٤٧١ ، طلب من المستنصر أن ينصّ على خلفه في الإمامة . وحسب قول حسن ، فإن المستنصر أفهمه بأن نزاراً سيكون ولي عهده .^(٥) ولكن بعد موت المستنصر ، فإن المستعلي الابن الأصغر ، هو الذي تولى الخلافة ، ولذلك فإن الحسن وأتباعه تمسكوا بإمامة نزار ، وأسسوا فرقة منشقة . وما زالت هاتان الطائفتان موجودتين إلى الآن ، ويتمثلان في الهند في طائفتي : الزارية باسم خوجة ، والمستعلية باسم البهرة والدوادية والسامانية .

وعلاوة على النصّ ، أوجد الفاطميون مبدأ آخر هو « الولاية » بمعنى

(١) النعمان ، المجلس ، ١ ص ٩ .

(٢) مقرريزي ، خطط ، ١ ص ٣٥٥ س ١٢ — ١٣ .

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٦٢ — ٣ ؛ صبح ، ١٣ ، ص ٢٣٥ .

(٤) صبح ، ١٣ ، ص ٢٣٦ ؛ خطط ، ١ ص ٣٥٧ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، تحقيق Torenberg ، ٩ ص ٣٠٢ .

الطاعة للامام ، وذلك لتأييد قوة النص^(١) . فالولاية في الواقع ، فرض جوهرى من فروض الدين والمجتمع ؛ حيث تعتبر (الدعامة) الأولى ، من بين سبع (دعائم) ، على أساسها بُنى الإسلام الفاطمى^(٢) ؛ وهى : الولاية ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد . فالخضوع للامام ضرورة دينية مثلما هو ضرورة منطقية ، ولا ريب ، فإن الفرض الدينى ، هو الناحية الأساسية فى العقيدة الفاطمية .

فى رأى الفاطميين : جميع سور القرآن تدعو إلى الخضوع للامام ، ولما كان الأئمة يملكون ناصية تفسير القرآن ، فإنهم يؤولون جميع السور؛ على أساس وجوب الطاعة لهم . فيستند الفاطميون على الخصوص إلى هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم »^(٣) ، وليس هناك شك ، فى أن المقصود بأولى الأمور— فى رأيهم — هم الأئمة الفاطميون^(٤) .

وتوجد أحاديث تُنسب إلى النبي وإلى الأئمة ، تدعو إلى طاعة الإمام . فمن قول الرسول : « من مات لا يعرف إمام دهره حياً ، مات ميتة جاهلية »^(٥) . ومن قول على^(٦) فى وصيته إلى ابنه الحسن : « قرن الله طاعتنا بطاعته وطاعة رسوله »^(٦) . ويضيف الإمام جعفر فيقول : « بنا يعبد الله ، و بنا يُطاع الله ، و بنا يُعصى الله ، فمن أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصى الله »^(٧) . فهذه الأحاديث ، وهذه الأقوال المنسوبة للأئمة ، ذُكرت على الأخص لتأييد هذه الطاعة ، التى هى طاعة

(١) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٣ .

(٢) نفسه؛ شرح ، ورقة ٢٩ ؛ أنظر . The Isma'ili law of wills p,1;70—71 .

(٣) سورة ٤ آية ٥٩ ؛ النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ٣٦٥ ؛ دعائم ، ١ ص ٢٥ .

(٤) مجالس ، ١ ورقة ٣٦٥ .

(٥) دعائم ، ١ ص ٣١ .

(٦) Isma'ili law , p 42 . : Fyze

(٧) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٧٢ ؛ أنظر . كامل حسين ، كتاب الهمة ، (المقدمة) ، ص ١٩ .

لأن الأئمة مظهر للارادة الإلهية . فهذا الواجب إذاً فرض مطلق على المسلمين^(١) ، ومن ذلك ، يستنبط Goldziher^(٢) ، « أن الشيعة مذهب أوتقراطي ، لأن الذي لا يقر بهذه الطاعة يعتبر كافراً »^(٣) .

ومن ناحية أخرى ، أن وجوب طاعة الإمام — في رأى الفاطميين — مبدأ مُدرك بالعقل ، ذلك لأن الإمام هو أساس الوحدة الاجتماعية والدينية للأمة الإسلامية^(٤) . ولا ريب ، أن أئمة الفاطميين كانوا يحكمون شعوباً سنية ، إلا أن الولاء لأولى الأمر كان هو أيضاً من الواجبات الدينية عند السنيين . فكان البويهيون (منتصف القرن العاشر) ، مع العلم بأنهم شيعة ، يتحكمون في الإمبراطورية العباسية وخلفائها السنيين .

وقد تمسك الفاطميون بطاعة الإمام المطلقة لكي يقووا سلطتهم الزمنية ، وليجعلوها مقدسة رهيبة . ولذا يرى علماء الفاطميين أن هذه « الولاية » ليست جزئية ؛ لأنها يجب أن تشمل جميع الأمة الإسلامية^(٥) ، وقد أطلقوا على المكان الذي توجد فيه هذه الأمة الإسلامية التسمية العامة « بدار الإسلام » . وعلى ذلك ، فلا يجب أن يُطاع فيها غير سلطة شرعية واحدة : هي سلطة الإمام الفاطمي ؛ فكان إمكان وجود امامين أو خليفتين في وقت واحد ، ليس له مكان في العقيدة الفاطمية . فيرى ناصري خسرو : أن حكم هذه الأمة ملك للإمام ؛ وليس لغيره أى حق فيه^(٦) . ولم يجد هذا الرأى قبولاً من السنيين^(٧) ، على الأخص حينما

(١) تاج العقائد ، ص ٩ .

(٢) أنظر . Le dogme, p 152 .

(٣) تاج العقائد ، ص ٤٣ و ٤٩ .

(٤) خشاب : Nâsiri Husrau , p 256-7 .

(٥) نفسه ، ص ٢٥٨ ؛ النعمان ، مجالس ، ٢ ورقة ٤٧٨ .

(٦) خشاب : Nâsir Husru' P. 256 . يقول ابن هانئ بهذا الخصوص :

وأنت معد وارث الأرض كلها فقد حم مقدور وقد خط مكتوب ويقول أيضاً :

ألا تسلّم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فتر . =

اتسعت رقعة الإسلام، فأصبح من الصعب حكمها بشخص واحد، وفي هذه الحالة، فإنهم يسمعون بعقد شرعي مع شخصين، في وقت واحد^(١).

على أن اقرار الولاية؛ يتطلب القيام أيضاً بشرائط البيعة، وكلمة بيعة تعني «العهد على الطاعة»، وهي مظهر للولاية، والتزام بها^(٢). فيجب على كل فرد من أسرة الإمام، ومن وجوه دولته الدخول فيها، لأنها برهان لولاء كل مؤمن، وحتى كل مسلم^(٣). ولا يند من ذلك، النساء اللاتي يجب أن يشتركن في عقد البيعة للإمام^(٤). فيقول جعفر — جد الفاطميين — في هذا الصدد، نقلاً عن الرسول: «من مات لا يعرف إمام دهره، مات ميتة جاهلية»^(٥).

على كل حال، هذا العهد على الطاعة لم يكن نصاً يقرأ، وإنما كان يُعبر عنه مجازاً: بتقبيل الأرض بين يدي الخليفة، أو بتقبيل اليد أو الرجل أو الذيل^(٦)؛ وأن يقول الشخص هذه العبارة: «السلام على أمير المؤمنين»^(٧). فكان تقبيل الأرض أمام الإمام يرمز إلى الإقرار بالخضوع، ويدل أيضاً على انتخاب الإمام الجديد، واعتراف الأمة الإسلامية به. ويؤكد النعمان أن السجود بين

= أنظر . ديوان، تحقيق زيادة، بيروت ١٣٨٦، ص ٣، ٦٤، ٦٦؛ ١١ ص ١٨٨؛
Canard : Annales, P. 159 . وكذلك في أول خطبة للجمعة في القسطنطينية في ٩٦٩/٣٥٨،
بدأ الخطيب بالصلاة على العز فقال: « واجمع الأمة على طاعته . . . وورثه مشارق الأرض
ومغارها . . . فإنك تقول وقولك الحق : ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها
عبادي الصالحون » . مقرئزي ، اتعاظ ، ص ٧٥ — ٧٦ ؛ أنظر . Annales P 159 Canard :
حسن ابراهيم ، الفاطميون في مصر ، ص ١٢٠ — ١٢١ ؛ Vle du : Quatremère
calife Mucizz , J. A, 1836,3, P. 55.

(١) ابن خلدون، مقدمة، ص ٣٤٧ — ٨ .

(٢) نفسه، ص ٣٧٦ .

(٣) تاج العقائد، ص ٤٣ .

(٤) نفسه .

(٥) النعمان، دعائم، ص ٣٤ .

(٦) ابن خلدون، مقدمة، ص ٣٧٧ .

(٧) ابن ميسر، ص ٥١ .

يدى الأمة ، لا يدل على العبادة ، وإنما على الخضوع ^(١) .
ولسنا نجد معلومات وافية عن الرسوم المتبعة في مبايعة الخلفاء الفاطميين ،
في مصر . ومهما يكن ، فإننا نعتقد بأنه لم يك ثمة فرق كبير بين الرسوم الفاطمية ،
وما كان متبعاً في مبايعة غيرهم من الخلفاء ، وعلى الأخص العباسيين . ومع ذلك ،
استطعنا أن نجتمع من كتب التاريخ بعض النصف التي تسمح لنا بتصوير الرسوم
المتبعة في مثل هذه المناسبة ، والتي تميز حب الفاطميين للأبهة . فكانت الحفلة
تقام بطبيعة الحال بالقصر الكبير ، فيعتلى الخليفة سريراً « عرشاً » ، وقد لبس
لهذه المناسبة تاجاً ، حتى وإن كان لا يزال طفلاً ^(٢) ؛ وهذا التاج — في الواقع —
لم يكن غير عمامة مرصعة بالأحجار الكريمة ، يلبسها الخليفة في جميع الحفلات
الفاطمية ^(٣) . وكان على قاضي القضاة ، أو داعي الدعاة ؛ أن يقوم بمراسيم البيعة ^(٤) ؛
فيتقدم رجال الدولة بين يدي الخليفة لتقبيل الأرض كرمز للخضوع ، فكان أفراد
أسرة الإمام أول من يقدمون خضوعهم ^(٥) . ولكن حينما يكون الإمام صغيراً جداً ،
فإن وزير النفويض وهو الوصي عليه ، كان يأخذ له البيعة بنفسه ، ثم يحمله ، أمام
الجمهير بين ذراعيه ؛ كما فعل الوزير عباس مع الخليفة الفائز ^(٦) .
وقد جرت العادة آنئذ ؛ أن تُصدر رسائل إلى حكام الخلافة ، وأصغى
ومعلنة — في عبارات مزوقة — خبر تولية الإمام ^(٧) ؛ وأن يدعى له على المنابر
في خطبة صلاة الجمعة ؛ فهكذا كان الشأن عند بيعة الخليفة في سائر الدول

(١) النعمان ، مجالس ، ١ ، ص ٢٢ — ٢٨ .

(٢) ابن ميسر ، ص ٥٢ — ٥٣ .

(٣) ابن خلكان ، ٢٠ ، ص ٢٢٦ .

(٤) ابن ميسر ، ص ٦٧ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٥) رسائل المستنصر : (٣٧) ورقة ١٦٢ ؛ (٤٣) ورقة ١٣٠ .

(٦) ابن خلكان ، ١ ، ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٧) رسائل المستنصر : (٣٥) ؛ (٤٣) . مثل تولية الإمام المستعلى .

الإسلامية^(١) ؛ وأن ينقش اسمه على قطع النقود ، ويطرز على رايات الجيش وبنوده^(٢) . وزيادة على ذلك ، كان الفاطميون يتمسكون بشدة بأن يخطب للإمام وآبائه ، في الحرمين المعظمين — مكة والمدينة —^(٣) ؛ حيث أنهما قبلة جميع المسلمين . ولذلك ظهرت دائماً منافسة شديدة بين الإمامة الفاطمية والخلافة العباسية ، فكانت كل منهما تسعى إلى الاستيلاء على الأماكن المقدسة بالحجاز ، لتوطيد نفوذها في « دار الإسلام »^(٤) .

وكان للإمام المنصوص عليه سلطات واسعة ، أهمها : السلطة الدينية ، لأن الإمامة هي القاعدة التي يرتكز عليها الدين كله . وقد عبر ابن خلدون — المؤرخ الكبير — عن ذلك ، بأن الإمام ضروري لتعريف الناس أصول دينهم الذي أنزله الله على الرسول محمد . ففي رأيه : أن الله قد خلق الناس ليستعدوا لآخرتهم ، بالقيام بالقروض التي أمرهم بها ، فوجود نبي أو خليفة أمر ضروري ؛ وبدونه يصير الناس فوضى بدون هداية^(٥) .

ويؤكد ناصري خسرو — مؤدى هذا الرأي — بقوله : إنه وإن كان الإمام واجباً وجوده للدنيا وليس للدين ، فإن الدين لا لزوم له بدون امام ؛ وإذا كان وجوده قوام الدين وليس للدنيا ، فإن الإمامة لا لزوم لها^(٦) .

ولقد كان الفاطميون يخصصون أمتهم بالمعرفة بكل أصول الدين ، لأنهم وخدم

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ٢ من ٦٣ .

(٢) السيوطي ، خلفاء ، ص ١٦٦ .

(٣) رسائل المستنصر : (٥٨) ورقة ٣١٥ — ٣١٦ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ١

ص ٤١٠ .

(٤) رسائل المستنصر : (٣) و (٤) و (٧) و (١٢) .

(٥) ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٣٤٣ — ٤ ؛ أنظر . Prolégomènes, I, p.3٤5-6

(٦) خشاب : Nāsiri Husrau, p. 256 .

يستطيعون تفسير المعنى الصحيح للقرآن ، فهم يعرفون المعنى الباطن للدين ، والمعنى المؤول ، بل وتأويل هذا المعنى المؤول^(١) . وعلى ذلك يكون الإمام جزءاً لا يتجزأ من العقائد الاسلامية ، لأن الدين لا يكون تاماً بدون علم الإمام^(٢) . والواقع ، أن هذا العلم جعل الإمام الفاطمي في مرتبة فوق مرتبة غيره من البشر ، وخلع عليه صفة العصمة^(٣) ، التي تأتيه من معارفه العالية . فعلى عكس العقيدة السنية ، تخص العقيدة الفاطمية الإمامة بدور هام في الناحية الدينية .

لذلك كان على الإمام أن يساعد الناس في سبر غور أصول دينهم ؛ وهذا من أول واجباته الهامة . فالخليفة الفاطمي بنفسه يُعين الدعاة من قبله ، ويكلفهم بنشر العقيدة التي يشرحها لهم ، وهو وحده المسئول عن صحتها . فيقوم الدعاة بتقديم التفسير أو التأويل للنص القرآني إلى الإمام ، قبل قراءته على المستجيبين أو على الحاضرين في مجالس الدعوة أو في المساجد ، فإذا نال موافقته وضع عليه علامته^(٤) ، فيصبح الكلام الذي يُلقى مقدساً غير قابل للتبديل أو للتعديل . وأحياناً أخرى ، كان الإمام يرتب في قصره محاضرات أو مجالس يلقيها بنفسه^(٥) . وغير ذلك ، فإنه يدعو العلماء إلى تأليف الكتب عن عقائد المذهب الفاطمي^(٦) ؛ فقد طلب المعز من النعمان الإطّلاع على العلوم الخاصة بأهل البيت ، والتأكد من صحة النصوص التي تنقل عنهم ؛ فكان النعمان في مؤلفاته عن الأئمة

(١) أنظر . Essai sur L' Histoire de l' Islamisme : Dozy ترجمه من الهولندية

Chauvin ، ص ٢٦٤ .

(٢) النعمان ، مجالس ، ٢ ورقة ٣٧٣ ؛ عمارة ، ديوان ، تحقيق Derembourg ،

ص ٣٣ .

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٥٥ ؛ غزالي ، فضائح الباطنية ، ص ٨ .

(٤) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٣٩١ س ٩ — ١٠ .

(٥) أنظر . الحشاش ، سفر نامه ، القاهرة ١٩٤٥ ؛ (مقدمة) ص « ١ » .

(٦) النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ١١٥ ، ورقة ٢٨٨ .

دائم الخوف من أن يرتكب غلطات^(١) ، وكان المعز يراجع بعناية جميع المؤلفات التي تقدم إليه^(٢) . كذلك كان على الإمام أن يقوم بواجب الجهاد ضد الكفار ، وهو فرض صريح في العقيدة الفاطمية^(٣) .

والإمام أيضاً جزء غير منفصل من الشريعة ؛ فوجوده لازم لوجود الشرائع القانونية نفسها . فكان الإمام — بسبب معارفه في الدين — يعتبر مستودعاً للشرائع الإسلامية ، والمجتهد المطلق^(٤) في الشريعة ، القادر على استنباط الأحكام وتفسيرها ، وغير الإمام لا يملك هذا الحق .

وفي الجملة كان الأئمة الفاطميون يميلون إلى الاحتفاظ بمظهرهم كرؤساء للدين أكثر منهم كملوك ، فهم قبل كل شيء زعماء المذهب الفاطمي ، إحدى فرق الشيعة . فكان الإمام يشترك في كل الأعياد الدينية والشيعة على الخصوص ، فيخرج في حفل رسمي للصلاة بالناس وللخطبة في الجمعة^(٥) . فهذا في رأي تاصري خسرو ، كان من شأنه أن يعلى مرتبة الإمامة .

أما عن الصفة الروحية للأئمة الفاطميين ، فإنها جاءتهم من تولية النبي لعليّ وسلالته امامة المسلمين ، ومن معارف وأسرار نقلها محمد إلى ابن عمه وإلى عقبه . ففي رأي الفاطميين ، كان للأئمة صفات خارقة تجعلهم فوق مرتبة البشر^(٦) ، فكانت من صفاتهم العصمة ؛ وهي صفة تنسبها السنة إلى الأنبياء

(١) نفسه ، ١ ورقة ١١٢ .

(٢) نفسه ، ١ ورقة ٢٨٨ .

(٣) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٣٥٩ — ٤٦٦ .

(٤) أنظر . Sanhoury . Le Califat , p. 52 .

(٥) رسائل المستنصر : (١٣) و(٣٠) ؛ صبح ، ٣ ص ٥٠٣ — ٥١٦ ؛ ابن خلدون ،

مقدمة ١ ص ٣٩٦ .

(٦) النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ١١٣ ، غزالي ؛ فضائح الباطنية ، ص ٨ ؛ أنظر . =

وخدم . ويقرر ابن خلدون في هذا الصدد ، أن الإمام معصوم من جميع الخطايا : الكبائر والصغائر^(١) .

وعلى هذا ، فإن شخص الإمام مقدس ، ولدينا أمثلة عديدة عن صفاته الروحية . فالفاظ الإمام — في رأى النعمان^(٢) — تكون ألقافاً مقدسة ، كألفاظ القرآن ، في الجزالة والفقامة والبيان ، تبعجز أن يحكيها البشر . وكانت ملابس الإمام هي الأخرى مقدسة^(٣) ، فكان على الولاة وغيرهم أن يقفوا ، احتراماً عند استلامهم ملابس الخليفة من المناسج ، وكان من التبرك للشخص ، أن يلبس ثوباً من الملابس ؛ التي كان قد لبسها الخليفة^(٤) . أما في أثناء الأعياد ، فكان التجار يزيفون الطرق التي قد يمر منها موكب الإمام ، بأشياء من تجارتهم ، لطلب البركة من نظرتة^(٥) ؛ وكان الناس — عند سروره — يخرجون سجداً لتقبيل الأرض ، ويدكرون اسمه عند قيامهم^(٦) . وكذلك جرت العادة أن يعطى الإمام بركته للجيش وللأسطول عند ذهابها للحرب^(٧) ، أو عند القدوم منها . ثم إن الإمام كان مثل بابا النصارى ، له القدرة

Canard = Annales de l'Inst. d' Et. Or. 6, 1942 - 4, p. 160. من الطريف أن نذكر هنا البرهان على صفاتهم العالية ؛ فقد كان الخليفة المعز أول مخترع للقلم النواع ، وكان يرمز به إلى « باطن العلم » . فهو قلم يكتب به بلا استمداد من دواة ، ويكون مداده من داخله ، فإذا قلب في اليد ومال إلى كل ناحية ، لا يبدو منه شيء من المداد . فكان الكاتب يجعله في كفه أو حيث شاء ، دون أن يلمس اليد أو الثياب . ويقول المعز : « فيكون آلة عجيبة ، لم نعلم أنا سبقنا إليها ، دليلاً على حكمة بالغة لمن تأملها ، وعرف وجه المعنى منها » أنظر . النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ١٣٧ — ١٥٠ .

(١) المقدمة ، ١ ص ٣٥٥ ، أنظر . Die Renaissance : Mez ، ترجمة أبي ريدة ،

١ ص ١٢٠ .

(٢) مجالس ، ١ ورقة ١١٢ ؛ ١١٤ .

(٣) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٧٠ ، س ٨ — ٩ .

(٤) رسائل المستنصر : (٢) ورقة ٧ ؛ (١٤) ورقة ٦٨ .

(٥) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٤٦ س ١٢ — ١٦ .

(٦) Sefsr Nameh, trad, Schefer. p. 141. 20 - 22 : Näsir i Husran .

(٧) ابن ميسر ، ص ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٥ ، مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٨٠ س ١ ، ٢ ،

ص ١٩٨ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٢٣ .

على أن يشفع للمؤمنين خطاياهم^(١).

والظاهر أن علماء الدين من الشيعة قد بالغوا — بصفة عامة — في سلطة الإمام الروحية ، فنسب المتطرفون منهم العقيدة الروحية للإمام إلى أصل خارجي عن الدين ، لتوافق العقائد التي ظهرت نتيجة للفلسفة الإفلاطونية الحديثة^(٢) . فكانوا يؤمنون برجعة الإمام بعد موته ؛ ويؤمنون (بالتحجيم) ؛ ففي رأيهم ، أن الإله حل في جسم الإمام^(٣) ، أو هو (الحلول) نفسه ، كما تقول الدرزية . فيؤكد حمزة — أحد دعاة الدرزية — في رسائله عن الحاكم ، هذا الرأي ، بقوله : إن روح آدم التي هي من مادة عليا ، انتقلت إلى علي بن أبي طالب ، ثم انتقلت بعدئذ من علي إلى سنان الحاكم . ويزعم هذا الداعية أيضاً ، أن الحاكم خليفة — إله ، لأن الله حل في ذات الحاكم البشرية^(٤) . كذلك تعدد بعض دعاة الفاطميين — غير الأئمّة في رواياتهم عن الإمامة الفاطمية — الحدود في ذكر الصفة الروحية للأئمّة الفاطميين^(٥) ، فنسبوا إلى خلفاء الفاطميين القدرة على معرفة الغيب والأسرار^(٦) .

وقد احتج خلفاء الفاطميين على هذه الادعاءات المبالغ فيها ، واعتبروا ادعاءات الدروز أو غيرهم من الدعاة هرطقة^(٧) ، وأوحوا إلى بعض المؤلفين المحققين ،

(١) انظر : Goldziher : p. 6. (مقدمة) Streitschrift

(٢) انظر : Massé : p. 150. L'Islam ؛ بدوى ، التراث اليوناني في الحضارة

الإسلامية ، ص ١٢ .

(٣) ابن هاني ، ديوان ، تحقيق زاهد ، ص ١٥ ؛ أنظر . L'impérialisme : Canard

des Fatimides et leur propagande » , Annales de l'Inst. d' Et. Or, 1942 - 47, p. 191 .

(٤) رسائل الدعاة ، ورقة ٦١ ، سيوطي ، حسن ، ص ٢ ، ص ١٤ ؛ قلقشندي ؛ ١٣

ص ٢٤٨ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ص ٦٩ .

(٥) النعمان ، دعائم ١ ، ص ٥٨ ؛ مجالس ، ١ ورقة ١١٥ .

(٦) النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ٧٨ ؛ دعائم ، ١ ص ٥٨ ؛ كتاب الهمة ، ١ ص ٥٣ .

(٧) النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ٣٧١ .

بتصنيف كتب لتنقية العقائد الفاطمية من مثل هذه الأغلط^(١)؛ فليس ثمة ريب في أن العقيدة المستقاة من الأمة الفاطميين أنفسهم، تميز بين الأنبياء والأئمة. فهؤلاء لا يأتيهم الوحي الإلهي، ولا يعلمون الغيب وما تخفى الصدور، وأنهم مثل كل البشر^(٢). ونجد استبشاح هذه الادعاءات في فقرة وردت في كتاب «المجالس والمسائرات»، يحمل المعز فيها على جرأة هذا الادعاء؛ فيوجه الكلام إلى النعمان، فيقول^(٣): «إنه انتهى إليك وإلينا، أنا ندفع نبوة محمد وندعى النبوة بعده، وندفع سنته وشريعته، وندعوا إلى غيرها، فلعن الله من قال بهذا وانتحلها وادعاه، ومن تقوله علينا، ورمانا به ونسبه إلينا». ثم يقول أيضاً: «فكيف ندعيها (النبوة) وندعى ما يصلى الله من ادعاه النار، ونقول بقول من أبطل نبوة جدنا محمد (صلع) من الكفار، والله سائل من قولنا من ذلك ما لم نقله، ومؤاخذه بقوله». وأخيراً يقول: «إن المنتسبين إلينا، المتقولين ما لم نقله، أعداء لنا، وأضر من عدونا المناصب لنا، المبان بعداوتنا».

وفي الحقيقة، إن الفاطميين كانوا يميزون دائماً بين مقام النبوة ومقام الإمامة^(٤)، ويذودون عن الدين الاسلامي. ويمكننا أن نقارن السلطة الروحية للامام — في العقيدة الفاطمية — بالسلطة الروحية للبابا في العقيدة الكاثوليكية.

وقد كان للامامة الفاطمية زمام السلطة الزمنية، كما كان لها أيضاً زمام السلطة الروحية والدينية؛ فقد أقيم منصب الإمامة؛ لتخلف النبي في حراسة الدين وسياسة الدنيا. ويعبر الإمام الرازي عن هذه الفكرة، بقوله: إن الإمامة

(١) تاج العقائد، ص ١٨.

(٢) النعمان، دعائم، ١ ص ٥٨.

(٣) النعمان، مجالس، ١ ورقة ٣٥٨ — ٣٧١.

(٤) النعمان، كتاب الهمة، ١ ص ٣٩ — ١٣ — ١٤؛ ص ٤٥ س ٨.

هي حكم الدين والدنيا^(١).

ولما كانت الإمامة الفاطمية ورثة النبوة ، فقد أسبغت عليها صفة القدسية . فالإمامة هي ظل الله في الأرض ، وهي صورة لفكرة قديمة مؤداها : أن الدولة والدين توأمان . فكان الإمام الفاطمي يشبه ملوك مصر القدامى ؛ أو ملوك الفرس وكان طبيعياً ، أن تتجمع كل السلطة في يده ، وأن تأخذ مظهر الحق الإلهي المقدس . فكانت سلطة الخليفة واسعة^(٢) ، مثلما كان موجوداً في معظم دول العصور الوسطى ؛ فهو يقوم بدور هام في كل الأمور ، ويبدى رأيه في كل المسائل ، ويهيمن بنفوذه على كل دقائق الأمور التي تتعلق بالسياسة ، ويستقبل رُسل الملوك ، ويدير دفة الأمور الحربية . كذلك كان موظفو الدولة مسئولين أمامه ، فهو يفوض سلطته إلى عدد كبير من الموظفين : وزراء ، وولاة ، وقواد ، وقضاة ، ودعاة ، وغيرهم من أرباب الوظائف ؛ فكانت سلطة هؤلاء مستمدة من سلطته ، التي لا يمنحها إلا للذين حازوا ثقته ، وبرهنوا على إخلاصهم الشديد لعقيدة الدولة . ولكن لم يمنع ذلك ، بعض كبار أرباب الوظائف ، من التحكم بنفوذهم في سلطة الإمام المقدسة ؛ فقد وجد وزراء سيف تدخلوا بنفوذهم في تولية الأئمة ؛ بحيث أصبح هؤلاء العوبة بين أيديهم . على أن ازدياد ضعف الإمام ، أدى إلى زيادة نفوذ الوزراء ، ومن ثم فإن سلطة الإمام الزمنية قضى عليها نهائياً^(٣).

وكان للفاطميين ، الذين يقومون بهذه السلطات : الدينية والروحية والزمنية ، ألقاب عديدة تدل عليها .

فكان من أهم ألقابهم لقب « إمام » الذي اشتقت منه كلمة إمامه التي تميز مرتبة الخليفة الفاطمي في مصر . وهو أيضاً من أقدم ألقابهم ؛ فقد ظهر قبل

(١) Le Califat dans la doctrine de Rassid Rida, p. 15. : Laoust

(٢) Les Statuts gouvernementaux au règne de droit : Fagnan public et administratif (al-Māwardi) p. 2.

(٣) أنظر . بعده .

قيام دولتهم في إفريقيا ، وكان يلقب به عليّ ، وبقى طوال العصور الوسطى . وكان لقب « امام » من أفضل التسميات عند زعماء الفاطميين ^(١) ؛ فكان ينقش دائماً على قطع النقود ^(٢) ، ويذكر في المراسلات الرسمية ^(٣) . وكلمة « امام » تدل على عدة معان في القرآن ^(٤) ، منها : « مقدم » ، و « هاد » ، و « زعيم » ، و « قدوة » ؛ وإن كان المعنى الغالب : « الإمام الذي يُقتدى به في الصلاة » ^(٥) . فمن هذه المعاني يستمد خلفاء على سلطتهم الدينية والزمينية ؛ فكان هذا اللقب عند الفاطميين غير منفصل عن أمتهم ، بسبب طبيعة أشخاصهم الخاصة ، في حين أن لقب « امام » عند السنيين يدل فقط على الخليفة الذي بايعته الأمة ^(٦) .

وعلى العكس ، تجافى الفاطميون عن لقب « خليفة » ، الذي استعمله السنيون بكثرة ، فلا نجده منقوشاً على قطع النقود أو في المراسلات الرسمية . ومع ذلك ، فهذا اللقب يدل على زعيم الأمة الإسلامية ، منذ موت النبي . وأصل كلمة « خليفة » في فكرة « خَلَفَ » ، وهي في معناها الفقهي ، تدل على الحجيء بعد آخر ، باستخلافه في الزمن . ويرى بعض الفقهاء ^(٨) ، أن لقب « خليفة » يدل على معنى « النيابة » ، وأن هذه الكلمة تدل على الشخص

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٩ .

(٢) Lavoix : Cat. des monn. musul. de la bibl. N, 3, p. 66 ; .

(٣) Mat. pour servir à l' hist de la Num, p. 228, : Sauvare; 67; 68; 69; 97

(٤) رسائل المستنصر . أنظر .

(٥) سورة ٢١ آية ٧٣ ؛ سورة ٢٥ آية ٧٤ ؛ سورة ٤٦ آية ١٢ .

(٦) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٤٤ .

(٧) أنظر : Sanhoury : Le Califat, p. 75 .

(٨) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٤٤ — ٥ ؛ أنظر Ostrorog : Le droit du

Califat, p. 142 - 3 .

(٩) Principes du droit musulman, p. 202 : Van den Berg ترجمه من

الذي يقوم مقام النبي كغائب عنه في أمته . وهذا اللقب « خليفة » لم يكن محبباً لدى الشيعة ، مع أنهم استعملوه ؛ فقد كانوا يفضلون عليه لقب « امام » ، لأنه يدل على سلطتهم الدينية التي جاءتهم مباشرة من الله ، ولا تعني فقط فكرة المجيء بعد النبي . وعلى العكس ، تمسك السنيون بلقب خليفة وفضلوه على لقب إمام ، لدلالته على أئمة الشيعة .

وعلاوة على لقب امام ، كان للفاطميين لقب آخر ، في غاية الأهمية ، هو لقب : « أمير المؤمنين »^(١) ، وهو الذي أضافه عبيد الله ، عند تأسيسه الخلافة الفاطمية ، في إفريقية (٩٠٩/٢٩٧)^(٢) ؛ فكان هذا اللقب ذا أهمية خاصة في الاعتقاد الشيعي ، لأنه يبين صفتهم الروحية التي ورثوها من أسلافهم ، ويشرح كنه عقائدهم الباطنية . فكلية « مؤمن » مشتقة من كلمة « إيمان »^(٣) ، الذي له مقام كبير في العقيدة الفاطمية . وهذه الأهمية عند الفاطميين ، ولا ريب ، لها سند في القرآن^(٤) في قوله تعالى : قالت الأعرابُ آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . فكان الإيمان يصحبه الإسلام ، أما الإسلام فقد لا يصحبه الإيمان^(٥) ، والإسلام — في رأيهم — ظاهر ، بينما الإيمان من صنع الله في القلب ، فهو (باطن) ، يشمل فكرة الإقرار ، التي هي اعتراف بالوحي ، الذي هو اعتراف بالله وبالنبي وبالأمم الفاطميين^(٦) ، ولهذا اتخذ لقب « أمير المؤمنين » أهمية خاصة .

(١) رسائل المستنصر . أنظر . كان عمر بن الخطاب ، أحد الصحابة ، أول من اتخذ هذا اللقب . أنظر . ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٢٠ ، ص ٤٠٨ .

(٢) مقرئزي ، خطط ، ص ١ ، ص ٣٥ س ٣٤ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ص ١ ، ص ٤٠٩ .

— ٤١٠ —

(٣) النعمان ، دعائم ، ص ١ ، ص ٣ — ٥ .

(٤) نفسه ، ص ١٥ ، قرآن ، سورة ٤٩ آية ١٤ .

(٥) النعمان ، دعائم ، ص ١ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٦) نفسه ، ص ١ ، ص ٥ ؛ مجالس ، ٢ ورقة ٢٧٩ ؛ أنظر ، كاشف الغطاء ، أصل الشيعة ، ص ٩٦ .

أما عن كلمة « أمير »، فإن الفاطميين والخلفاء السنيين لم يختلفوا في معناها. ولعل استعمالهم لقب « أمير » بدل « ملك »، مع أن كلاً منهما يدل على صاحب السلطة العليا، قد يفسره هذا التعبير اللاتيني المعروف: « Primus inter Pares »، أي « الأول بين أقرانه »^(١)، خصوصاً وأن كلمة أمير كانت تطلق عادة على قواد الجيش .

كذلك كان أئمة الفاطميين، على الرغم من سلطانهم الروحي والديني الواسع، يظهرن التواضع والخضوع لله، فكانوا يسبقون اسمهم، في المراسلات الرسمية، بعبارة: « من عبد الله ووليه »^(٢).

أما عن « اللقب » فقد كان عند الأئمة الفاطميين مثماً كان عند جميع ملوك المسلمين الآخرين، يشتمل دائماً على كلمة « الله »^(٣). وقد اتخذ الفاطميون اللقب لأول مرة في عهد عبید الله، جد فاطمي مصر، فتلقب « بالمهدى »، وسار خلفاؤه على سنته في اتخاذ اللقب، حتى آخر ملوكهم، « العاضد لدين الله ». وقد قيل بأن اللقب عند خلفاء الفاطميين في مصر، كان موجوداً قبل « المعز لدين الله »^(٤)، حتى إذا تولى واحد منهم لقبه ببعض تلك الألقاب. كذلك كان اللقب عند الفاطميين وسيلة لتأييد نفوذ إمامتهم؛ فقد اتخذ « الحافظ لدين الله »، ألقاباً فخمة لم يسبق إليها، بعد موت ابن عمه « الأمر بالله »، الذي لم يترك ولداً ذكراً؛ نذكر منها: « مولانا وسيدنا، إمام العصر والزمان »^(٥).

(١) أنظر . The Legacy of Islam, p. 298 .

(٢) رسائل المستنصر . أنظر .

(٣) Titres. califiens, j. A. 1907, p.259. : Van Berchem ، كان المنصور بالله،

أول خليفة عباسي، اتخذ مثل هذا اللقب .

(٤) ابن الياس، بدائع، القاهرة ١٨٦٦ — ١٨٩٨، ص ٦٧ .

(٥) السيوطي، حسن، ٢ ص ١٦؛ أنظر . L' Egypte, 4, p 271 sq.; Wiet .

وكان للخلفاء الفاطميين أيضاً ، تسمية عامة لا تدل على لقب ، ولكن على نعت ، ويقصد بها « السلطنة » أو « النفوذ » ؛ هي كلمة « سلطان »^(١) . فكانت هذه التسمية لا تظهر في المراسلات الرسمية ، ولا تنقش على العملة ، وإن ذكرها الرحالون والمؤرخون . ولقد أُطلق لقب «سلطان» أيضاً على الوزراء والأمراء في الدولة الفاطمية ، ولكنه لم يصبح لقباً ملكياً في الدول الإسلامية ، إلا بمجيء السلاجقة ، وذلك حينما نقشه طغرل بك على العملة .

وكان يوجد أيضاً ، ألفاظ أخرى ، تبدو أنها كثيرة الاستعمال في رسوم البلاط ، وفي طريقة مخاطبة الامام ، مثل : لفظة « مولانا »^(٢) ، ولفظة « سيدنا » . وعلى الرغم من أن الحاكم تشدد في المنع عن مخاطبته بهذه الألفاظ^(٣) ، فإن الصفة الرسمية بقيت لهاتين اللفظتين طول العصر الفاطمي .

وكذلك جرت العادة أن تُذكر في المكاتبات ، عبارة مميزة للفاطميين ، عند ذكر أسماء الأئمة ، تحت هذه الصيغة : « صلى الله عليه وسلم »^(٤) . وأصل هذه العبارة في الدعاء لابراهيم وآله في الصلاة ، وهي تدل على اعتقاد الفاطميين في طبيعة أئمتهم الالهية .

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٣٤٥ ؛ Nâsir i Husrau : Sefer Nameh ، 9-156 trad, Schefer, p. أنظر . Kramers « Art Sultan » في دائرة المعارف (الفرنسية) .

(٢) النعمان ، شرح ، ورقة ٢ .

(٣) يحيى ، ٥١٤ .

(٤) النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ٣٧٧ ؛ دعائم ، ١ ص ٤٨ .

ونجد بالاضافة إلى هذه الألقاب والصفات ، كلمات ذات صبغة مذهبية
بحثة ، تُطلق على الأئمة الفاطميين ، مثل : « الحضرة »^(١) أو « الحضرة
الشريفة »^(٢) ، أو « الباب »^(٣) (أى الباب الذى عن طريقه تصل الشفاعة
للمؤمنين من الله) ، أو « إمام الزمان » ، أو « صاحب الزمان »^(٤) ، أو فقط
كلمة « عترة »^(٥) (بمعنى أقرباء النبي) ، أو « مقام »^(٦) .

كذلك كان يُضاف إلى اسم كل شيء يتعلق بالإمام ، صفة تدل على تقديسه ،
مثل : « التاج الشريف »^(٧) و « المائدة الشريفة »^(٨) ، وهذه العبارات تميز
الفاطميين .

-
- (١) رسائل المستنصر: (٥) ورقة ٢٩؛ (٥٧) ورقة ٣١١؛ (٥٨) ورقة ٣١٣ و٣١٤؛
أنظر . Rec. d' Arch, Or, 4, Paris 1901 p.284 - 7 : Clermont Ganneau .
(٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، تحقيق Popper ، ٢ ص ١٤ .
(٣) النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ٥٠؛ عمارة تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٤٢ .
(٤) السيوطى ، حسن ، ٢ ص ١١٦؛ النعمان ، شرح ، ورقة ٢ .
(٥) رسائل المستنصر: (٣) ورقة ١٩؛ (٤) ورقة ٢٠ .
(٦) الهداية ، ص ١٤ ؛ ٢٨ ؛ ٣٤ .
(٧) رسائل المستنصر: (٤٣) ورقة ٢٣٨؛ مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٤٨ س ٥ .
(٨) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٧٥ س ٥ .

الفصل الثاني

الوزارة

التسميات المختلفة — ألقاب الوزراء — تولية الوزراء —
علاماتهم — اختيارهم .

الوزارة نظام متعارف عليه في الدول الإسلامية في العصور الوسطى ، وهي من أصل ساساني^(١) ، وتعتبر أرفع المناصب وأسمائها ، وتسمى عند الفاطميين « رتبة »^(٢) ؛ كلمة تطلق على الوظائف العامة التي كانت الوزارة واحدة منها . وهذه الرتبة في الدولة الفاطمية — كما في غيرها من الدول الإسلامية — تنقسم إلى نوعين : وزارة التلم ووزارة السيف^(٣) . ولكن الوزارة الفاطمية ، بتسمياتها المختلفة في ذلك العصر ، كانت من مميزات هذه الدولة ؛ فالفاطيون هم الذين أجروا نظامها وقرروا قواعدها . فكانت الوزارة في أوائل عهد الدولة الفاطمية في مصر ، يُعبر عنها بالفاظ خاصة ؛ فقد أوجد الفاطميون ما يعرف برتبة « الوساطة »^(٤) ، وكان الذي يتولاها يسمى « بالوسيط » ، لأنه كان يتوسط بين الخليفة ورعيته^(٥) . ويحدثنا المقرئ^(٦) خاصاً « بالوساطة » ،

(١) ابن خلدون، مقدمة، ٢ ص ٥؛ أنظر. Christensen: L'Empire des Sassanides, The origin of the : Gōitein ; L' Iran sous les Sassanides p. 115 p. 30-32 vizierate and its true character, Isl. Cult, july 1942, vol . XI . nos 3, - p. 255 - 263 .

(٢) مقرئ ، خطط ، ١ ص ٤٣٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٤٤٠ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٩ ؛ ٢ ص ١٤٩ .

(٤) نفسه ، نفسه ؛ أنظر. ابن ميسر ، ص ٥٤ ؛ ابن الصيرفي ، إشارة ، تحقيق عبد الله

مخلص ، (B. I. F. A. O.) ، ٢٥ ، ١٩٢٥ ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ .

(٥) ابن القلانسي ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨١ ، ٢٣ — ٢٤ .

(٦) مقرئ ، خطط ، ١ ص ٤٣٩ . يصعب علينا البحث عن أصل هذه التعبيرات =

أنها كانت تصحب غالباً بما يسمى « السفارة » ، لتدل على رتبة من يقوم بتنفيذ رغبات الخليفة . ورمما يرجع سبب استعمال مثل هذين اللفظين ، إلى رغبة الخليفة في تحقيق أغراض سياسية : فقد كان الخليفة الكبير ، يفضل في أول عهد الدولة في مصر ، الإبقاء على كل سلطته والاستئثار بكل سيطرته ، فكان يعتمد في تصريف الأمور على « وسيط » وليس على « وزير » .

ولنفس الأسباب ؛ كان الخلفاء الفاطميون يكلون أحياناً أمور دولتهم إلى موظفين في خدمتهم أو إلى « كتّاب » عاديين ؛ دون أن يكون لهم لقب « وسيط » أو حتى لقب « وزير » ، وإنما كانوا يلقبونهم بألقاب منها « موقّع »^(١) أو « مدبّر »^(٢) ، يكون لهم حق تصريف الأمور بعد الرجوع فيها إلى الخليفة . أما تسمية الوزير « وزيراً » فإنها لم تظهر إلا في أيام العزيز (٣٦٥ — ٩٧٥/٣٨٦)^(٣) ، ثانياً خلفاء الفاطميين في مصر ، على الرغم من أنها

= الاصطلاحية . ومع ذلك ، فإنه من الطريف أن نذكر أن لفظة « وساطة » كانت تستعمل أيضاً عند بويهى العراق — المعاصرين للفاطميين — لتدل على مرتبة وزير الملك البويهى . (انظر . ابن مسكويه ، تجارب ، تحقيق Caetani ، ٢ ص ٤١٠ س ٣) . وهذا التقارب بين نظامى الوزارة في الدولتين ، يظهر مرة أخرى ، في عهد عضد الدولة (٣٦٧ — ٩٧٧/٣٧٢) ، الذى أسند الوزارة إلى وزير نصرانى ، كما كان يفعل الفاطميون ، وسيأتى ذكر ذلك في حينه . وعلى عكس الفاطميين ، كان للبويهيين في بعض الأوقات وزيران في وقت واحد ، أحدهما في الجزء الشرقى من الإمبراطورية البويهية ، والثانى في القسم الغربى ، منها (ابن الأثير ، Annales ، ٩ ص ٦٧ س ١ — ٣ ؛ انظر The origin of : Gōitien : the vizierate, Isl. Cult, XVI, 4, Oct. 1942 p 368. وكذلك ، يصعب علينا معرفة أصل العبارتين : « وزارة التنفيذ » و « وزارة النفويض » اللتين كانتا تستخدمان للدلالة على نوعى الوزارة في الدول الإسلامية في ذلك العصر . هذان التعبيران ذكرهما الماوردى في مؤلفه ، دون تعليق على أصلهما : (انظر . Fagnan : Les Statuts Gouvernementaux ؛ وأدب الوزير ، طبعة القاهرة) . سنقف في الصفحات التالية على تطور هذه العبارات في الوزارة الفاطمية .

(١) ابن الصيرفى ، إشارة ، ص ٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٥ — ٢٦ .

(٣) السيوطى ، حسن ، ٢ ص ١١٦ . ففي رمضان ٣٦٨ (إبريل ٩٧٩) ، لقب

أبو الفرح يعقوب بن يوسف ، المعروف بابن كلس ، الذى كان في خدمة العزيز ، بالوزير =

كانت معروفة في عهدى الطولونيين والاششيديين ، قبل مجئ الفاطميين^(١) ،
وإن كان هذا اللقب لم يثبت إلا في عهد الظاهر ، رابع خليفة فاطمي في مصر ،
(٤١١ — ٤٢٧/١٠٢٠ — ١٠٣٥) .

وقد وصل إلينا المعنى المقصود من هذه الكلمة (وزارة) ، في سجل تولية
الجرجرائي^(٢) ، الذي قام بوزارة الظاهر ، في سنة ٤١٨/١٠٢٧ . فيبدو أن أصلها
مشتق من كلمة (أزر) أى ظهر وقوه ، بمعنى أن الخليفة يعتمد في تصريف
الأمر على الوزير ، كما أن الجسم يمد قوته ونشاطه في الظهر . ولهذا المعنى سند
في القرآن^(٣) : « واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى ، أشد به (أزرى)
وأشركه فى أمرى » ، وقد وردت هذه الآية نفسها في سجل توليه الجرجرائي^(٤) .
وعلاوة على ذلك ، تبدو كلمة وزير ، فى كتب مؤرخى العرب ، مشتقة من

الأجل . انظر . ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ص ٤٥ — ٤٦ ؛ مقرئزى ،
خط ، ص ٢ ، ٦ — ١٠ ؛ Becker : Ency de l'Isl. 2, p. 422-423 .

(١) يؤكد السيوطى أن مصر كانت ولاية بلا وزارة إلى أيام الطولونيين (٢٥٤ —
٢٩٢/٨٦٨ — ٩٠٥) ، ويذكر اسم أبوبكر محمد بن رستم المدرائى ، الذى وزر للأمير
الطولونى ، حماروية . انظر . حسن ، ص ٢ ، ١١٥ — ١١٦ ؛ Zaki : Les Tûlûnides ,
p. 19٤ . ويذكر أيضاً ، فى أيام الإخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨/٩٣٤ — ٩٦٨) ،
وهم تولوا حكم مصر بعد الطولونيين ، أباً الفضل جعفر بن الفرات ، الذى وزر للأشيد ،
واستمر فى الوزارة حتى وصاية كافور ؛ ولكن لما وصل الجيش الفاطمى ، رفض جوهر أن
يلقب ابن الفرات بلقب الوزير ، فقال : « ما كان وزير خليفة » . وإن كان بعد مضى
عشر سنوات من حكمهم ، منح الفاطميون هذا اللقب لابن كلس ، الذى كان أول من تلقب به .
انظر . سيوطى ، حسن ، ص ٢ ، ١١٦ ؛ مقرئزى ، خط ، ص ١ ، ٤٣٩ ؛ اتعاط ، طبعة
القدس ١٩٠٨ ، ص ٧٠ ؛ انظر ، حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام ، ص ٤٤٢ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ٨٠ — ٨٣ ؛ انظر ، حسن ابراهيم ، تاريخ الإسلام ، ص ٣
٤٤٥ — ٤٤٦ . كان الجرجرائى من جرجرايا قرية فى العراق . خدم فى دواوين الفاطميين
فى عهد الحاكم ، الذى أمر بقطع يديه لعقابه على عدم أمانته ، وذلك لإطلاعه على رسائل هذا الخليفة
دون إذن . وقد وزر الجرجرائى — بعد الحاكم — للظاهر والمستنصر وتوفى فى ٤٣٦/١٠٤٥ .
انظر ابن الصيرفى ، إشارة ، ص ٣٥ — ٣٧ ؛ مقرئزى ، خط ، ص ١ ، ٣٥٥ ؛ ص ٢ ، ٢٩٨ .
(٣) سورة ٢٠ آية ٢٩ — ٣٢ .

(٤) ابن القلانسى ، ص ٨١ .

كلمة (الموازرة) أى المعاونة ، حيث أن الوزير يعاون الخليفة فى أمره ؛ فى نفس السجل^(١) يقول الخليفة : « فساك بالوزير ، لموازرتك له على حمل الأعباء » . وكذلك كانت رتبة الوزارة — فى هذا السجل — جامعة أيضاً لرتبة (الوساطة) ، التى تُضاف إليها رتبة السفارة^(٢) ، كما ذكرنا آنفاً .

ومن جميع هذه المعانى تتكون « وزارة التنفيذ » ، أى الرتبة التى تشتمل على جميع أمور المملكة وتوكل متوليها — وكان غالباً من أرباب الأقلام — للسان الثمانى مباشرة بعد الإمام . فكان لهذا الأخير الإشراف على جميع تصرفات الوزير^(٣) ، الذى لم يكن له أى سلطة على أرباب المناصب السكبار من قبل الخليفة ؛ ولذلك فهو وزير ذو سلطة محدودة .

ولكن بعد سنة ٧٦٤ / ١٠٧٤ ، وهى السنة التى قام فيها بدر الجمالى^(٤) بوزارة مصر ، أخذت الوزارة معنى آخر غير الذى سبق . فى بعض الرسائل^(٥) ، الصادرة عن ديوان إنشاء الدولة الفاطمية فى ذلك العصر ، يظهر بدر كمنقذ للخلافة الفاطمية ، وحتى كوالد للخليفة المستنصر يلجأ إليه فى تصرف جميع الأمور . معنى هذا ، أن الوزارة تحولت إلى سلطة استبدادية ، وكان بدر « وزير سيف »^(٦) ، وبه بدأ استبداد وزراء السيوف . فقبل بدر — فى عصر الخليفة

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) Fagnan (al-Mawardi) , p 43 .

(٤) كان بدر مملوكاً أرمينياً للأمر السورى ، جمال الدولة بن عمار ؛ ومن ذلك جاء تلقيبه « بالجمالى » . وقبل دخول الوزارة ، عين حاكماً على دمشق مرتين ، ثم والياً على عكة . وقد استدعاه الخليفة المستنصر فى سنة ٤٦٦ / ١٠٧٣ ، لإخضاع القواد العصابة ؛ فأعاد بدر النظام ، وولى الوزارة . انظر . اشارة ، ص ٥٥ — ٥٦ ؛ ابن ميسر ، ص ٢٢ — ٣٠ ؛ مقرئزى ، خطط ، ص ١ ، ٣٨٠ وبعدها ؛ العيني ، عقد ، ٢٠ ورقة ٨٠١ ؛ انظر . Becker . Ency.de : Corpus, Inscription arabe, l'Egypte II, 32 , : Van Berchem: l'IsI, p.571-572 Gesch. der Fat. Chalifen, p 204, et suiv.: Wustefeld; 33,36 39; 516-518.

(٥) رسائل المستنصر : (٣٥) ورقة ١٥٥ — ١٥٧ .

(٦) ابن الصيرفى ، اشارة ، ص ٥٦ .

الحاكم — تولى « الوساطة » بعض أرباب السيوف^(١) ، ولكن السلطة العليا على الأمور بقيت دائماً في يد الخليفة ، الذى كان له حق التدخل فى شئون الدولة وتصريفها حسب إرادته .

ولكن منذ بدر ، تحولت وزارة السيف إلى وزارة تفويض^(٢) ، فكان الخليفة يفوض إلى وزيره جميع أمور الدولة لتصريفها ، ولم يعد له أى سلطة على هذه الأمور ؛ بل تطاول الوزير على سلطة الخليفة الدينية . فكان وزراء التفويض الفاطميين ، أشبه بأسماء القصر فى عهد الدولة الميروفنجية ، يتدخلون فى تولية الإمام وولى عهده^(٣) ؛ بحيث غدا هؤلاء لعباً بين أيديهم .

وقد عظم أمر وزراء السيوف وقويت شوكتهم ، نتيجة لضعف نفوذ وزراء القلم^(٤) ؛ فكان هؤلاء فى الفترة الأخيرة دائمى الصرف والإعادة ، ولا يتولون الوزارة إلا لمدة بضعة أيام . وفى خلال أربع سنوات ، تولى الوزارة أكثر من عشرين وزير قلم^(٥) ، مما يدل على فشل هذا النوع من الوزراء ، الذين كانوا

(١) نعرف من بين أرباب السيوف الذين تولوا الوساطة : برجوان فى ٣٨٧ — ٩٩٧/٣٩٠ — ١٠٠٠ (أنظر . يحيى ، ص ٤٥٣ و ٤٦٢ ؛ اشارة ، ص ٢٧ — ٢٨ ؛ مقرئزى ، خطط ، ص ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ صبح ، ص ٣ ، ص ٤٨٩) ؛ والحسين بن جوهر فى ٣٩٠ — ١٠٠٠/٣٩٨ — ١٠٠٨ (انظر . يحيى ، ص ٤٦٢ و ٤٨٨ ؛ الاشارة ، ص ٢٨ ؛ مقرئزى ؛ خطط ، ص ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ صبح ، ص ٣ ، ص ٤٨٩) ؛ وصالح بن على بن صالح الروزبارى فى ٣٩٨ — ٤٠٠/١٠٠٨ — ١٠٠٩ (أنظر . يحيى ، ص ٤٨٨ و ٤٩٢ — ٤٩٣ ؛ مقرئزى ، خطط ، ص ٢ ، ص ٢٨٥ ؛ صبح ، ص ٣ ، ص ٤٨٩)

(٢) رسائل المستنصر : (٣٤) ورقة ١٥٦ ؛ (٥٩) ورقة ٣٢٠ ؛ مقرئزى ، خطط ، ص ٤٣٩ .

(٣) نفسه : (٣٥) ؛ (٤٣) .

(٤) ابن ميسر ، ص ٣٢ — ٣٢ ؛ مقرئزى ، خطط ، ص ١ ، ص ٣٥٦ س ٢٠ ؛ صبح ص ٤٨٩ .

(٥) مقرئزى ، خطط ، ص ١ ، ص ٣٥٦ س ١٨ — ٢٠ ؛ انظر .

أضعف من أن يقرروا النظام في الدولة .

ولما كان الخليفة الفاطمي عاجزاً عن قمع الثورات التي ازدادت شدة بسبب ضعف وزرائه ، فإنه التجأ إلى بدر ، وإلى عكّة ، لينقذ عرش خلافته ، بإعادة القواد إلى الطاعة ؛ فأجاب بدر دعوة الخليفة ، ولقاء ذلك ، فوض إليه الخليفة جميع سلطانه ^(١) ، فأصبح رئيس الدولة الفعلي . فقد ورد في سجل تولية بدر : « وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تديبره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره ^(٢) . » فكانت سلطة بدر تمتد إلى كل شئ : فكل الأمور في المملكة ، مردودة إليه (فوض إليه أمور الملك) ^(٣) ، وهو أيضاً صاحب الحل والعقد في سائر الأمور ^(٤) ، وله أن يولي كبار موظفي الدولة ؛ فهو وزير ذو سلطة مطلقة . وقد كان لهذا الوزير ، صاحب السلطة المطلقة ، ألقاب تدل على سلطته الواسعة ، وهي الألقاب التي تميز رتبة الوزير الفاطمي في مصر .

وقبل أن نذكر ألقاب هذا الوزير ، سنشير إلى ألقاب الوزارة الفاطمية منذ بدايتها ؛ وقد حدث لها تطور ملموس في عهد الفاطميين ، في خصائصها التي تدل عليها .

فكان وزير التنفيذ يتلقب « بالوزير » ^(٥) ، تصحبه — كما ورد في سجل تولية الجرجاني — لفظة « الأجل » ^(٦) .

ولكن منذ بدر ، أصبح لوزراء التفويض ألقاب جديدة ، تستعمل للدلالة

(١) رسائل المستنصر : (٣٤) ؛ (٥٩) .

(٢) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٤٠ س ١٠ — ١١ .

(٣) رسائل المستنصر : (٣٤) ورقة ١٥٦ .

(٤) نفسه ؛ الماوردي ، أدب الوزير ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ١٠ ؛ الزويري ، نهاية

الأرب ، القاهرة ١٩٢٦ ، ص ٦٨ .

(٥) ابن القلانسي ، ص ٨١ ؛ مقرئزي ، خطط ، ص ٦٢ س ١٠ .

(٦) ابن القلانسي ، ص ٨١ .

على سلطتهم الواسعة ، التي جاءتهم عن طريق التفويض . فقد كان وزراء التفويض يجمعون في أيديهم جميع السلطات : المدنية والحربية والقضائية وحتى الدينية ؛ فكانت جميع الأمور بدون استثناء مستمدة من نفوذهم ؛ وها هي الألقاب التي تدل على اختصاصاتهم الواسعة ، في جميع أمور الدولة .

وكان أهم ما يختص به وزير التفويض لقب « أمير الجيوش »^(١) ، وهو لقب قديم ، كان يُطلق سابقاً على قائد الجيش الفاطمي في سوريا^(٢) . ولكن وإن تُلقب شيركوه — وزير تفويض العاضد آخر خلفاء الفاطميين — « بسُلطان الجيوش »^(٣) ؛ فذلك بسبب سيطرته على جيوش الخليفة الفاطمي ، وجيوش نور الدين أمير حلب ودمشق .

ثم إن وزير التفويض كان يتلقب بلقب « كافل قضاة المسلمين » ، وبلقب « هادي دعاة المؤمنين »^(٤) ؛ فكان هذان اللقبان يمنحان لوزير التفويض السلطة القضائية ، والسلطة الدينية ، والقيام بمنصب قاضي القضاة وداعي الدعاة . ولكن عملياً ، كانت العادة أن يستخلف الوزير في المنصبين نواباً عنه ؛ وكان هؤلاء النواب يستمدون نفوذهم من سلطته مباشرة . أما إذا كان وزير التفويض نصرانياً ، كما حدث مرة واحدة في ١٣١٥/٥٢٩ ، حينما اعتلى بهرام الأرمني

(١) رسائل المستنصر : (١٤) ورقة ٦٦ ؛ (١٦) ورقة ٧٩ ؛ (١٩) ورقة ٩٥ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٧٤ س ١٢ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ص ٢ س ١٣٥ .

(٣) أبو الفداء : (انظر . Rec. des Hist. des Crois. 1, p 41) ؛ صبح ، ١٠ .

ص ٦ و ٨٠ . كان أبو الحارث أسد الدين شيركوه ، في أول الأمر ، قائداً لنور الدين أمير حلب ودمشق ؛ وقد استدعاه الخليفة العاضد ، حينما حاصر الفرنج القاهرة . ولكن بعد انسحابهم ، عمل شيركوه في خدمة الخليفة الفاطمي ، ورفض الاستماع إلى نداءات نور الدين الحارث . وقد مات شيركوه بعد أن قام في الوزارة أكثر من شهرين ، في ٢٢ جاد الثاني ٥٦٤ (٢٣ مارس ١١٦٩) . انظر . عمارة ، ترجمة Derenbourg ، ص ٢ س ٣٩٦ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٣٥٨ ؛ ص ٢٣٣ و ٣٤٣ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق ، Popper ص ٣ س ١٠٠ ؛ أنظر . Wiet : Ency. de l'isl. 4, p. 396-7 .

(٤) رسائل المستنصر : (١٤) ؛ (١٦) ؛ (١٩) ؛ ابن ميسر ، ص ٢٦ .

وزارة الحافظ ، فإنه بطبيعة الحال لا يجمع المنصبين في سلطته العامة ؛ فكان الخليفة الحافظ إذاً ، يعين من قبله من يشغل المنصبين^(١) ؛ فيولى بنفسه قاضي القضاة وداعى الدعاة . ولقد أثار فقهاء ذلك الوقت معارضة شديدة في تولية بهرام ، لأنه كان على وزير التفويض — في بعض المناسبات — أن يصعد المنبر مع الخليفة ، وأن ينظر في سائر المناصب الدينية . وكذلك إذا كان وزير التفويض غير فاطمي ، كان الخليفة هو الذى يتكفل بتوليتهما^(٢) ، ولا سيما في العهد الأخير من الدولة ؛ فقد تدخل نور الدين بجيشه في شؤون مصر السياسية ، فكان وزراء الخليفة الفاطمي إذ ذاك من السنة . ومع ذلك ، فقد كان ينص على لقبى : « كافل قضاة المسلمين » و « هادى دعاة المؤمنين » ، في سجل تولية هؤلاء الوزراء من غير الشيعة^(٣) . ومن المحقق ، أن الجمع بين المنصبين والوزارة لم يتحقق إلا فى القليل النادر ، فهما إذا كانا قد ذُكرا فى سجلات تولية وزراء التنفيذ ، فلكونهما اضافيين إلى رتبة الوزير ، وليس لذاتهما^(٤) ؛ حيث كان المنصبان من اختصاص الخليفة . أما لقب « وزير » — الذى كان يطلق على وزير التنفيذ — فقد تركوه ، وإن بقيت لفظة « الأجل » ، التى كانت تصحبه ، لتكون نعتاً للقب الجديد : « سيد » ؛ فكان يقال : « السيد ، الأجل » بدلاً من « الوزير ، الأجل » . هذه الألقاب جميعها ، كانت لوزير التفويض ، منذ بدر حتى نهاية الدولة الفاطمية ؛ فكان يقال له : « السيد ، الأجل ، أمير الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين »^(٥) .

ولكن حدث لهذه الألقاب اضافات جديدة خلال هذه الفترة ؛ ففي وزارة

(١) ابن ميسر ، ص ٧٩ ؛ ابن حجر ، رفع ، ورقة ٨٦ — ٨٧ .

(٢) صبح ، ١٠ ص ٤٢٤ — ٤٣٤ ؛ ٤٣٤ — ٤٣٩ .

(٣) نفسه ، ١٠ ص ٨٠ ؛ ٦ .

(٤) ابن الصيرفى ، اشارة ، ص ٤٠ و ٤١ ؛ ابن ميسر ، ص ٨٤ ؛ ٥ .

(٥) رسائل المستنصر : (١٥) ؛ (١٩) ؛ (٢٠) ؛ (٢٧) ؛ (٣٧) ؛ (٤٦) ؛ (٥٣) ؛

(٦٣) ؛ (٦٤) .

أبي القاسم شاهنشاه (٤٨٧ — ٥١٤ / ١٠٩٤ — ١١٢١) ، ابن الوزير بدر ، أضيف لقب الأفضل ؛ فكان يقال له : « السيد ، الأجل ، الأفضل ، أمير الجيوش ، كافل قضاة المسلمين ، هادي دعاة المؤمنين »^(١) ؛ وصار يتلقب بهذا اللقب وزراء التفويض من بعده .

ولما وُزر رضوان بن ولحشى للحافظ ، في سنة ٥٣١ / ١١٣٧ ، حدثت زيادة جديدة في ألقاب الوزير . فلم تسكن الألقاب القديمة ، ولا خصائصها التي تدل عليها ، تكفي للدلالة على نفوذه الواسع ، ولذلك أضاف إلى بقية الألقاب ، لقب « ملك »^(٢) ؛ فكان يقال له : « السيد ، الأجل ، الملك ، الأفضل » . ومنذ ذلك الحين صار الوزراء من بعده يتلقبون به ؛ فتلقب الوزير طلائع بن رزيك (٥٤٩ / ١١٥٤) ، « بالملك المنصور »^(٣) ؛ وتلقب ابنه رزيك (٥٥٦ / ١١٦١) ، « بالملك

(١) نفسه : ٣٥ ؛ ٤٣ ؛ ٥٩ ؛ العيني ، العقد ، ٢٠ ورقة ٨٠١ . تولى أبو القاسم شاهنشاه ، الملقب بالأفضل ، الوزارة للخليفة المستنصر ، في أثناء حياة أبيه بدر . فلما مات هذا الخليفة في ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، أجلس الأفضل على عرش مصر المستعلي ، في ٤٩٥ / ١١٠١ ؛ وهو الابن الثاني للمستنصر ، لكي تسهل سيطرته على الدولة . وعند وفاة المستعلي ، في ٤٩٥ / ١١٠١ ، لم يضعف نفوذ الأفضل اطلاقاً ؛ فأجلس في الخلافة ، المنصور بن المستعلي ، وكان لا يزال طفلاً له من العمر خمس سنين ، ولقبه : بالأمر ؛ فاستمر الأفضل ، قرابة عشرين عاماً ، يحكم وحده في مصر . ولكن تحت تحريض الخليفة الشاب ، قتل الأفضل في رمضان ٥١٥ / ديسمبر ١١٢١ . انظر . نفسه ؛ ابن الصيرفي ، اشارة ، ص ٥٧ — ٦٢ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ص ٢٩٧ — ٣٧٧ ؛ مقرئزي ، خطط ١ ص ٤٢٣ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ورقة ١٥٤ — ١٥٨ ؛ انظر . Gesch. der Fat. Chalifen , : Wustenfild : Ency. de l'IsI. 1 , p 148-9. : Hurat p. 270 et suiv.

(٢) مقرئزي ، خطط ، ص ١ ، ص ٤٤٠ س ١٦ — ١٧ ؛ أبو الفدا ، Annales ، ص ٣ ، ص ٤٦٨ . كان رضوان بن ولحشى وزير الحافظ ، ثامن خليفة فاطمي في مصر ، قد استحوذ على كل السلطة في الدولة ، وأراد عزل الخليفة ، مما أدى إلى قتله في ٥٤٢ / ١١٤٧ . انظر . خطط ، ص ٣٥٧ س ٢٠ — ٢٧ ؛ ابن ميسر ، ص ٧٩ — ٨٧ .

(٣) تولى طلائع بن رزيك ، بعد قتل الظافر ، وزارة الخليفة الصغير الفائز ، في ٥٤٩ / ١١٥٤ . وقد استمر طلائع في منصب الوزارة ، حتى بعد موت الفائز في ٥٥٥ / ١١٦٠ ، وتولية ابن عمه الصغير العاضد ، آخر الفاطميين . ولكن تضييقه على نساء القصر ، أثار الدسائس ضده ، وعلى الأخص حقد عمه الخليفة ، مما أدى إلى قتله في ١٩ رمضان ٥٥٦ / سبتمبر ١١٦١ . انظر . عمارة تحقيق Derenbourg ، ص ١ ، ص ٣٣ وبعدها ؛ ابن ميسر ، ص ٩٤ وبعدها ؛ ابن اياس ، بدائع ، ص ٦٦ — ٦٧ ؛ مقرئزي ؛ خطط ، ص ٢ ، ص ٢٩٣ — ٤ . أنظر . Ency de l'IsI, 4, p 65. : Walker

العاذل»^(١)، وتلقب شيركوه (١١٦٩/٥٦٤)، «بالمملك المنصور»^(٢)، وتلقب آخرهم صلاح الدين (١١٦٩/٥٦٤)، «بالمملك الناصر»^(٣). وقد انتقل لقب «ملك»، الذي اتخذته الوزراء الفاطميون، إلى ملوك الدولة الأيوبية، ومن هؤلاء إلى خلفائهم المالكيين، الذين صاروا يتسمون به أيضاً. وفي رأى السيوطى، أن هؤلاء الوزراء — الملوك، يشبهون في سيطرتهم على خلفاء الفاطميين، البويهيين مع خلفاء العباسيين^(٤).

وفضلاً عن ذلك، نجد بعض المؤرخين ينعقونهم بلقب «سلطان»^(٥)، على الرغم من أن هذه التسمية لم تكن من ألقابهم. فنجد عمارة^(٦)، في قصائده، يصف الوزير طلائع بن رزيك، بالسلطان، وإن كان أكبر الظن أن هذه التسمية صادرة عن خيال الشاعر.

بجانب هذه الألقاب ذات المدلولات الواقعية، نجد ألقاباً أخرى رنانة، أغدقها الخلفاء على وزراء القلم والسيوف، لا تنطبق على معاني حقيقية، وإن دلت مع ذلك على التشريف^(٧). فكان ابن عمار، الذى قام بالوساطة فى ٣٨٦ / ٩٩٦،

(١) خلف رزيك أباه طلائع، ولكن قتله شاور، الذى استولى على الوزارة فى ٥٥٨ / ١١٦٣. انظر. عمارة، تحقيق Derenbourg، ص ٥٣ وبعدها؛ مقرئزى، خطط، ص ٣٥٨.

(٢) انظر. ما قبله.

(٣) جاء صلاح الدين، وزير الخليفة العاضد، إلى مصر فى صحبة عمه شيركوه، قائد نور الدين. وعلى أثر وفاة شيركوه، اتخذته الخليفة الفاطمى وزيراً، فى ٢٥ جماد الثانى ٥٦٤ / ٢٦ مارس ١١٦٩؛ فظهر صلاح الدين عداؤه لهذا الخليفة. انظر. مقرئزى، خطط، ص ٢٣٣ وبعدها؛ أبو شامة، كتاب الروضتين، ص ١٦٠ — ١٧٤؛ السيوطى، حسن، ص ٢، ١٢٣، انظر.

: Lane-Poole؛ Saladin, Ency. de l'Isrl. 4, p 87 - 92. : Sobern heim.
: Van Berchen؛ Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem.
Note sur les Croisades J. A. ,xix, p 383 et Suiv.

(٤) السيوطى، حسن المحاضرة، ص ٢، ١٧.

(٥) ابن ميسر، ص ٩٢؛ أبو شامة، كتاب الروضتين، ص ١٣.

(٦) عمارة، النكت، تحقيق Derenbourg، ص ٤٤ و ١٢٢، ترجمه ٢ ص ٩٤.

(٧) ابن ميسر، ص ٥٣.

أول وزير تلقب بألقاب تشريفية؛ فقد لقبه الحاكم بلقب « أمين الدولة »^(١)؛
ويقيننا أن هذا اللقب لم يكن له في ذلك الوقت أى مدلول سياسى . ومنذ ذلك
الوقت ، ووزراء الفاطميين يتهافتون على ألقاب الشرف ؛ فتلقب الوزير اليازورى
(٤٢٢ — ٤٥٠ / ١٠٥٠ — ١٠٥٨) ، بألقاب كثيرة منها^(٢) : « الناصر
للدين ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل ، الأوحد المسكين ، سيد الوزراء ، تاج
الأصفياء ، قاضى القضاة ، داعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين » .
فكان للوزير أن يخاطب بكل هذه الألقاب ، وأن يوقع بها على الكتب
النافذة عنه^(٣) .

وقد كانت الوزارة الفاطمية وزارة فردية ، لأن مصر — فى الواقع — لم تعرف
تعدد الوزراء فى ذلك العصر ، أو فى عصر المماليك ، كما كان الحال فى اسبانيا^(٤) .
فكان يُقام فى مناسبة تعيين الوزير ، احتفال كبير فى القصر ، يحاط بأبهة
وترف ؛ يحضره الخليفة أحياناً^(٥) ، إذا كان الوزير من وزراء السيف ؛
كما كان يدعى إليه كبار أرباب المناصب فى الدولة ورجال السيف ، وحتى ضيوف
الخليفة^(٦) . فكان الخليفة — إذا حضر الاحتفال — يأخذ بيده « سجل »
التولية الصادر عن ديوان الإنشاء ، وهو موضوع فى لفافة مذهبة ، ويقبله أمام
الحاضرين ، ليمنحه البركة^(٧) ؛ ثم يسلمه إلى صاحب ديوان الإنشاء ليقراه .
هذا السجل ، الذى كان ينشئه رئيس ديوان الإنشاء بنفسه ، كان يُصاغ

(١) نفسه ؛ ابن مسكويه ، تحقيق Caetani ، ليدن ١٩١٣ ، ص ٢٢٢ .

(٢) ابن الصيرفى ، إشارة ، ص ٤٠ — ٤١ .

(٣) نفسه ؛ ابن القلانسى ، ص ٨١ .

(٤) ابن خلدون ، مقدمه ، ص ٩ .

(٥) رسائل المستنصر : (٣٤) ، ورقة ١٥٦ — ١٥٧ ؛ (٥٩) ورقة ٣٣١ .

(٦) نفسه .

(٧) مقرئى ، خطط ، ١ ، ص ٤٤١ .

في عبارات معتنى بها، ومزوقة^(١). وفي بعض الأحيان، زيادة في تشريف الوزير، يكتب الخليفة في السجل بخط يده بعض الكلمات في مدح وزيره^(٢)، على الأخص إذا كان وزيراً قوياً، مثل بدر. وكان السجل^(٣) يشتمل — عادة — على ألقاب الوزير، وعبارات المدح، وأدعية خاصة به. وفي هذه المناسبة، تُرسل الكتب إلى سائر حكام الولايات في المملكة، واصفة حفلة تولية الوزير الجديد^(٤)؛ كما تقوم الدولة بتوزيع الدنانير والثيراب على الناس^(٥). وقد يذكر اسم بعض الوزراء أحياناً، في خطبة الجمعة مع اسم الخليفة^(٦)، أو ينقش على قطع النقود^(٧)، أو في الطراز (النسيج)^(٨).

وقد كان للوزير الفاطمي، علامات خاصة تميزه عن غيره من موظفي الدولة، تُمنح له في مناسبة تعيينه؛ وتسمى « خلع الوزير »^(٩)؛ وهي عبارة عن ملابس وأشياء أخرى. فكان الوزير ينفرد بلبس زى خاص يسمى (دُرَاعَة)^(١٠)، وهو ثوب قصير، مشقوق من أمام، إلى قريب القلب، مُحلى بعري وأزرار، قد تكون من ذهب مشبك، أو من لؤلؤ. كذلك، كان يضع على رأسه، عمامة ذات لفات عديدة (طبقات)، ينزل طرفها ليدور حول الحنك، على طريقة العدول

(١) ابن تغرى بردى، تحقيق Popper، ص ٣، ٦٤.

(٢) رسائل المستنصر: (٣٤)؛ السيوطي، حسن، ص ٢، ١٢٣.

(٣) ابن القلانسي، ص ٨٠ — ٨٣.

(٤) رسائل المستنصر: (٣٤)؛ (٥٩).

(٥) مقرزي، خطط، ١، ص ٤٤١.

(٦) رسائل المستنصر: (٣٤).

(٧) السيوطي، حسن، ص ٢، ١١٦.

(٨) مقرزي، خطط، ٢، ص ٦، ١٧؛ ص ٢٨٤، ٣٩.

(٩) نفسه، ١، ص ٤٤٠، ٢٩.

(١٠) نفسه، ١، ص ٤٤٠، ٣؛ أنظر. Suppl. I. p 434: Dozy.

في العصر الأيوبي^(١). وكان يتقلد بالسيف أيضاً^(٢).

ولكن من عهد بدر ، أصبح زى وزير التفويض يتفق وسلطانه الجديدة . فكان يُخلع عليه بالإضافة إلى زى وزير التنفيذ ، رداء صلب (الطيلسان المقور)^(٣) ، وهو من زى قاضى القضاة^(٤) . وكذلك ، أصبحت طريقة لف العمامة تتفق مع المنصب الجديد ، فُسمح له بترك (ذؤابة) عمامته مرخاة على ظهره ، إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف . وجعل له أيضاً العقد الجواهر عوضاً عن الطوق ، الذى كان يلبسه الوزراء من قبل^(٥) .

وكذلك ، كان يُحمل إلى الوزير فى حفلة تسميته ، دواة محلاة بالذهب^(٦) ، وهى من علامات الوزارة ، كما هى أيضاً من علامات الخليفة وبعض أرباب المناصب ، ترمز إلى سلطة الوزير الإدارية . وكان لها حاجب برسمها يحملها فى الأعياد الرسمية ، وفى مجالس الوزراء .

ومنصب الوزير يُحاط برسوم عديدة ، لمكانته الخطيرة فى الدولة . فكان الوزير يستلم كل شهر راتباً يبلغ خمسة آلاف دينار — وهو أكبر راتب فى الدولة^(٧) —

(١) مقريرى خطط ، ١ ص ٤٤٠ س ٢ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٤٤٠ س ٣٤ ؛ انظر . إشارة ، ص ٥٩ .

(٣) لفظه « طيلسان » معناها طرحه (أنظر . Dozy : Vet, p 279) . ولعلها تحريف الكلمة الفارسية « طالش » أو « طليشان » ، أو أصلها من الكلمة العبرية (طالش) أى خلعة . (أنظر . Reuben Levy : Notes on Costume from Arabic Sources, J. R. A. S. Avri, 1935 p. 334 note 5) . أما لفظه « المقور » فعناها صلب (أنظر . Suppl 2, p. 418 . : Dozy

(٤) مقريرى ، خطط ، ١ ص ٤٤٠ س ١٣ ؛ أنظر . Hist. de l'Org. Jud. : Tyan, en Pays .d' Islam, 1, p. 305.

(٥) خطط ، ١ ص ٤٤٠ س ١٢ . كان التشرىف بالعقد والطوق ، غير معروف عند العرب ، وإن عرف فى العصر العباسى أيام المعتصم (Annales : Tabari ، ٣ ، ١٢٣٣ و ٢٠٤٠) وأيضاً فى الغرب . انظر ابن عذارى ، بيان ، القاهرة ، ١ ص ١٢٣ ؛ Canard : Suli ، ترجمة ، ملاحظة ٦ ص ٥٨ .

(٦) مقريرى ، خطط ، ١ ص ٤٤٠ س ٥ ؛ ص ٤٤١ س ٦ .

(٧) صحح ، ٣ ص ٥٢٥ ؛ مقريرى ، خطط ، ١ ص ٤٠١ س ٢٤ — ٢٥ .

ومقررات عينية وكسوات، في أوقات معلومة^(١). كذلك كان يُصرف لأفراد أسرته،
رواتب نقدية وعينية وكسوات^(٢). وكان للوزير حاشية من الخدم والحرس والحجاب،
يحيطون به في المواكب العامة^(٣). وقد كان من رسوم مواكبه أيضاً، التي
تصحبه في جميع تنقلاته، الطبل والبوق والبنود^(٤). كذلك كان له مكانة الشرف بين
الحاضرين، في حفلات القصر الرسمية، فهو وحده له حق الجلوس على (مخدة)^(٥)،
توضع بجوار الخليفة؛ أما بقية أرباب الوظائف وأعيان الدولة، فإنهم يبقون وقوفاً
في أماكنهم المقررة.

أما ما يتعلق بمجالس الوزير، فإنها كانت تعقد في قصر بني خصيصاً
للوزارة، يُعرف باسم «دار الوزارة الكبرى»؛ وهو يقع في شمال القاهرة، بجوار
«باب النصر»^(٦)، ويشمل عدة قاعات منها: «قاعة البحر»^(٧)، «وقاعة
السر»^(٨)، «وقاعة البستان»^(٩)، وأخرى غيرها. فكان مجلس الوزير في
طريقة عقده، لا يقل بذخاً وعظمة عن مجلس الخليفة نفسه.

(١) مقرزى، خطط، ١، ص ٤١٣ س ٤ و ٥.

(٢) نفسه، ص ٤١٣ س ٨؛ ٤٤٢-٣؛ صبح، ٣، ص ٥٢٥.

(٣) صبح، ٣، ص ٥٠٧؛ مقرزى، خطط، ١، ص ٤٤٢.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ١، ص ١٥٧.

(٥) مقرزى خطط، ١، ص ٣٨٦ س ٢٠-٢١؛ صبح، ٣، ص ٥٠٠.

(٦) مقرزى، خطط، ١، ص ٤٣٨-٤٣٩؛ صبح، ٣، ص ٥١٥-٥١٦؛

انظر: Ravaisse: Essai, III, 2, p 50, 63. لقد كانت هذه الدار يقال لها «الدار
الأفضلية» نسبة إلى الوزير الأفضل، الذي بناها. وما زال وزراء الدولة الفاطمية من أرباب
السيوف من عهد الأفضل، يسكنون بدار الوزارة هذه، إلى أن زالت الدولة. وفي الحق، إن أول
دار بنيت للوزارة، أنشأها الوزير يعقوب بن كلس، في عهد الخليفة العزيز؛ فكانت مكاناً
لوزراء التنفيذ، إلى أن جاء بدر. ولكن فيما بعد، عرفت هذه الدار، بدار الديباج، لأنه
صار يعمل فيها الحرير (الديباج). انظر: خطط، ١، ص ٤٦٤؛ ٢، ص ٣٢؛ Ravaisse:
Essai, III, 2, p 50.

(٧) عمارة النكت، تحقيق Deren bourg، ١، ص ٦٣ س ١٣.

(٨) نفسه، ١، ص ٧٤ و ٨٧.

(٩) نفسه، ١، ص ٦٦ س ٩.

بقي علينا الآن ، أن نتحدث عن طريقة اختيار الوزراء في العصر الفاطمي ،
فقد اشترطت الكفاية والقدرة ، فيمن يضطلع بأعباء المنصب ، وأثبت الخلفاء
حداقة فائقة في اختيار وزراءهم .

فكان الخلفاء الفاطميون يختارون وزراءهم من بين المهرة في تدبير الأموال ،
وذلك لأهمية الموارد المالية في الدولة الإسلامية في العصور الوسطى . فنجد من
بين الوزراء الفاطميين ، عدداً كبيراً من أهل الذمة : نصارى ويهود ، لممارسة هؤلاء أمر
المال بمهارة ، في ذلك الوقت ^(١) . ولما كان الفاطميون يعطفون على رعاياهم من أهل
الذمة ، فإن بعض وزراءهم من غير المسلمين ، كانوا يبقون على عقيدتهم النصرانية
حتى بعد توليتهم الوزارة ، بل لم يتميدا الخلفاء بالمبدأ العام ^(٢) الذي كان يستجيز
اختيار وزير التنفيذ من بين أهل الذمة : نصارى ويهود ، ولا يستجيز ذلك
في وزير التفويض ؛ فقد عين الخليفة الحافظ بهرام الأرمني النصراني ، وزيراً
للتفويض ، في (٥٢٩ - ٥٣١ / ١١٣٤ - ١١٣٧) .

كذلك كان لموظفي الدولة ، على اختلاف درجاتهم وتفاوت طبقاتهم ،
الحق في الوصول إلى هذه الرتبة ، إذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب .
فقد أسندت الوزارة إلى الجرجاني ، لأنه كان عارفاً بدقائق دولاب أعمال

(١) منهم عيسى بن نسطورس (٣٨٣ - ٣٨٧ / ٩٩٣ - ٩٩٧) في عهد العزيز ؛
ثاني خليفة فاطمي في مصر . انظر . يحيى ، ص ، ٤٤٢ ؛ اشارة ، ص ، ٢٥ ؛ سيوطي ، حسن
٢ ص ١١٦ ؛ مقریزی خطط ، ٢ ص ٢٨٤ س ٣٣ . وفهد بن ابراهيم (٣٩٠ -
٣٩٣ / ١٠٠٠ - ١٠٠٣) انظر . يحيى ، ص ، ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٤٦٤ ؛ اشارة ، ص ، ٢٨ ؛
مقریزی ، خطط ، ٢ ص ٢٨٥ س ٢٣ - ٢٤ ؛ ٢٨٦ س ١ - ٢ . والنصور بن عبدون
(٤٠٠ - ٤٠١ / ١٠٠٩ - ١٠١٠) انظر . يحيى ، ص ، ٤٩٣ و ٤٩٩ ؛ مقریزی ، خطط ،
٢ ص ٢٨٧ و ٢٨٩ و ٢٩٠ . وزرعة بن نسطورس (٤٠١ - ٤٠٣ / ١٠١٠ - ١٠١٢)
انظر . يحيى ، ص ، ٤٩٩ و ٥٠٧ ؛ اشارة ، ص ، ٢٨ ؛ مقریزی ، خطط ، ٢ ص ٢٨٧ س ٢٢
و ٢٣ و ٢٤ . هؤلاء الوزراء الثلاثة الآخرون تولوا جميعهم في عهد الحاكم ، ثالث خليفة
فاطمي ، وكان هناك أيضا وزراء غيروا عقيدتهم مثل ابن كلس ، الذي كان يهوديا واعتنق الإسلام .
انظر . قبله .

المملكة^(١) على الخصوص ؛ كما نجد في القرن الأول من الحكم الفاطمي وزراء من مختلف الأنواع منهم : الكتاب والقواد والقضاة والولاة والحجاب . ولكن في القرن الثاني ، كان جل الوزراء الفاطميين من بين حكام الولايات الإداريين ، ولعل ذلك راجع إلى ازدياد نفوذ حكام الولايات ، وضعف سلطة الخليفة ؛ فمثلا ، كان بدر والياً على دمشق^(٢) ؛ ورضوان والياً على الغربية^(٣) ؛ وابن سلالر والياً على الإسكندرية والبحيرة^(٤) ؛ وطلائع والياً على قوص^(٥) ؛ وشاور والياً على الصعيد الأعلى^(٦) . ويبدو أن ولاية قوص في ذلك الوقت أصبحت ذات مركز خاص في الدولة ؛ فكانت أكبر منصب بعد الوزارة^(٧) .

وقد اشترط أيضاً فيمن يتولى منصب الوزارة الإخلاص لعقيدة الدولة ، لأن الدولة الفاطمية كانت ترتكز في أساس بنائها على المبادئ الشيعية ؛ فلم يكن بد من أن يكون الوزير الذي يحتل المكان الثاني بعد الخليفة ، شيعياً أو على الأقل من أنصار عقيدة الدولة . ولكن لم يخل الأمر من اقضاء بعض الوزراء الفاطميين عن منصبهم ، أو حتى قتلهم ، وذلك لأنهم على غير مذهب الدولة^(٨) .

-
- (١) ابن القلانسي ، ص ٨١س ٦ - ٧ .
(٢) وزير الخليفة المستنصر في (٤٦٧-٤٨٧/٥٤٢-١٠٧٤-١٠٩٤) . انظر . قبله .
(٣) وزير الخليفة الحافظ في (١١٣٧-١١٤٧/٥٤٢-٥٣١) . انظر قبله .
(٤) وزير الخليفة الظافر في (١١٤٨-١١١٥/٥٤٧-٥٤٣) . انظر . ابن ميسر ، ص ٨٩-٩٢ ؛ ابن منقذ ، تحقيق Hitti ، ص ٧ - ٨ ؛ مقریزی ، خطط ، ص ٢٠٣٠ .
(٥) وزير الفائز والعاقد في (١١٥٤-١١٦٠/٥٥٦-٥٤٩) . انظر . قبله .
(٦) وزير العاضد في (١١٦٣-١١٦٩/٥٦٤-٥٥٨) انظر . عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ص ٦٧ وبعدها ؛ مقریزی ، خطط ، ص ٣٥٨ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ص ٦٧-٦٩ ؛ Wiet - 52 : p, 351 ، 4، Ency. de l'Is.
(٧) أبو الفدا ، Annales ، ص ٣ ، ٥٨٦ .
(٨) إشارة ، ص ٤٥٥ . مثلاً حدث ليازوري في ٤٥٠ / ١٠٥٨ ، في عهد المستنصر (انظر . أبو الفدا ، Annales ، ص ٣ ، ١٧٢ ؛ ابن ميسر ، ص ٨) ؛ ولعل بن الأفضل ، وزير الخليفة الحافظ ، في ٥٢٦ / ١١٣١ . انظر . مقریزی ، ص ١ ، ٣٥٧ ؛ ابن ميسر ، ص ٧٥ وبعدها ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ورقة ٢٨٦ - ٧ .)

الفصل الثالث

الإدارة

الأصول — الإدارة المركزية — الإدارة المحلية

تنقسم وظائف الدولة الفاطمية — كما في غيرها من الدول الإسلامية الأخرى — إلى وظائف « الأقسام » ووظائف « السيوف » . فيجمع القسم الأول النظم الإدارية والدينية^(١) ، ويشتمل الثاني على النظم الحربية ؛ وإن لم يوجد حد فاصل بين الوظائف الإدارية والدينية ، لأن السواد الأعظم من الموظفين إداريين ودينيين ، كانوا يمارسون النوعين دون تفرقة . وسنعرض للأشكال الثلاثة بالتوالي : إدارية ودينية وحربية .

الأصول : الموظفون — تعيينهم — طبقاتهم — اختيارهم .

والنظام الإداري في مصر في أيام الفاطميين ، هو الميراث المباشر للنظام الإداري العباسي ، الذي يمتد بأصوله إلى النظم الإدارية في القرون السابقة على الفتح العربي في ٦٤٢ / ٢١ . وقد تأصلت هذه النظم — ذات الطابع السني —

(١) صبح ، ص ٤٨٦ و ٤٨٩ .

رسوخاً قبل مجيء الفاطميين ، في عهد الدولتين شبه المستقلتين : الطولونية والإخشيدية ، اللتين أبقتا على النظم الإدارية العباسية .

غير أنه بمجيء الفاطميين ، استقلت مصر استقلالاً تاماً ؛ فقد كان حكامها — حتى ذلك الوقت — ولاية معينين من قبل الخلافة العباسية ، أما الآن فقد أصبحوا خلفاء منافسين لخلفاء بغداد ، وصارت القاهرة — عاصمتهم ومركز بلاطهم — مقر خلافة واسعة ؛ وإن كانت هذه الخلافة شيعية ، ذات عقيدة مخالفة للعقيدة السنية العباسية . فهل ياترى تغيرت النظم الإدارية في مصر لتتوافق مع العقيدة الدينية الجديدة ؟ . في الواقع أن النظم الإدارية بقيت — كما كانت سابقاً — محتفظة بطابعها السني الذي تأصل في البلاد ، فلم تعد تتأثر بمبادئ الدولة الجديدة . هذا وإن النظم الإدارية في ذاتها ، غير قابلة بطبيعتها لتأثير العقيدة الدينية فيها .

ولكن الفاطميين — ولا ريب — عملوا على زيادة تركيز زمام السلطة الإدارية في أيديهم ، لاستكفاء مصالح حكومتهم المستقلة استقلالاً تاماً ، ومصالح امبراطوريتهم الواسعة ؛ فأصبحت السلطة الإدارية في القاهرة ، لها الإشراف على كل ما يمس إدارة البلاد والإمبراطورية . وهكذا في أيام الفاطميين ، كان النظم الإداري شديد المركزية ، تدار شئونه من القصر ^(١) .

(١) مقرىزى ، خطط ، ١ ص ٤٢٦ س ٢٣ . ولكننا نجد أن دواوين الإدارة نقلت ثلاث مرات من القصر إلى دور الوزراء : في أيام الوزير ابن كلس (٣٦٨ — ٣٨٠ / ٩٧٨ — ٩٩٠) ، وزير العزيز . (انظر . نفسه ، ١ ص ٦ س ٢٠ ؛ ١٤ ص ٨٢) ؛ وفي أيام المسعود بن طاهر الوزان ، الذى تولى وساطة الخليفة الحاكم ، في ٤٠٩ / ١٠١٨ (انظر . ابن الصيرفى ، إشارة ، ص ٣٣) ؛ وفي أيام الأفضل الذى نقل الدواوين إلى « دار الملك » في ٥٠١ / ١١٠٧ (انظر . مقرىزى ، خطط ١ ص ٤٢٦ و ٤٨٣) ؛ ورغم ذلك ، فقد عادت هذه الدواوين إلى القصر فى كل مرة ، بعد موت الوزير .

وكانت الإدارة في عهد الفاطميين، تُدار كما كان سابقاً، بواسطة الدواوين، التي كان يُطلق على وظائفها اسم « الوظائف الديوانية »^(١). وكلمة « دواوين » من أصل فارسي^(٢)، مفرداً ديوان، اتخذتها الإدارة الإسلامية منذ نشأتها لتتبدل على سجلات الدخل والخروج، وفيما بعد لتتبدل على المكان الذي يعمل فيه أرباب الوظائف المالية، وأخيراً أُطلقت على جميع فروع الإدارة. وقد كانت شئون الإدارة الرئيسية في الدولة الفاطمية في مصر — كما في غيرها من الدول الإسلامية — على ثلاثة أنواع: ديوان الإنشاء الذي يقوم بتنفيذ أوامر السلطة العليا؛ ودواوين المالية التي تقوم بحماية الأموال وانفاقها؛ والإدارة المحلية التي تحكم الولايات. كذلك كانت هذه الدواوين الرئيسية تنقسم بدورها على نفسها إلى عدة دواوين، لكل منها عمل معين.

وكانت دواوين مصر المستقلة، سيدة امبراطورية واسعة، تحتاج إلى عدد كبير من الموظفين، الذين يؤخذون على الأخص من بين طبقة تعرف « بالكُتّاب ». ففي مصر الإسلامية — كما في مصر الفرعونية — كانت صناعة القلم، هي المهنة الأولى في الدولة؛ كما أن حذق الكتابة كان يؤهل إلى أكبر وظائف الدولة، حتى منصب الوزارة. فكان « السكاتب » عماد النظام البيروقراطي المصري، يقوم بالدور الرئيسي في إدارة البلاد.

وقد بقي جوهر طبقة الموظفين في عهد الفاطميين، على ما كان عليه قبل مجيئهم مصر، تتكون في الأصل من المصريين أهل البلاد، وبخاصة من أهل الديمة. ولكننا نظن مع ذلك، أنه بمجيء الفاطميين، تغير على الأقل نظام شغل الوظائف الكبيرة الإدارية، فكان لا بد أن يكون الموظفون الكبار

(١) صبيح، ٣ ص ٤٨٦.

(٢) مقرئزي، خطط، ١ ص ٩١؛ ابن خلدون، مقدمة، ٢ ص ١٦.

في الدولة الجديدة ، من الشيعة المخلصين لعقيدة الدولة . ويحدثنا المقرئ^(١) بأن القائد جوهر ، عند وصوله مصر ، لم يدع عملاً إلا جعل فيه مغرباً شريكاً لمن فيه ؛ فكان المغاربة يشتركون مع المصريين في إدارة شئون البلاد . ولعل الفاطميين اضطروا ، حينما لم تكن دولتهم قد استقرت بعد في مصر ، أن يُظهروا عطفهم على المغاربة ، لأن هؤلاء أسهموا بنصيب وافر في قيام دولتهم في إفريقيا ، ولأنهم أيضاً من أتباع الدولة الفاطمية المخلصين ؛ فكان اسناد الوظائف الكبيرة إلى المغاربة ، وسيلة — ولا ريب — لتقوية سلطانهم في البلاد . وبقيننا ، أن المغاربة لم يبقوا في كل فروع الإدارة طول مدة حكمهم في مصر ، ولم يلعبوا دوراً يذكر إلا في أوائل حكم الدولة ؛ ذلك لأن البربر كانوا يجهلون دقائق الإدارة المصرية ، وكانت حضارتهم أقل من حضارة المصريين ؛ فلم يكن مجال عملهم في عهد الفاطميين ، إلا في الإدارة المحلية بالولايات^(٢) ، لأن الإدارة المركزية : مالية أو إنشاء ، تحتاج إلى مهارة كبيرة .

وعلى ذلك ، بقي موظفو الدواوين يختارون من المصريين ، وعلى الأخص من أهل الذمة ، الذين كانوا يكونون غالبية كبرى في الدواوين^(٣) . ولدينا أمثلة تاريخية مباشرة ، تشير إلى استخدام القبط واليهود بكثرة ، في مختلف دواوين الدولة ، طيلة حكم الفاطميين في مصر . فلم يبق أهل الذمة ، كما كانوا سابقا ، في دواوين مالية مصر وحدها ، وإنما صاروا في جميع فروع الإدارة ؛ فازداد عددهم على الأخص في دواوين الإنشاء والمالية^(٤) ، التي تحتاج إلى تخصص كبير .

(١) اتعاظ ، ص ٨٧ ؛ حسن ابراهيم ، المجلد ، ص ١٧٢ .

(٢) يحيى ، ص ، ٤٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٥٠٩ — ٥١٠ .

(٤) السبوطي ، حسن ، ص ٢ ، ص ١٣٦ س ٧ ؛ انظر . Becker . Ency . de l' Isl-

(art. L'Egypte), II p. 8. يظهر واضحا من كلام ابن الصيرفي في كتابه « قانون ديوان

وقد شجع أهل الذمة على العمل في الدواوين في ذلك العصر، ما امتاز به الفاطميون من التسامح الديني، نحو رعاياهم من غير المسلمين. فنلاحظ في ذلك العصر، وجود بعض الذميين الكبار، الذين اعتنقوا الإسلام صراحة أو بقوا على ملتهم، في أعلى مناصب الإدارة، أو حتى في رتبة الوزير، رئيس كل الإدارة في البلاد^(١)؛ وقد تلقبوا بأعلى الألقاب، واحتازوا الأموال الكثيرة. ولكن يبدو أن الموظفين من أهل الذمة من قبط ويهود، انتهزوا تسامح الفاطميين معهم، فأساءوا استخدام مناصبهم، للتحكم في المسلمين وإثارتهم؛ فنجد أحد الشعراء^(٢) يصف وصول الذميين وعلى الأخص اليهود إلى أعلى المناصب، فيقول:

« يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم، والمال عندهم، ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر! إني نصحت لكم تهودوا، قد تهود الفلك »

ومع ما في هذا القول من مبالغة، إلا أنه يعكس لنا صورة استخدام الذميين في الدواوين بكثرة، واستحواذهم على أعلى مناصب الدولة؛ مما كان له رد فعل عند المتعصبين من المسلمين. وقد أثارت هذه الحالة حفيظة المسلمين على الموظفين من أهل الذمة؛ فكان كلما جاء خليفة متعصب، عمل على الحد من نفوذ موظفي الدواوين من غير المسلمين. فكان الخليفة الحاكم الذي عرف بتقلباته، ينتقم من الكتّاب النصارى بتعذيبهم^(٣)، فقد فرض عليهم حمل علامات

= الرسائل « تحقيق على بهجت، القاهرة ١٩٠٥؛ وترجمة Massé في (B. I. F. A. O XI)، 1914 تحت عنوان « Code de la Chancellerie d' Etat » أن الموظفين القبط كانوا كثرة في ديوان الإنشاء وغيره من الدواوين.

(١) يحيى، ص ٤٤٢ و ٥٣٤ و ٩٣٤؛ ابن القلانسي، ص ٣٣؛ أنظر. Jacob Mann : 'Culturgeschichte, 1, p188. : Kremer ; The Jews in Egypt and in Palestine, p16 The Califs and their non - muslim subjects, p 28. : Triton

(٢) ابن ميسر، ص ٢؛ أنظر. Mann : The jews p, 16

(٣) يحيى، ص ٥١١؛ أنظر. Die Renaissance : Mez. ترجمة أبي ريده، ص ٩٣.

شائمة^(١)، ليميزهم من الموظفين المسلمين؛ فكان النصارى واليهود يعقدون «الزنانير» في أوساطهم، ويلبسون العمام السود على رؤوسهم. وهكذا كان عهد التسامح الفاطمي، ينقلب فجأة إلى تعصب ممقوت، كما ظهر خليفة ذو نزعة دينية شديدة، مما ميز ذلك العصر. ولكن وإن كانت مثل هذه السياسة الرجعية، في التسامح والتعصب مع أهل الذمة، قد اتبعتها كثير من حكام مصر، سابقين أو لاحقين على الفاطميين؛ فإن حكام مصر عموماً — فاطميين وغير فاطميين — أدركوا أنه ليس في الاستطاعة الاستغناء عن خدمات موظفيهم من غير المسلمين؛ وقد أدى إلى هذه السياسة الواقع العملي في الإدارة المصرية في العصور الوسطى؛ حيث كانت الإدارة في حاجة إلى كفايات خاصة في أمر المال والقلم، لا يقوم بها إلا أهل الذمة من أهل البلاد. فالخليفة الحاكم — رغم نزعته التعصبية — يحاول تحويل أرباب الوظائف من النصارى إلى الإسلام، بدلاً من طردهم، مما يدعو إلى الظن بأن هذه السياسة ضد أهل الذمة، كانت ترى قبل كل شيء إلى تهدئة المسلمين.

ومع ذلك كان مظهر التعصب ضد موظفي الدواوين — أحياناً — لا يقف عند وجود خليفة مستبد، ولكن أيضاً عند وجود وزير قوى، يغير موظفي الدولة حسب هواه. فابن عمار^(٢)، الذي تولى في ٣٨٦ / ٩٩٦ وساطة الحاكم، أدخل برابرة كتاميين في دواوين الإدارة، وكفل لهم الوظائف الرئيسية، حتى يتمكن بواسطتهم من السيطرة على البلاد؛ والوزير النصراني بهرام، الذي ولي وزارة الحافظ في (١١٣٥ / ٥٢٩)^(٣)، حابي النصارى من ملته في دواوين الدولة، مما أثار ضده

(١) يحيى، ص ٤٦٨.

(٢) نفسه، ص ٤٥٣.

(٣) ابن ميسر، ص ٧٨ — ٧٩؛ ابن الأثير، ١١، ص ٣١؛ أبو الفدا،

Annales، ٣، ص ٤٦٨.

المسلمين ؛ وأخيراً ، نجد شيركوه ، الذي ولى وزارة العاضد في ٥٦٤ / ١١٦٩ ،
يعمد إلى فصل جميع الأقباط من خدمة الحكومة ^(١) .

على كل حال ، كان هؤلاء الموظفون يتبعون السلطة التنفيذية ،
ويتقلدون سلطتهم مباشرة من قبل الخليفة . ولكن لما ضعفت سلطة الخليفة ،
كان لوزير التفويض التصرف المطلق في الشؤون الإدارية ، كما كانت السلطة
القضائية والحربية داخلة ضمن اختصاصه ؛ فكان ينوب عن الخليفة ، في تقليد
كبار موظفي الإدارة المركزية والمحلية وظائفهم .

أما جملة الموظفين من درجة أقل ، وهم الذين يملئون الدواوين ، فكان
يقوم باختيارهم كبار الموظفين المقلدين ، وإن كان من حق الوزير ، سواء أكان
وزير تنفيذ أم وزير تفويض ، التدخل في هذا الاختيار ، لعموم نظره في كل
شئون الدولة ؛ فكان بعض الوزراء ، يغيرون الموظفين في الإدارة ، حسب
هوامم ^(٢) ، كما أشرنا من قبل .

وقد كانت كتابة تقاليد الموظفين — الكبار والصغار — تستلزم وجود
كاتبين : أحدهما يقوم بإنشاء التقاليد الخاصة بتولية كبار الموظفين ^(٣) ، والثاني
يقوم — بجانب مكاتبه أمراء الدولة وكبرائها — بإنشاء سجلات تولية صغار

(١) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ، ص ٣٧٠ ؛ انظر أهل الذمة في الإسلام، تأليف
Tritton ، وترجمة حسن حبشي ، ص ٣١ .

(٢) يحيى ، ص ٤٥٣ ؛ ابن ميسر ، ص ٨٢ .

(٣) ابن الصيرفي : Code, p. 96 - 97 ؛ صبيح ، ١ ص ١٣٠ ؛ انظر .

الموظفين^(١) . ولكثرة أعمال هذا الأخير ، أُضيف إليه مساعد ، يعاونه في عمله^(٢) .

وكان الموظفون يتفاوتون في درجاتهم حسب المناصب التي يلونها ، وإن أُطلق عادة على كل موظف في الدواوين ، كلمة « كاتب » ؛ ولكن المقرئ^(٣) ، في خطه ، يذكر عبارة « الكتاب العوالي » ، مما يدل على وجود نظام طبقى بين موظفي الدولة . ولكننا لا نظن بوجود سلم للترقى في ذلك العصر ، بمعنى أن شخصاً يدخل في الدواوين ، في أول درجة في وظيفة « كاتب » صغير ، فيصعد سلم الترقى تدريجياً ، حتى يصل إلى أعلى منصب في الإدارة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد وصل إلينا ، أن عدداً من الكتاب أصبحوا رؤساء لدواوين المالية والإنشاء ، وأن بعضهم نال رتبة الوزارة نفسها . فهذا الترقى إلى المناصب العليا — في واقع الأمر — راجع إلى الحظ أو إلى رضا الخليفة أو الوزير .

وقد كان لكبار أرباب الوظائف الديوانية ألقاب شرف يمنحها لهم الخليفة ، تميز منها على الخصوص لقب « الشيخ » ، الذي كان يُنعت بلفظة « الأجل » ؛ فيشير المقرئ^(٤) بهذا اللقب إلى رئيس ديوان الإنشاء .

وكانت لهذه الطبقة أيضاً ملابس خاصة^(٥) ، تتميز بها عن غيرها من الطبقات ؛ فكان كبار الموظفين في العصر الفاطمي ، يلبسون على رؤوسهم

(١) ابن الصيرفي ، Code, p101 ؛ صبح ، ١ ص ١٣٠ ؛ انظر .

Beitrag p 21. Björkman

(٢) ابن الصيرفي ، Code. Bull, p.301 ؛ صبح ، ١ ص ١٣٢ ، انظر .

Beitrag p. 21 : Björkman

(٣) خطط ، ١ ص ٤٧٥ س ٢٩ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٤٠٢ .

(٥) صبح ، ٣ ، ص ٤٩٠ .

عمائم كبيرة ضخمة ، لا يلبسها إلا أرباب الأقاليم ، وكان يطلق على الذين يلبسونها « أصحاب العمائم »^(١) .

وكذلك كان لكبار الموظفين علامات ، تمنح لهم عند تعيينهم ؛ وتتفق وطبيعة عملهم^(٢) ؛ فكان يقدم للموظف المعين هدايا عديدة ، من بينها الدواة التي ترمز إلى وظيفته الديوانية . وهذه الدواة كانت أيضاً من علامات الخليفة والوزير وحتى قاضي القضاة الذي كانت دواته من أخص الدواوي ، إذ كان لها كرسى توضع عليه ؛ تمييزاً لرتبته السامية^(٣) . وكانت من بين علاماتهم أيضاً « المرتبة » العظيمة بالحجاد والمسند أو بدونهما ؛ حسب درجة الشخص المعين . وكان لهم أيضاً الحجاب والفراشون والأستاذ ، وهم يصحبونهم في أثناء العمل ، أوفى الحفلات الرسمية ، حسب تفاوت المنصب .

فكان « لصاحب ديوان الإنشاء » المرتبة العظيمة بالحجاد والمسند ، والدواة من غير كرسى ، والحجاب ؛ وكان أستاذ من عند الخليفة يحمل له الدواة حين مجيئه القصر^(٤) . وكان لصاحب « نظر الدواوين » ، وهو رئيس الإدارة المالية ، الجلوس بالمرتبة والمسند ، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ، وتخرج له الدواة من خزانة الخليفة بغير كرسى^(٥) . وكان لصاحب « ديوان التحقيق » ، وتلحق وظيفته بوظيفة نظر الدواوين ، المرتبة والحجاب فقط دون الدواة^(٦) ، وذلك إما لأن عمله لاحق بعمل صاحب الدواوين^(٧) ، وإما لأن الدواة كانت من ضمن

(١) مقریزی ، خطط ، ١ ص ٤٦٩ س ٣٧ ؛ انظر . بعده .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٠ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٤٩٣ .

(٦) نفسه ؛ مقریزی ، ١ ص ٤٠١ .

(٧) نفسه .

الخلع ، كما هو مفهوم ضمناً . وأخيراً ، لم يكن « لصاحب ديوان المجلس » ، وهو المشرف على خزانة الخليفة ، سوى الدواة والحاجب ^(١) .

أما عن اختيار موظفي الإدارة ، فقد أثبت خلفاء الفاطميين أنهم إداريون مهرة ؛ فنحن نعرف أن المعز ^(٢) أول خليفة فاطمي ، أقام في دواوين القاهرة أشخاصاً ذوي خبرة . وكان النظام السائد طيلة العصر الفاطمي ، ملء وظائف الإدارة المركزية ، بأشخاص يُختارون من بين الأسر ، التي كان أفرادها يعملون من قبل في خدمة الدولة . ونلاحظ أيضاً باهتمام شديد ، أن الموظفين في مصر ، في أثناء العصور الوسطى ، يتنوعون حسب طبقتهم الاجتماعية : فكان الابن يشغل وظيفة أبيه ، ويقوم بنفس العمل الذي كان يقوم به أبوه ^(٣) . وكذلك كان تكوين أرباب وظائف الدواوين ، يتم بطريقة فذة : فقد كان السكاتب يقرن في فروع الإدارة المختلفة ، على كل أنواع العمل الكتابي ، حتى يُلم بكل دقائق الإدارة ؛ فابن الصيرفي ^(٤) ، قبل توليته ديوان الإنشاء ، عمل في ديوان المسكاتب ، وفي دواوين الجيش ، وحتى في دواوين المالية ؛ فهذه الطريقة تهيء لأرباب الوظائف ثقافة إدارية عامة ومتشعبة في نفس الوقت .

وليس لدينا للأسف معلومات وافية عن نظام سير العمل في الإدارة الفاطمية ، وهو لا ريب ، يشبه في مجموعه النظام الذي كان سائداً في مصر قبلهم .

(١) صبح ، ٣ ص ٤٩٤ ؛ حسب المقرئ ، كان لصاحب ديوان المجلس ، الجلوس بالمرتبة دون المخاد ، والدواة ، والحاجب . انظر . خطط ، ١ ص ٣٩٧ .

(٢) مقرئ ، خطط ، ١ ص ٤٤٣ ؛ انظر .

Chrest. arabe, ler . 2, p. 96. : De Sacy

(٣) انظر أبو شامة ، الروضتين ، ١ ص ١٩٢ .

(٤) ابن ميسر ، ص ٨٧

ويمكننا على كل حال ، أن نميز نوعين من النظم الإدارية : الإدارة المركزية :
إنشاء ومالية ، والإدارة المحلية .

الإنشاء : الديوان - الموظفون - أعمالهم : إنشاء ، مكاتبات - نظر المظالم .

فكان ديوان الإنشاء من أهم دواوين الإدارة المركزية الفاطمية ، حيث
جُعل ترتيبه في الأهمية مباشرة بعد رتبة الوزير^(١) . وكان يُسمى «ديوان الإنشاء
والمكاتبات»^(٢) وإن أطلق عليه ابن الصيرفي (م ٥٤٢/١١٤٧) اسم «ديوان
الرسائل»^(٣) ؛ وقد غلبت عليه التسمية الأولى ، التي بقيت لتدل على ديوان
الإنشاء في مصر ، حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية .

وهذا الديوان صورة من ديوان الإنشاء قبل الفاطميين - في عهده
الطولونيين والإخشيديين - ، وهو نفسه ميراث من ديوان الإنشاء الفارسي .
ولكن كبر شأن هذا الديوان ، في ذلك العصر ، لأن مصر الشيعة - مركزاً
لإمبراطورية شاسعة الأرجاء تمتد من إفريقية إلى سورية والجزيرة العربية وصقلية -
كانت تقوم بدعاية واسعة الموكها الجدد ، لم يقف شأنها عند مصر فحسب ،
ولسكنها امتدت إلى البلاد المعادية ، مما يتطلب من هذا الديوان مجهوداً كبيراً .

وكان تنظيم ديوان الإنشاء من أبرز ما في العصر الفاطمي ؛ فكان العمل
فيه يمتاز بنظامه الديواني (البيروقراطي) الصرف . ويجعلنا وصف ابن الصيرفي
لموظفي هذا الديوان ، نعتقد أن تنظيمه تم في عهد الخليفة الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ /

(١) صبح ، ٣ ص ٤٩٠ .

(٢) نفسه ؛ مقریزی ؛ خطط ، ١ ص ٤٠٢ .

(٣) ابن الصيرفي : Die Geographie p. 188 : Wustenfeld : Code, p. 65.

١١٠١ - ١١٣٠) ، فكثير من النظم الفاطمية تكونت نهائياً حوالى ذلك العصر^(١) .

وقد كان على رأس هذا الديوان ، كاتب يقال له : « رئيس » ، أو « متولّى »^(٢) ؛ وإن كان يتسمى فى الغالب « بكاتب الدست الشريف »^(٣) ، لكتابته على الدست . فكان عمله يتلخص فى إنشاء النقاط الرئيسية فى الرسائل الهامة ، الواردة أو الصادرة من الديوان ، ولذلك كان لا يُجيب عن الخليفة متى قصده ، فى أى وقت .

وكان يعاون رئيس الديوان فى عمله اثنان : أحدهما يسمى « المُخْرَج »^(٤) ، وهو الكاتب الذى يكلف بكتابة مستخرجات من الرسائل التى ترد أو تصدر عن الديوان ؛ والثانى « المتصفح »^(٥) ، وهو الذى يتصفح سائر ما يُسطر فى الديوان .

أما بقية الكتاب الآخرين فى هذا الديوان ، فهم على نوعين : طبقة من الكتاب الرئيسيين وعددهم خمسة ، وثلاثة من المساعدين .

أما الكتاب الخمسة فكانوا يرتبون بحسب الآتى : كاتب يتصدى « بالكتابة إلى الملوك »^(٦) ، وهو الذى يكتب إلى الملوك ؛ وكاتب يختص « بالتوقيع على

(١) مقرئزى ، خطط ، ٢ ص ٢٩١ س ١٤ و ٢٢ .

(٢) ابن الصيرفى ، Code, p, 79 سمي هذا الرئيس فيما بعد « صاحب » أو

« مشد » . انظر . نفسه ، ص ٧٩ — ٨٠ ، وملاحظة ٢ .

(٣) مقرئزى ، خطط ، ١ ص ٤٠٢ ؛ صبيح ، ٣ ص ٤٩٠ .

(٤) ابن الصيرفى ، قانون الرسائل ، تحقيق على بهجت ، ص ٢٥ ؛ انظر .

Beitrage, p 21, : Björk man

(٥) ابن الصيرفى ، قانون الرسائل ، تحقيق على بهجت ، ص ٢٥ ؛ صبيح ، ١ ص ١٣٣ ؛

انظر . Beitrage, p 21 .

(٦) انظر . Code, p 99 .

القصص»^(١)، وهو الذى يوقع بحتم الخليفة للتنفيذ، وكاتب يقوم «بالإنشاءات»^(٢)، وهو الذى ينشئ للحوادث السكبار، والتقاليد لكبار الموظفين؛ وكاتب يتصدى «بالمكاتبة إلى أمراء الدولة وكبرائها»^(٣) وإنشاء تقاليد صغار الموظفين؛ وأخيراً كاتب يُلحق عمله بالسابق، ليساعده فى أعماله الكثيرة^(٤).

ومن بين المساعدين نجد «الناسخ»^(٥)، وإن كنا لا نعرف إن كان «الناسخ» أو «المبييض»^(٦) هما شخص واحد، أو أنهما شخصان متميزان الواحد عن الآخر. والثانى هو «الخازن»^(٧)، وهو الذى يضع فى الديوان، الأوراق التى تشتمل على مهمات الأمور، بأن يجمع كل نوع إلى مثله فى أضياب أو دوسيات، حتى يمكن استخراجها بسهولة. وأخيراً، «الحاجب»^(٨)، الذى كانت وظيفته القيام على باب ديوان الإنشاء لينظم الدخول أو الخروج إليه ومنه.

هذا الترتيب، الذى قدمه إلينا ابن الصيرفى، لا يدل على أن كل نوع من الإنشاء، كان يشغله كاتب واحد؛ فإن عدداً كبيراً من السكتاب، قد يُفردون بنوع واحد من الإنشاء، كما أنه من الجائز، أن يُفرد كل صنف منها بعدة كتّاب للإنشاء.

وقد كان عمل هذا الديوان يتلخص فى ثلاثة أمور: إنشاء، ومكاتبات، ونظر المظالم.

(١) نفسه، ص ١١٣.

(٢) نفسه، ص ٩٦.

(٣) نفسه، ص ١٠١.

(٤) نفسه، ص ١٠٢.

(٥) نفسه، ص ١٠٣.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه، ص ١٠٨؛ صبح، ١، ص ١٣٥ — ١٣٦.

(٨) مقرئى، خطط، ١، ص ٤٠٢؛ صبح، ١، ص ١٣٦ — ١٣٧.

انشاء :

إن « الإنشاء »^(١) الخاص بمصر والإمبراطورية وحتى الخارج ، أعطى اسمه لهذا الديوان ، وشمل العمل الرئيسي فيه . ويظهر مما سرده ابن الصيرفي تخصص الكتاب المتنوع في الإنشاء ؛ حيث كان يشترط فيهم ، استيفاء شروط الكتابة ، وذلك بالدقة في التعبير . فكان ديوان الإنشاء الفاطمي يحتوي على دفتر^(٢) فيه أسماء وألقاب جميع موظفي الإمبراطورية ، وجميع ما يختص برؤساء الدول الأجنبية ، كي يُخاطب كل مرسل إليه ، بنعت مقرر له وبدعاء معروف به . ونحن نعرف ، مما أوردناه سابقاً ، الدور الرئيسي للألقاب ، في حياة أرباب الوظائف ، الذين كانوا يخضعون لنظام طبقى دقيق ؛ فالفاطميون ، هم أول من أوجد الألقاب في مصر ، بحيث كثر استعمالها في ذلك العصر ، وإن كانت في مجموعها ، ميراثاً مباشراً للألقاب العباسية . وكانت هذه الألقاب ، وسيلة للتمييز بين موظفي الدولة ، حسب تفاوت درجاتهم ؛ بل كانت آئذ تشبه (الخلع) ، رمزاً للتشريف من قبل الخليفة ، وللمكافأة وحتى للمظهر ؛ فوزعت بكثرة ، على أتباع الفاطميين الكبار ، رجالاً ونساء^(٣) .

وكانت هذه الألقاب — أحياناً — يدل بعضها على منصب حقيقي ؛ وإن كانت غالباً لا تشير إلا لمكانة صاحبها عند الخليفة . كذلك تحولت في بعض الأحيان ، إلى أسماء ، بحيث أن عدداً كبيراً من الأشخاص ، لم يعرفوا إلا بها ، مثل ، الوزير المعروف : « بخطير الملك »^(٤) .

(١) مقرئى ، خطط ، ص ٤٠٢ .

(٢) ابن الصيرفي : Code, p 108 - 9 : صبح ، ص ١٣٤ .

(٣) رسائل المستنصر : ٢ : ٥٢٤٣٥٤٤ ، الخ .

(٤) مقرئى ، خطط ، ص ٣٥٥ س ٣٩ . منح هذا اللقب في ٤٤١/١٠٤٩ إلى كبير =

أما عن تكوينها ، فكان عادة من جزئين ، فذكر ، مثلاً : « عزّ الدولة
وسفائها »^(١) ، و « عميد الدولة وناصحها »^(٢) ؛ ولعل هذه الصيغة منقولة عن لقب
خلفاء الفاطميين المزدوج : « عبد الله وولّيته »^(٣) ، الذي نجد في جميع مراسلاتهم .
وقد كانت بعض هذه الألقاب تنسب إلى الدولة ، مثل : « أسد الدولة » أو
إلى معنى شريف ، مثل : « شرف المعالي » أو إلى معنى ديني ، مثل : « سيف
الإسلام » أو حتى لتدل على تعصب مذهبي ، مثل : « عبد المستنصر »^(٤) . وكانت
للنساء أيضاً ألقاب مناسبة ، مثل : « السيّدة الحرّة »^(٥) . أما ألقاب أسرة الخليفة ،
فكان يقال « الملكة »^(٦) لزوجة الخليفة ؛ و « أمير »^(٧) لإخوته وأولاده .
وكان للشخص لقب أو أكثر ؛ فكان لفهد بن إبراهيم لقب مفرد ، هو :
« الرئيس »^(٨) ، و منصور بن عبدون لقب « الكافي »^(٩) ، ولزرعة بن نسطورس
لقب « الشافي »^(١٠) . وفي حالات كثيرة ، نجد لقبين معاً ، مثل : « سيف

القضاء أبي محمد اليازوري ، الذي وزر للمستنصر ، مع لقب « سيد الوزراء » ، ولقد كان لليازوري
اللقاب أخرى ، بلغت تسعة . أنظر . ابن الصيرفي ، إشارة ، ص ٤٠ — ٤١ .

(١) تلب المملوك معضاد الظاهري بهذا اللقب في ١٥/٤١٠٢٤ . مقريري ، خطط ، ١
ص ٣٥٤ س ٢١ ؛ ابن تغري بردي ، تحقيق . Popper ، ص ٢ ، ٧٩ ؛ Mém. Casanova .
Beitrag, I p 66, 78. : Bekcer . أنظر . 4, P 21

(٢) منح هذا اللقب إلى وزير الخليفة الظاهر ، أبي محمد الحسن بن صالح الروذباري ، في
١٨/٤١٠٢٧ أنظر . ابن الصيرفي ، إشارة ص ٣٤ ؛ مقريري ، خطط ، ص ٣٥٥ س ١٢ .
(٣) رسائل المستنصر : ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ١٨ و ٢٩ و ٣٦ و ٤٠ و ٤٣ . الخ ؛ صبح ،

١٣ ص ٣٢٥ ؛ Wiet : M. I. F. A. O. 49 p9, Note 1

(٤) رسائل المستنصر : ١٤ و ٢٨ و ٢٨ و ٣٧ والنخ

(٥) نفسه : ٣٦ و ٤٧ و ٤٩ و ٥٢ والنخ .

(٦) نفسه : ٣٥ و ٥١ .

(٧) نفسه ٨ و ٩ و ٣٥ .

(٨) يحيى ، ٤٥٣ .

(٩) نفسه ، ص ٤٩٣ .

(١٠) نفسه ، ص ٤٩٩ .

الإسلام وتاج الملك » ، الذي مُنح للوزير بهرام^(١) . ومع ذلك فإن اليازوري ، وزير الخليفة المستنصر ، كان له تسعة ألقاب^(٢) .

مطاببات :

أطلقت « المكاتبات »^(٣) ، هي الأخرى ، اسمها على هذا الديوان ، وشملت مكاناً ضخماً من عمل ديوان الإنشاء .

وقد كان لاتساع الإمبراطورية من ناحية ، ووجود إدارة مركزية محكمة تشرف على دقائق الأمور من ناحية أخرى ، سبباً في وفرة المكاتبات في هذا الديوان . ولقد أسندت الدولة المراسلات إلى كتاب ذوى خبرة ، نجد من بينهم من يعرف عدة لغات أجنبية ، كاليونانية والأرمنية^(٤) .

وأغلب الظن ، أن إدارة البريد ، كانت تابعة لديوان الإنشاء ، الذي كان من عمله تصريف ورود وإصدار المكاتبات ؛ فيذكر المؤرخون^(٥) ، أن الحاكم قلد الحسين بن جوهر البريد والإنشاء . فكان البريد في جميع الدول الإسلامية في العصور الوسطى ، قائماً بثئون الدولة وحدها ، دون الناس . وليس لدينا للأسف عن البريد الفاطمي ، غير معلومات ضئيلة ؛ فكل ما نعرفه أن الذي يهيم على إدارة البريد يقال له « صاحب البريد »^(٦) .

(١) ابن ميسر ، ص ٧٨ .

(٢) انظر قبله ؛ ابن الصيرفي ، اشارة ، ص ٤٠ - ٤١ ؛ ابن حجر ، رفع ، ورقة

٨٤ و ١٩٦ .

(٣) مقریزی خطط ، ١ ص ٤٠٢ .

(٤) ابن الصيرفي : Code, p. 113

(٥) مقریزی ، خطط ، ٢ ص ١٤ س ٣٠ - ٣١ ؛ ص ٢٨٥ س ١٧ ؛ ابن ميسر ،

ص ٥٤ .

(٦) ابن القلانسی ، ص ٦٠ .

أما أمور مخاطبة الخليفة ، فإن عملها يسكون في قصر الخليفة نفسه ، ويشرف عليها موظف كبير يعرف باسم « صاحب الرسالة » ، كان يقوم بنقل أوامر الخليفة إلى الوزراء وأرباب الوظائف السكبار^(٢) .

ومن ناحية أخرى يعرفنا ابن القلانسي^(٣) ، بأن نظام البريد بواسطة الخيل ، كان موجوداً بين مصر وسوريا .

وفي هذا العصر ، استعمل الفاطميون أيضاً حمام الرسائل في نقل البريد^(٤) ، لامتداد مملكتهم واتساعها ؛ كما كان لبعض الوزراء الفاطميين بريدهم الخاص بواسطة الحمام الزاجل^(٥) .

أما إدارة « قلم مخابرات الدولة » ؛ فإنها — على ما يظهر — كانت تحت إشراف ديوان الإنشاء^(٦) ، ولا تشتمل إلا على الموظفين المهرة في جمع المعلومات لخلفائهم ، عن كل ما يحدث في أركان امبراطوريتهم . وكان رئيسهم يتسمى « بصاحب الخبر »^(٧) ، وهو شخصية ذات شكيمة ، تحتل مركزاً سامياً في الدولة الفاطمية .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٨٥ .

(٣) ذيل ، ص ٦٥ . ومع ذلك يقول القضاعي ، بأن خبر غزوة مصر على يد جوهر ، وصل إلى الخليفة المعز بواسطة « النجابين » ، الذين يمتطون النجب . انظر . تاريخ المعارف ، ورقة ١٧٩ وكذلك يقول المقرئزي ، بأن « النجابين » ، حملوا إلى القاهرة خبر غزوة الفرنج لولاية الشرقية ، في ١١١٢/٥٠٩ ؛ حيث أرسلهم إلى الشرقية إلى القاهرة لطلب العون . انظر . خطط ، ١ ص ٢١٢ س ٧ و ٨ . وعلى العكس ، يذكر القلقشندي أن البريد بواسطة الخيل ، كان معروفاً قبل الفاطميين ، عند البويهيين والزنكيين : انظر صبح ، ١٤ ص ٣٧٠ ؛ La Poste des Chevaux dans l'Empire mamelouks ، p II : Sauvaget . فعمل التحسينات التي أدخلت على نظام البريد ، كانت سبباً في طمس معالم نشأته .

(٤) صبح ، ١٤ ، ص ٣٩٠ — ٣٩١ ؛ أنظر . Die Renaissance: Mez . ترجمة

أبي ريذة ، ٢ ص ٢١٦

(٥) صبح ، ١٤ ، ص ٣٩١ ؛ مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٧ .

(٦) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٧) نفسة .

وفي أيام الآسر، كان قلم مخبرات الدولة الفاطمية يشمل جواسيس من الجنسين^(١). ويلوح لنا - من تنف المعلومات التي وصلتنا عن هذه الجاسوسية الحكومية - أنها ازدادت نشاطاً في عهد المأمون (٥١٥ - ١١٢٢/٥١٩ - ١١٢٥)^(٢)، وزير هذا الخليفة؛ فقد بث الوزير الجواسيس في كل أقطار الأرض، لإخباره بالحوادث التي تقع.

وفي الجملة كان لنظام المراسلات الفاطمية، سواء أكانت داخلية أم خارجية، ترتيب محكم؛ فقد كانت تجعل في «أضابير»^(٣)، عليها «بطائق»، مكتوب فيها محتوياتها واقليمها وتواريخ وصولها.

نظر المظالم:

وهو «التوقيع على القصص»^(٤) ويكون جزءاً من عمل ديوان الإنشاء. فحينما يبدي «قاضي المظالم» رأيه في الظلمات (قصص) المقدمة إليه، تحمل هذه إلى ديوان الإنشاء، الذي يكون فيها رأياً نهائياً، باسم الخليفة؛ فقد كان في هذا الديوان موظف خاص «الموقع على القصص» له حق «التوقيع» بعلامة الخليفة على القصص. وستتكلم عن هذا النوع من القضاء، عند الكلام عن الوظائف القضائية، وإن كان نظر المظالم يكون جزءاً كبيراً من نشاط هذا الديوان.

(١) ابن ميسر، ص ٦٥-٦٦؛ انظر. حسن ابراهيم، الفاطميون في مصر، ص ٢٧٦.

(٢) ابن ميسر، ص ٦٥ - ٦٦.

(٣) ابن الصيرفي، Code, p. 109؛ صبح، ١ ص ١٣٦.

(٤) ابن الصيرفي، 115 - 112 Code؛ أنظر. Björkman, Beiträge, p.27.

المالية : الدواوين - الضرائب - الدخل الخاص - بيت المال - الميزانية - النقود .

أصبحت مصر إبان الحكم الفاطمي امبراطورية مستقلة ، ذات موارد مالية متعددة ، وجمدة تنظيمها ، بقي نظامها المالي أعموداً للتنظيم المالي بعد الفاطميين ، وعلى الأخص في عهد المالمك .

وكانت هذه النظم المالية الناشئة في أول الأمر ، قد ازدادت تعقيداً وتشعباً في آخر الحكم الفاطمي . فبدأء ذى بدء ، جعل أمر الأموال وما يتعلق بها ، إلى موظف واحد عرف باسم « متولى الخراج » يقوم بجباية الخراج ، وينظر في سائر وجوه الأموال^(١) .

ولكن النظم المالية أخذت على التدرج حظها من الأهمية ؛ بحيث أنها أصبحت تشمل على عدد كبير من « الدواوين » ، وضعت تحت إشراف صاحب « نظر الدواوين »^(٢) ، الذي كان له الإشراف العام على كل الدواوين المالية . كما تطلب تشعب هذه النظم المالية أيضاً ، ظهور ديوان جديد هو « ديوان التحقيق »^(٣) ، ليقوم بمراجعة عمل الدواوين المالية الأخرى ، ويتبع « نظر الدواوين » ويلحق به . وإنا نجعل تاريخ نشأة هذين الديوانين^(٤)

(١) ابن ميسر ، ص ٤٥ ؛ مقریزی ، خطط ، ٢ ص ٥ .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٣ ؛ مقریزی ، خطط ، ١ ص ٤٠٠ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٤٠١ .

(٤) نعرف أن الوزير الأفضل جدد « ديوان التحقيق » في ١١٠٧/٥٠١ ؛ وقد بقي

هذا الديوان بعد ذلك إلى وقت سقوط الدولة الفاطمية ، وحتى في عهد دولة المالمك .

انظر . ابن ميسر ، ص ٤٢ .

الذين ظهروا لأول مرة في مصر ، وكان لها الإشراف العام على مالية البلاد .

وكانت موارد الدولة هي نفسها التي كانت في العصر السابق على الفاطميين ، وفي العصر الذي تلا عصرهم ، تتكون من مصادر متعددة .

فكانت أولاً تأتي من ضريبة الأرض ، وتسمى « الخراج » ؛ كلمة من أصل يوناني^(١) ، بمعنى الضريبة التي كانت تُفرض على مساحة الأرض ؛ وهي تشمل على المال الذي يجبي كل سنة على الأرض المزروعة ، وعلى الواجبات الميمنية من : غلة ونخل وأكرم وفواكه وأغنام ودجاج وشهد ، وغيرها من منتجات القرية^(٢) .

ولقد كانت أرض مصر سبباً في إثارة موضوع تعدد فيه النقاش ؛ فقد كان الخلاف آتياً من الاختلاف على طبيعة الغزوة العربية لمصر ، وهل فتحت مصر صلحاً أو عنوة ؛^(٣) مما كان يترتب عليه اختلاف النظرة بالنسبة لاستغلال الأرض ؛ ففي الحالة الأولى تترك الأرض ملكاً لأهلها بخراج معلوم ، وفي الحالة الثانية تصبح الأرض غنيمة للفاحين ، فتقسم عليهم أو قد يعدل عن تقسيمها على الحاربين ويعوضون عنها . على كل حال ، كان خلفاء الفاطميين يملكون أرض مصر ، كما كان يملكها الفراعنة من قبل .

فكانت الأرض تؤجر إلى كبار السكان من المزارعين ، بصفتهم « مُتَقَبِلِينَ »

(١) انظر Massé. : p63. : Islam; Van Berchem ; La Propriété territoriale, p 20.

(٢) مقريري ، خطط ، ١ ص ٨٣ — ٨٤ انظر . Bouriant . Description top,

La Propriété territoriale p 49. : Van Berchem ; et hist de l' Eg, p.297 إن

جباية الواجبات الميمنية ترجع في أصلها إلى النظام الروماني ، وهي ضريبة إضافية لضريبة الأرض .

(٣) مقريري ، خطط ، ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ؛ السيوطي ، حسن ، ١ ص ٤٦٩ ؛ انظر .

: Van Berchem ; Dhimis and Moslems in Egypt, p 353 - 414. : Gottheil Propriété territoriale p. 8

أو «ضمان»^(١)، يتعهدون بدفع ما عليها من ضريبة، لقاء استغلالها؛ فكان هذا النظام يضع الأرض فعلياً، في ملكة الدولة. وكانت «قبالات» الأرض تتم بطريقة «التزايد»^(٢) لأربع سنين، لإتاحة الفرصة للمتقبل أن يعرض النقص في حالة المحصول السيء. أما بقية سكان مصر، من غير كبار المزارعين، فإنهم كانوا أشبه برفيق الأرض، وإلى عهد الفاطميين، كان الصراع جارياً ضد الهاربين من المزارعين^(٣).

وبجانب أرض الخراج، لدينا براهين عديدة على وجود أرض خصصت للإقطاع، تعرف «بالإقطاعات» وأصحابها يسمون «بالمقطعين»؛ فيعطى للأجناد أو للأمرء، قطع من الأرض مختلفة المساحة، لقاء خدماتهم العسكرية، حسب درجاتهم. ويلاحظ المقرئ، أن هذه الإقطاعات كانت في عهد الدولة الفاطمية قليلة؛ إلا أنها تضاعفت^(٤) في أواخر أيامها، بسبب زيادة سلطة رجال الجيش، وإن لم تبلغ الأهمية التي أصبحت لها في العهود التالية على الدولة الفاطمية. وفي الواقع إن كلمة الإقطاع في ذلك الوقت لم تتضمن معنى الرق، فلم تعرف بهذا المعنى إلا في عصر المماليك. وبحسب قول المقرئ، كانت إقطاعات الأجناد الصغيرة سبباً في تضرر أصحابها، فلم يكن يُتحصل منها شيء كثير، مما اضطر الوزير البطاحي في ١١٠٧/٥٠١ - ٨، إلى المساحة «بالبواق» من الأموال مما عليهم للدولة؛ وعلى العكس كانت إقطاعات الأمرء الكبيرة قد تضاعف دخلها. ثم إن توزيع هذه الإقطاعات، أصبح يُعطى إلى مدة ثلاثين سنة^(٥)، لإتاحة الفرصة لاستغلالها.

(١) مقرئ، خطط، ١ ص ٨٢ س ٩-١٠؛ Wiet : M. I. F. A O. : ٣٣، ص ٢٨؛ انظر . 240 Bouriant ; Mez ; Die Renaissance ; ترجمة أبي رييدة، ١ ص ٢١٢.

(٢) مقرئ، خطط، ١ ص ٨٢ س ٢٨-٢٩؛ انظر . Becker . L'Ég. p 14-16

(٣) نفسه، ١ ص ٨٢ س ٣٤؛ انظر . نفسه، ص ١٤ - ١٨ .

(٤) مقرئ، خطط، ١ ص ٨٥ س ٣٥ - ٣٦ .

(٥) مقرئ، خطط، ١ ص ٨٣ س ١٣ .

وأخيراً ، يذكر المقرئى (١) وجود « ملكية » خاصة ، على نطاق ضيق ، فى حيازة الأقوياء المميزين فى الدولة ، الذين كان لهم مطلق الحرية فى تأجيرها أو بيعها (٢) . وكان الخراج الذى يفرض على الأرض يتغير بحسب النواحي ، وأصناف الزراعات ، وصلاحية الأرض للزراعة ، ومساحة ما يشمله الرى من الأراضى . ولم يهمل كتاب الأخبار المصرىون أبداً (٣) ، ذكر سنين الشدة والمجاعة ، التى كان يتسبب عنها اضطراب فى جباية الخراج ، وفى الاقتصاد العام . ويظهر لنا اختلاف الخراج ، فى نواحي البلاد ، من الجدول الذى ضمنه أبو صالح كتابه (٤) ، فهو على نوعين : جزء يدفع نقداً ، وجزء يدفع عيماً . فكان خراج الصعيد ، يستخرج عيماً من الحبوب وبخاصة من الغلال ، ويبلغ ثلاثة أرباب لكل فدان (٥) . أما فى أسفل الأرض ، فإن الخراج كان يستخرج بفرض ثلاثة دنانير ونصف لكل فدان ؛ ولكن ابن حوقل يروى أن القائد جوهر جباها سبعة دنانير (٦) .

وفى عهد الفاطميين تطورت جباية الخراج ، فكانت تشتمل على عدة دواوين ، كان وجودها غير محقق فى أوائل عهد الدولة . وأكبر الظن أن هذه الدواوين استحدثت فى خلال ذلك العصر ، وإن بقيت معلوماتنا ضئيلة عن اختصاصاتها ، المتعددة النواحي .

(١) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٨٣ س ١٠ ؛ أنظر . M. I. F. A. O : wiet . ٣٣ ص ٦ س ٤ .

(٢) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٨٣ س ١١ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣٣٧ ؛ أنظر . مقرئى ، كشف الغمة فى إغاثة الأمة ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ١٠ .

(٤) السكنايس ، (١٧ — ١٩) ص ١٠ ؛ ترجمة ، ص ١٧ — ١٨ .

(٥) مقرئى ، خطط ، ١ ص ١٠١ س ٢٧ ؛ أنظر . Islam and the : Tritton . protected religions . J. R. A. S. July. 1928 p 499 .

(٦) مسالك ، تحقيق De Goeje ، بريل ١٨٧٣ ، ص ١٠٨ ؛ أنظر . Tritton : Islam and the protected religions , J. R. A. S, July 1928 p. 499 . طوسون ، كتاب مالية مصر ، ص ٢٢٢ .

فيذكر القلقشندي ديوانين كانا يقومان بالإشراف على جباية الخراج ،
أحدهما يعرف باسم « ديوان الصعيد »^(١) ، والثاني يعرف باسم « ديوان أسفل
الارض »^(٢) ، على رأس كل منهما رئيس « مُشارف »^(٣) .
ومن ناحية أخرى ، كان للاقطاعات ديوان يعرف باسم « ديوان الإقطاع »^(٤) ،
يقوم بتوزيع اقطاعات الأجناد .

وفي عهد الخليفة الأمر ، ظهر ديوان جديد هو « ديوان الخاص »^(٥) ، ذكره
المقريزي وحده ، كان يشرف على قدر الخراج المستخرج .

وبجانب هذه الدواوين ، كان عدد كبير من المستخدمين ، على الأخص من
النصارى القبط^(٦) ، يقومون بتحديد الضريبة أو استخراجها ، فنذكر منهم :
« الكاتب » ، الذي كان يحجر مساحة الأرض قبل وبعد الحصول^(٧) ؛ و « الشاهد
العدل »^(٨) ، الذي كان على صلة بالمتقبلين والحكومة ، ويصحب غالباً الكاتب
في رحلاته ؛ و « الشاد » أو « المشارف »^(٩) ، الذي كان يشرف على عملية جباية
الخراج ويعمل على إدخال المحصولات المستخرجة على ذمة الخراج إلى بيت المال ؛
و « الناظر »^(١٠) ، الذي كان يشرف أيضاً على جباية الخراج . وقد كان وجود

(١) صبيح ، ٣ ، ص ٤٩٥ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه ، ٣ ، ص ٤٩٣ . Wustnfeld : Die Géographie , p. 190 .

(٥) مقريزي ، خطط ، ١ ، ص ٨٤ س ٣١ .

(٦) أنظر قبله ؛ Becker : « L' Egypte » في دائرة المعارف الإسلامية ، ٢ ، ص ٨ .

(٧) مقريزي ، خطط ، ١ ، ص ٨٦ س ٣ ؛ ص ٤٠٥ س ٢٣ — ٢٤ ؛ ابن ممان ،

قوانين ، القاهرة ١٢٩٩ ، ص ٤ ؛ أنظر . Tritton ; Bouriant , p. 245.28. The caliphs, :
snd their non - muslim subjects p. 28 - 29 .

(٨) مقريزي ، خطط ، ١ ، ص ٨٦ س ٦ ؛ ص ٤٠٥ س ٢٣ — ٢٤ ؛ Wiet :

M. I. F. A. O, 33, p. 14. 3.

(٩) مقريزي ، خطط ، ١ ، ص ٨٦ س ٧ .

(١٠) نفسه ، ١ ، ص ٤٠٥ س ٢٤ ؛ أنظر . Becker : « L' Egypte » في دائرة

المعارف الإسلامية ، ٢ ، ص ١٤ .

« المشارف » و « الناظر » من النظم البيزنطية ، التي بقيت زمناً طويلاً ، إلى ما بعد الفاطميين . وأخيراً ، نجد الأجناد الاستخراج ، ذلك لأن الجباية كانت تحتاج إلى من عُرف بالحماصة وقوة البطش ^(١) .

الباب الثاني من موارد الدولة بعد الخراج ، يشمل الجباية على المصادر والوارد وهو يتكون من عدد من الضرائب ، عُرفت في ذلك العهد ، بالأسماء التالية : « مكس » ؛ « عشر » ؛ « خمس » ؛ « سواحل » ؛ فكانت جميعها تفرض على الانتاج ، بعكس ضريبة الخراج ، التي كانت تفرض على الأرض .

فكانت ضريبة « المكس » تعتبر من أهم الضرائب التي تميز ذلك العصر ، وهي تدل في معناها الضيق ، على الضريبة التي تؤخذ على السلع الواردة والصادرة ، الموجودة في الموانئ . أما في معناها الواسع ، فانها تدل على ضريبة غير مباشرة ، تفرض على بعض البضائع عند ورودها إلى المدن ، وإن كانت لم تعرف بهذا المعنى إلا في العصر الفاطمي ^(٢) . وقبل مجي الفاطميين ، كانت هذه الضريبة تُعرف باسم « الهلالي » ^(٣) ، لأنها كانت تُستأدى على حكم الشهور الهلالية ، بعكس الخراج الذي كان يُجبي على حكم السنة الشمسية أو السنة القبطية ؛ كما كانت تُعرف أيضاً باسم « المرافق » و « المعاون » ^(٤) ، ولكن في العصر الفاطمي ، كانت كلمة « مكس » هي الغالبة . ويحدثنا المقرئ ^(٥) ، أن هذه الضريبة كانت تفرض على كل البضائع ، وأن الهواء وحده أُخلى سبيله ، وبقى حراً ؛ فقد

(١) مقرئ ، خطط ، ١ ص ٨٦ س ٥ — ٦ ؛ ٤٠٥ س ٣١ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٠٤ . كانت كلمة « مكس » بمعنى ضريبة أسواق ، معروفة من قبل ، في العصر الجاهلي . انظر . Dozy . Suppl. 2, p 606 . أما كلمة « مقس » ، فإنها اسم قرية على ساحل النيل ، واقعة في شمال القاهرة ، كانت تعرف من قبل باسم « أم دين » ، ولكن سميت بهذا الاسم لأن « الماكس » كان يقعد بها ليستخرج « المكس » ؛ فكلما « مقس » تحريف لكلمة « مكس » . انظر . مقرئ ، خطط ، ٢ ص ١٢١ .

(٣) نفسه ، ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ ؛ Becker : Beiträge, I, p. 144 et Suiv .

(٤) مقرئ ، خطط ، ١ ص ١٠٣ س ٣٩ ؛ ١٠٤ س ١ .

(٥) اتعاط ، ص ١٠٣ .

كان المكس مقرراً على: المراعى ، والمياه ، ، والمصائد ، والبضائع ، وعبور البضائع (الترانسيت) ، والذبايح ، وسوق الرقيق ، وأنواع الصناعات كالفخار والمزر (النيذ) ^(١) ، وحتى عل الحجيج ^(٢) . وكانت قيمة المكس تتراوح بين ١٠٪ و ٢٥٪ من ثمن البضاعة . والواقع ان هذه الضريبة كانت جائرة وغير قانونية ^(٣) ؛ بحيث أن السنين استغلوا كره المسلمين لها في حملتهم ضد الشيعة ؛ ولذلك حينما أزال صلاح الدين الخلافة الفاطمية ، أمر بإسقاطها ؛ كما عمل بعض الأتقياء من خلفاء الفاطميين أنفسهم ، مثل الحاكم ، على إلغائها ^(٤) أو على الأقل على تخفيفها . وقد كانت حصيلة هذه الضريبة في السنة ١٠٠٠٠٠ دينار ^(٥) ، ويذكر القلقشندي ديواناً خاصاً بها ، هو : « ديوان الهلالى » ^(٦) .

أما « العُشر » ^(٧) : فإنها ضريبة شرعية تؤخذ على بضائع التجار المسلمين ؛ فيروى ناصرى خسرو ^(٨) أن العشر كان يُجبي في عيداب ، على البضائع الواردة من الحبشة ووزنبار واليمن . وقد جبي الخليفة عمر هذه الضريبة ، ولذلك أُعتبرت شرعية ، على عكس « المكس » ، الذى أُعتبر غير شرعى .

أما « الخمس » : فإنه يُستأدى غالباً على بضائع الأجانب ، الواردة فى البحر

(١) مقرئزى ، خطط ، ١ ص ٨٩ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٨٣ ؛ ابن جبير ، رحلة ، تحقيق Wright ، ليدن ١٩٠٧ ، ص ٥٥ — ٥٦ . هذا المكس يبلغ سبعة دنانير ونصف ، وكان يجبي فى عيداب ، وهو ميناء على البحر الأحمر .

(٣) مقدس ، تحقيق De Goeje ، ص ٢١٣ .

(٤) مقرئزى ، خطط ، ٢ ص ٢٨٥ .

(٥) نفسه ، ١ ص ١٠٤ من ٥ — ٦ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٩٦ . يبدو أن كلمة « هلالى » بقيت فى العصر الفاطمى لتدل أيضاً على هذه الضريبة .

(٧) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، طبعة بولاق ١٣٠٢ ، ص ٧٦ — ٨٠ ؛ صبح .

٣ ص ٤٦٣ ؟ انظر . Die Geog, p 162. ; Wustenfled .

(٨) انظر . 8 — 177 Sefer Nameh, trad, Schefer, p.

إلى الديار المصرية ، وهو مذکور من ضمن موارد الدولة^(١) . فكانت قيمة هذه الضريبة تتراوح بين ٣٥ و ١٠٠ دينار ، وأحياناً قد تنحط جبايتها عن ٢٠ ديناراً . ويرى المقرئى ، أنه كان من تجار الروم ، من يؤخذ منهم العشر بدل الخمس عما معهم من البضائع ، وإن كان لا بد من وجود اتفاق سابق ؛ كما أن هذه الضريبة كانت في بعض الأحيان تُجبي عيناً .

أما عن « السواحل »^(٢) : فإنها كانت أيضاً من ضمن موارد الدولة ، وعلى الرغم من أن معلوماتنا عنها قليلة ، فإننا نعرف عموماً ، أنها كانت تُستأدى في الثغور الساحلية ، مثل : الإسكندرية ودمياط ونسترو والبرلس والفرما^(٣) ، ويذكر القلقشندي ديواناً خاصاً بجبايتها ، هو : « ديوان الثغور »^(٤) .

المورد الثالث ، بحسب قول المقرئى^(٥) ، هو ضريبة « الجوالى » ، التي كانت تُفرض على غير المسلمين ؛ وقد بلغت هذه الضريبة — في عهد الأمر — عن كل نفس ديناراً وثلثاً ، وأحياناً دينارين^(٦) . ولسنا نعرف مقدار حصيلة هذه الضريبة

(١) مقرئى ، خطط ، ١ ص ١٠٩ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٦٣ ؛ انظر . Wustefeld . Die Geog, p. 162 .

(٢) ابن ميسر ، ص ٤٥ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٩٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٤٩٥ س ٢٠ — ٢١ . الاسكندرية ، مدينة كبيرة على البحر الأبيض . انظر . نفسه ، ٣ ص ٣٨٩ ؛ يعقوبى ، البلدان ، ترجمة Wiet ، ص ١٩٦ . دمياط بلد على شاطئ البحر . انظر . يعقوبى البلدان ، ترجمة Wiet ، ص ١٩٥ ؛ صبح ، ٣ ص ٣٨٧ ؛ طوسون ، جغرافية مصر ، ص ١٩ . نسترو عاصمة نستراوية ، بين دمياط والإسكندرية . انظر . ابن دقاق ، الانتصار ، طبعة بولاق ١٨٩٣ ، ص ١١٣ ؛ أبو صالح ، الكنائس ، ترجمة ص ١٨ . البرلس على شاطئ البحر . انظر . يعقوبى ، البلدان ، ص ١٩٥ ؛ طوسون ، جغرافية ، ص ١٨ . الفرما ، بلد قديم على شاطئ البحر ، ومنها يدخل إلى البلاد المصرية . انظر صبح ، ٣ ص ٣٨٦ ؛ بلدان ، ص ١٩٤ .

(٥) مقرئى ، خطط ، ١ ص ١٠٧ ؛ انظر . Bouriant , p. 308 .

(٦) أبو صالح ، الكنائس ، (١٩) ص ١٢ ، ترجمة ص ١٩ .

في زمن الفاطميين ، ولكن المقرئى (١) ، يقدر ما يتحصل منها في سنة ٥٨٧ /
١١٩١ ، أى بعد عشرين عاماً من زوال دولة الفواطم من مصر ، بـ ١٣٠٠٠٠٠٠
دينار . ويقول الشيرزى (٢) ، أن مراقب الأسواق « المحتسب » ، كان يقوم بجباية
« الجوالى » . ويذكر القلقشندى أيضاً ، ديواناً خاصاً بها ، يُعرف باسم « ديوان
الجوالى » (٣) .

وأخيراً ، كان في أبواب الدخل موارد أخرى فرعية ، تأتي بمال كثير إلى
بيت المال .

نذكر منها الشب والنظرون ، المستخرج من الصعيد ، حيث كانت الدولة
تبعه إلى تجار الروم ؛ بسعر ٧٧٥٠٠٠ دينار في السنة (٤) .

ونذكر أيضاً ، ما كان يتحصل من سك العملة وتغييرها ؛ فقد كان يتحصل
منها مال كثير .

ثم نذكر مصادر مالية (٥) متعددة ، مثل : « الزكاة » ، التي ، كان يدفعها
السنة والشيعية على السواء ؛ و « أعمال المؤمنين » ، التي كان يدفعها أتباع المذهب
الفاطمى ؛ و « الفطرة » ، التي كانت تجبي في مناسبة عيد الفطر ؛ و « النجوى » ،
وهي ضريبة الدعوة التي كان يتحصل منها مال كثير ، وتبدو اختيارية ، ولكنها
على حسب قول النعمان إجبارية (٦) . وهذه المصادر لم يكن لها معنى ضرائب
حقيقية ، وإنما كانت أشبه بواجبات دينية ، أو بالأحرى مذهبية .

(١) مقرئى ، خطط ، ١ ص ١٠٧ ، انظر . Bouriant, p. 309 .

(٢) نهاية الرتبة ، تحقيق العرينى ، ص ١٠٧ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٩٦ .

(٤) مقرئى ، خطط ، ١ ص ١٠٩ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦١ .

(٥) رسائل المستنصر : (٢٣) ؛ (٣٦) ورقة ١٨٢ — ١٨٣ ؛ (٣٧) ورقة ٣٠٩ .

(٦) الهمة ، ١ ص ٧٠ .

ولابد لنا بالضرورة من الفصل بين الموارد المالية التي تُدفع إلى بيت المال،
وبين الموارد الأخرى التي تذهب إلى الخزائن الخاصة .

فندكر من هذه الموارد ، مال من يموت وليس له وارث^(١) ؛ وقد أنشأ له
الفاطميون ديواناً ، عُرف باسم « ديوان المواريث الحشرية »^(٢) ، كان يتولاها
بالضرورة شاهد عدل .

ولندكر أيضاً ، مال « الأحباس » ، الذي كان يُوضع تحت إشراف قاضي
القضاة ، ويُخصص للعناية بالأماكن الدينية ؛ وللصرف على المستحقين في المساجد ؛
وكان له ديوان يعرف باسم « ديوان الأحباس »^(٣) .

وأخيراً نذكر موارد الخليفة الخاصة ؛ فقد كان الاحتفاظ ببلاط باذخ ،
والانفاق على أبهة القصور ، التي حيرت جميع المؤرخين ، الذين تعرضوا لوصف هذه
القصور ، يحتاج من الخليفة الاستحواذ على موارد مالية طائلة ، لا يمكن ادماجها
في الموارد العامة للدولة . فيشير المؤرخون بكلام مقتضب إلى « ديوان المجلس »^(٤) ،
الذي كان له الإشراف على أموال الخليفة . ويشيرون أيضاً إلى موظف بالقصر
يُعرف باسم « صاحب الدفتر »^(٥) ، كان من عمله كما يدل عليه اسمه ، الإشراف

(١) نفسه ، ١ ص ١١١ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٦٤ .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٦ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٤٩٤ — ٤٩٥ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٢٩٥ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٤٩٣ — ٤ ؛ نفسه ، ١ ص ٨٢ ؛ ٣٩٧ وبعدها . يروي المقرئزي
أن متولى هذا الديوان كان « زمام » كل الدواوين الأخرى . انظر . خطط ، ١ ص ٨٢ ،
س ٣٢ . ولكنه يروي في مكان آخر ، أن هذا الديوان يلحق « بديوان النظر » . انظر .
نفسه ، ١ ص ٣٩٧ . ويضيف المؤرخ أيضاً ، أن « ديوان المجلس » ، كان يشرف على خزانة الخليفة ،
وعلى توزيع الاقطاعات . والواقع أنه من الصعب ، تحديد اختصاص « ديوان المجلس » ؛ وإن
كان من الجلي أن عمل هذا الديوان الأساسي هو الإشراف على خزانة الخليفة .

(٥) صبح ، ٣ ص ٤٨٩ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٣٩٧ .

على نفقات القصر . وكذلك نجد تعبيرات متميزة تستعمل أيضاً للدلالة على وظائف القصر المالية ، مثل « خزانة الخصاص »^(١) أو « ديوان الخصاص »^(٢) ، وهي تسميات — في الواقع — غير دقيقة ، ولا تظهر دائماً في كتب المؤرخين^(٣) .
ومصادر الدخل الخاص متعددة . فيروى ناصرى خسرو^(٤) ، أن الخليفة كان يملك أراض واسعة ، جزء منها واقع على ساحل « الخليج » ، مساحتها تشمل ١٦٠ قرية .

ويروى نفس الرحالة ، أن للخليفة أملاكاً عقارية كثيرة^(٥) ، في القاهرة ومصر ، تقدر بـ ٢٠ ألف بيت مغدة للابحار ، وبـ ٢٠ ألف دكان يؤجر الواحد منها بعشرة دنائير في الشهر ؛ ويشير أيضاً إلى خانات وحمامات وقياسر ورباع وغيرها من أملاك الخليفة ، التي يصعب إحصاؤها .

ولكننا نظن بأن غنى الخلفاء الفاحش ، جاء قبل كل شيء من التجارة والصناعة ؛ فيروى ناصرى خسرو^(٦) — في رحلته — أن الخلفاء كانوا يملكون عدداً كبيراً من المراكب . فكان في تنيس وحدها ألف مركب ، بعضها ملك للتجار ، وإن كانت الغالبية العظمى منها ملك خاص للخليفة . فقد كان الخليفة يستفيد — إلى حد كبير — من مركز مصر الوسيط بين الشرق والغرب ، للاشتغال بالتجارة مع الهند ؛ كما كانت المراكب التي تحمل البضائع من الهند إلى العالم

(١) ابن ميسر ، ص ٢ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٩٤ س ٣١ — ٣٢ ؛ ٤٨١ س ٢١ .

(٢) نفسه ، ص ٥٤ ؛ نفسه ، ١ ص ٣٩٩ س ٣٧ ؛ ٢ ص ١٩٦ س ٢٦ .

(٣) وهكذا وجدت دواوين مالية للإشراف على أموال أقارب الخليفة . فنذكر ، مثلاً : « ديوان أم المستنصر » ، الذي كان له الإشراف على أموال أم الخليفة . فكان اليازوري ، وزير المستنصر في ٤٤٢/١٠٥٠ ، يشرف على أموالها بالإضافة إلى منصبه كوزير وقاض للقضاة . انظر . ابن ميسر ص ٥ .

(٤) انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer p. 134 ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٨٨ .

(٥) انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 127 .

(٦) نفسه ؛ ض ١١٢ .

الخارجي ، تمر بالضرورة بموانئ الخليفة في مصر . وكذلك كانت الصناعة تبدو في نهضة بخاصة في مناسج الخليفة (طراز)^(١) ، فيروى ناصرى خسرو أن شروط العمل كانت حسنة للصناع المصريين في هذه المناسج . وهكذا كان دخل الخليفة الواسع يتكون من كل هذه الموارد ، مما كفل له التمتع بحياة راغدة ، والإبقاء على حاشية كبيرة ، وبلاط مُترف .

ولكن ليس من السهل ، إيجاد تفرقة دقيقة^(٢) بين « بيت المال » و « خزانة الخاص » في ذلك العصر ، لأن كل دخل الدولة — في الحقيقة — يوجد في القصر^(٣) . أضف إلى ذلك ، أن الموظف الذى يقوم بالإشراف على بيت المال « صاحب بيت المال »^(٤) ، كان يُختار من بين خواص الخليفة من الأستاذين المحنكين في القصر .

وقد كان المبدأ السائد في التنظيم المالى في ذلك العصر ، هو ألا تذهب إيرادات الدولة بأنواعها المختلفة إلى بيت المال أو الخزائن الخاصة ، وإنما يُخصص كل ايراد لنفقة معينة^(٥) ، فكان بيت المال وخزانة الخاص لا يستعملان إلا في

(١) نفسه، ص ١١٣؛ ابن ممتى، قوانين، ص ٢٤؛ انظر. Bahgat. Les Manufactures, : d'étoffes. Mém. de l'Inst. Eg. Avril, 1903, p 351. كنوز الفاطميين،

ص ١١١ .

(٣) انظر. Die Renaissance : Mez. ترجمة، ص ١، ص ٢٠١ . قام « ديوان المجلس » ، الذى كان له الإشراف على خزانة الخاص ، يربط ميزانية الدولة في عهد اليازورى .

(٤) مقرئبى ، خطط ، ١ ص ٣٨٥ س ٢٢ ؛ انظر . Massé . L' Islam, p. 66.

(٥) صبح ، ٣ ص ٤٨٥ .

(١) في عصر الحاكم ، نسمع عن « ديوان النفقات » ، الذى كفل الإشراف عليه ، إلى الجرجرائى ، في ٤٠٦/١٠١٥ . ولسنا نعرف — في الحقيقة — اختصاص هذا الديوان ، وما إذا كان موجوداً طيلة الحكم الفاطمى . وربما كان هذا الديوان يقوم بالإشراف على نفقات الخليفة الخاصة . انظر . ابن الصيرفى ، اشارة ، ص ٣٥ .

تخزين الفائض والاحتياطى من الأموال . وحسب هذا المبدأ ، كان « الخراج » ، يُخصص للانفاق على الأجناد وغيرهم من أرباب الوظائف فى الدولة ؛ حيث كانت رواتبهم من بين نفقات الدولة ، التى كانت تثقل كاهل الميزانية ؛ فكان على « ديوان الرواتب »^(١) ، أن يقوم بدفع « العطاء » إلى الأجناد والموظفين بانتظام كل شهر . كذلك كانت إيرادات المسكوس وغيرها تسد نفقات بعض موظفى الدولة وأجنادها^(٢) ؛ كما كانت ضريبة « النجوى » ، تُخصص للنفقة على الدولة الفاطمية .

أما عن قدر ارتفاع أموال الدخل ، فلدينا أرقام متباينة جداً ، وإن كانت ضخمة على كل حال^(٣) . وكان المبدأ السائد فى ذلك الوقت : أن تُقدم ميزانية الدولة كتابة ، لإحصاء قدر الارتفاع والنفقات . وكان ربط الميزانية — وهو من الأمور الشائعة فى الدول الإسلامية فى العصور الوسطى — يتم حسب السنة الشمسية ، لأن الخراج الذى يكوّن الجزء الأكبر من الدخل ، كان يجبى على حكم السنة القبطية أو الشمسية^(٤) . فكان على « ديوان النظر » و « ديوان التحقيق » ، المقابلة بين الدخل والصرف .

(١) صبح ، ٣ ، ص ٤٩٥ ؛ مقرئزى ، خطط ، ١ ، ص ٤٠١ .

(٢) مقرئزى ، خطط ، ١ ، ص ٩٩ ؛ انظر . Bouriant . p. 284 . Die Renaissance : Mez :

ترجمة ، ١ ، ص ١٢٧ . كان الإخشيد أول من فرض الرواتب بمصر .

(٣) صبح ، ٣ ، ص ٤٩٦ س ٤ .

ذكر المؤرخون أرقاماً متباينة . فى ٩٦٨/٣٥٨ ، بلغ ارتفاع الدولة من الخراج ٤٠٠٠٠٠٠٠ دينار . انظر . ابن حوقل ، مسالك ، ص ١٠٨ ؛ مقرئزى ، خطط ، ١ ، ص ٩٩ س ٣٦ — ٣٧ . Bouriant , p. 286 . وفى ٤٧٨ / ١٠٩٤ ، بلغت الضريبة ٣١٠٠٠٠٠٠ دينار . انظر . مقرئزى ، خطط ، ١ ، ص ١٠٠ س ٩ — ١٠ . Bouriant . p. 286 . وفى ١١٤٥/٤٥٠ ، بلغت الضريبة ١٢٠٠٠٠٠٠ دينار . انظر . مقرئزى ١ ، ص ١٠٠ س ١٨ . Bouriant p287 .

(٤) ابن ماقى ، قوانين ، ص ٢٧ ؛ خطط ، ١ ، ص ٢٧٣ — ٢٨٥ ؛ انظر . Die:Mez .

Renaissance ، ترجمة ، ١ ، ص ٨٢ .

وكانت نفقات الميزانية في مصر توزع بحسب الترتيب الآتي^(١)؛ وإن كنا
نجهل نفقات وارتفاع كل ديوان:

٢٠٠.٠٠٠ دينار للمصرف على الأرض البور أو غير المزروعة، بسبب الموت أو
هرب المزارعين.

٣٠٠.٠٠٠ دينار تُصرف كعطاء للأجناد وأرباب الوظائف.

١٠٠.٠٠٠ دينار ثمن غلة للقصور.

١٠٠.٠٠٠ دينار نفقات القصور.

١٠٠.٠٠٠ دينار نفقة العائز واستقبال الضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم.

١٠٠.٠٠٠ دينار فائض يُحمل إلى بيت المال.

إن العلاقة بين بيت المال، والنظام النقدي، موضوع طريف، في هذا الفصل.

فقد كانت مصر، منذ فتحها المسلمون إلى قبل مجيء الفاطميين، تستعمل
العملة التي تضر بها لها الخلافة السنية، وإن كان من اللازم، أن نستثنى الفترة
القصيرة التي كانت فيها مصر شبه مستقلة؛ فقد عرفت مصر، في ولاية الطولونيين
والإخشيديين، دنانير باسم ولايتها، ولقد كرر على سبيل المثال، الدنانير التي ظهرت
باسم أحمد بن طولون، وعرفت بالأحمدى^(٢).

ولما جاء الفاطميون من إفريقية، خلفاء لا يخضعون إلا لأنفسهم، استقروا

(٢) مقریزی، خطط، ١ ص ٨٢ س ٣٠ — ٣٧؛ ص ٩٩ — ١٠٠؛ انظر.
Bouriant, p. 237.

(٣) مقریزی، خطط، ١ ص ٤٢ س ٣؛ انستاس ماري، النقود العربية وعلم النميات،
Matériaux pour servir à l'hist. de la numis. et de : Sauvare. انظر. ٥٤؛
la métrol. musul, p. 122-123.

في مصر، وعملوا على إصدار عملة جديدة تحمل اسمهم ولقبهم وعقيدتهم الدينية^(١). فكان إصدار العملة باسمهم، في البلد الذي يحكمونه، يدل في كل وقت على سيادتهم السياسية، وعلى تأكيد نفوذ دولتهم، وعلى هزيمة أعدائهم، العباسيين. ولما كان الفاطميون من الشيعة، فإن عملتهم المصرية، كانت تحمل بالضرورة صبغتهم المذهبية؛ فكانت الدولة الجديدة باصدارها عملتها، تعان أيضاً عن عقيدتها الدينية.

وكانت العملة في عهد الفاطميين، كالعملة في كل الدول الإسلامية، تُعرف باسم السكّة، وهذه الكلمة، حسب قول ابن خلدون^(٢)، تدل على خاتم الحديد الذي تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة؛ ولذلك فإن لفظة السكّة أُطلق عليها وعلى الدار التي تصنع فيها؛ فسميت «دار السكّة» أو «دار الضرب»^(٣).

وقد صارت مصر بمجيء الفاطميين، مركزاً لضرب العملة الفاطمية، فوجدت دوراً لضرب موزعة في طول البلاد وعرضها: في القاهرة ومصر والإسكندرية وتنبس وقوص؛ وفي أرجاء الإمبراطورية: في صور وعسقلان وطبرية ودمشق وصقلية والمهديّة والمنصورية.

ولأهمية الإشراف على دور ضرب العملة الفاطمية، كانت تضاف إلى اختصاصات قاضي القضاة^(٤)، وتكتب في سجله من جملة ما يضاف إلى وظيفته؛ فكان يقوم بضبط الدنانير في العاصمة ويحضر في موعد الفتح والتعليق.

(١) يشير جوهر في كتاب «الأمان» إلى سكان الفسطاط، بضرورة تجديد العملة وتجويدها، لقطع الغش منها: انظر. اتعاز، ص ٦٧ — ٧٠؛ ابن حاد، أخبار ملوك بني عبّيد، تحقيق Vonderheyden، ص ٤٢، ترجمة، ص ٦٥؛ انظر. Annales, Canard. Vie de: Quatremère; de l'Inst, d'Et, Or, 6, 2-194 2-1946, p179. Muizz, J.A.S, 1836, p.438.

(٢) ابن خلدون، مقدمة، ٢ ص ٤٨؛ انظر. انستاس ماري، ص ١٠٣.

(٣) ابن ممان، قوانين، ص ٢٥؛ مقرئزي، خطط، ١ ص ٤٠٦، ٤٤٥.

(٤) صبح، ٣ ص ٤٦٦ س ٧ و٩؛ مقرئزي، خطط، ١ ص ٤٠٤؛ ٤٤٥.

وكانت العملة الفاطمية تتكون من الدينار والدرهم ، كالعملة في بقية العالم الإسلامي^(١) ، ولكن الفاطميين ، عند وصولهم مصر ، منعوا المعاملة بالعملة ذات الفئة الصغيرة ، مثل « المثقال و «القطع»^(٢) . وقد لاحظ المقرئ ، بكل دقة ، أن العملة في مصر كانت تضرب من المعدنين ، الذهب والفضة ، أما « الفلوس » ، وهي عملة من نحاس أو من نحاس مخلوط ، كانت تُعتبر دائماً غير قانونية^(٣) .

ولكن تغير نقش العملة الذهبية والفضية — في العهد الفاطمي — لتحمّل طابع الدولة السياسي والديني ، فكانت الصيغة الدينية للعملة تشتمل على العقيدة المذهبية الفاطمية ؛ وهذا يؤيد مرة أخرى ، شدة الصراع الذي كان بين الشيعة والسنة : فعلى أحد الوجهين ، كُتبت العقيدة الفاطمية^(٤) : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وعلى ولي الله » ، وعلى الوجه الآخر كُتب : اسم الإمام . وقد كان يُكتب أحياناً اسم الوزير^(٥) مع الخليفة ، على الأخص إذا كان وزير سيف ؛ كما قد ينقش أيضاً اسم « ولي العهد »^(٦) : كذلك كان يؤرخ للسنة التي ضُربت فيها العملة ، ويكتب اسم بلد ضربها . وإن كان أهم ما يميز العملة الفاطمية العبارة

(١) كان « الدينار » وحدة العملة الإسلامية ، من الذهب . وهي كلمة أصلها لاتيني « Denarius » ، استخدمت في عملة روما ؛ فدخلت هذه الكلمة في العربية بتجريف خفيف « دينار » . وعلى العكس ، فإن درهم ، لفظة فارسية معربة ، كانت من الفضة . انظر . انتاس ماري ص ٢٣ — ٢٥ والملاحظات .

(٢) مقدسي ، ١ ص ٢٠٤ : انظر . Sauvare p. 49 .

(٣) انتاس ماري ، ص ٥٤ و ٦٠ ؛ Massignon ؛ L'influence de l'Islam au Moyen-Age sur la fondation et l'essor des banques Juives, Bull.d' Et. Or, Paris 1931, p. 10 . منذ صلاح الدين ، استخدمت مصر في صنع الدراهم ، النحاس أو النحاس المخلوط بالفضة . واصل كلمة « فلوس » جمع « فلس » ، يوناني أو لاتيني . انظر . انتاس ماري ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ .

(٤) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٥٠ : انظر . Cat. des monnaies : Lavoix . انظر . Sauvare, p, 228 ؛ musulmanes, de la bibl, N, p.66;67;68;69;86.

ماري ، ١٠٦ .

(٥) السيوطي ، حسن ، ٢ ص ١١٦ .

(٦) نفسه ، ٢ ص ١٥٤ .

التي تدل على جودتها: فكان يُنقش عليها عبارة: «عال»^(١) أو «عال غاية»؛ وهذه العبارة هي «العلامة»، أي الرمز الذي يبين صرف العملة على المعيار الرسمي، وقد قلدها الأيوبيون والصلبييون من بعدهم^(٢).

وفي الواقع، لم يمنع الفاطميون كمية عند وصولهم مصر، التداول بالعملة السنية، فأبقوا التعامل، مثلاً، بالدينار «الراضي»^(٣)، على اسم الخليفة العباسي الراضي؛ وبالدرهم «الرباعي»^(٤)، المضروب في عهد الخليفة العباسي المأمون؛ وبالدينار «الأبيض»^(٥)، الذي كان متداولاً في عهد الأمويين^(٦).

كذلك أوجد الفاطميون عملة جديدة، وضعوها في التداول، وتشددوا في جباية خراج الدولة بها^(٧)؛ فنذكر منها: الدينار «المعزي»^(٨)، على اسم الخليفة الفاطمي المعز؛ والدينار «المغربى»^(٩) الذي أدخله الفاطميون من المغرب. كما ظهرت لهم عملة ذات شكل معين، برسم بعض الأعياد، فكان يُضرب من الذهب، برسم خميس العُدس^(١٠)، عملة باسم «خراريب»، وهي دراهم خفاف مدورة،

(١) Cat. des monnaies, 3, p. 154 : 162 ; 166 ; 169 : Lavoix .

(٢) نفسه، مقدمة، ٢ ص ٢٢ .

(٣) مقرئى، خطط، ٢ ص ٦ س ٣ .

(٤) نفسه، ١ ص ٣٩٨ س ٢؛ ٤٥٠ س ٢٢؛ مقدسى، ص ٢٤٠؛ أنظر.

: Sauvare, p. 157 ; Mém. Géog et Hist. sur l' Eg. 2, p315 : Quatremère

افستاس مارى ص ٤٨ .

(٥) خطط، ٢ ص ٦؛ ابن ميسر، ص ٤٥ .

(٦) انستاس مارى، ص ٤٢ — ٤٣ . سك الحجاج هذا الدينار .

(٧) خطط، ٢ ص ٦ س ٢؛ أنظر. Sauvare, p 228 .

(٨) خطط، ٢ ص ٦ س ٢؛ ابن ميسر، ص ٤٥؛ أنظر. Sauvare, p.224 - 9 .

(٩) أنظر. Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 132 - 3؛ ابن الأثير، ٩، ص ٣٠٨؛

Sauvare, p. 229 - 230 .

(١٠) مقرئى، خطط، ١ ص ٤٢٥؛ ٤٥٠؛ ٤٩٥؛ أنظر. Sauvare p 78 .

وهو من الأعياد القبطية التي يسمها أهل مصر بالغلط «خميس العُدس». وكان نصارى مصر، يعملون هذا العيد قبل النيروز (وهو عيد رأس السنة القبطية) بثلاثة أيام. أنظر. بعده؛

نفسه، ١ ص ٢٦٦؛ ٤٩٥؛ صحح، ٢ ص ٤١٧؛ Dozy : Suppl, I, p 185 .

تساوى $\frac{1}{8}$ العملة العادية؛ كما كانت تُضرب أيضاً، في مناسبة موسم أول العام^(١)،
عملة تُعرف باسم « الغرّة »، وهي من الدينار والدرهم المدورة أيضاً.

وكانت « مقادير »^(٢) العملة وتغييرها، يتم حسب رأى الإمام، وتُصرف
بالضرورة على عيار الدينار والدرهم الرسمى^(٣). وحسب شهادة كتّاب العرب^(٤)،
ومؤرخى الفرنجة، كانت العملة تُوزن ولا تُعد؛ فكانت قيمة الدينار إلى الدرهم،
تتراوح بين ١ : $\frac{1}{4}$ ١٥^(٥) و ١ : ٣٦^(٦). ولكن بسبب كثرة العملة في المعاملة،
أو تأكلها أو تداخل الغش فيها، فإنها تتذبذب في القيمة، مما يترتب عليه تزايد
أسعار المبيعات؛ فكان من الصعب، أحياناً، التمييز بين (الخالص)
و(البهرج)^(٧)؛ بحيث كانت الدولة تلجأ إلى خفض الأسعار، بمنع العملة الرديئة
في المعاملة^(٨).

وقد كان من عمل (الصيارفة) سحب هذه العملة الرديئة من التعامل، ووضع

-
- (١) صبح، ٣، ص ٥٠٩؛ مقرئى، خطط، ١، ص ٤٤٥؛ ٤٥٠، ص ٢٠.
(٢) هذه الكلمة — في الواقع — مرادفة لكلمة « وزن ». انظر. Sauvare. p.53.
(٣) ابن خلدون، مقدمة، ٢، ص ٥١.
(٤) مقرئى، خطط، ص ١٩٣، ص ٢٥؛ انظر. Sauvare, p. 298. كان عطاء
رجال الأسطول يوزن في حضرة الخليفة ووزيره.
(٥) مقرئى، خطط، ٢، ص ٦، ص ٤.
(٦) نفسه، ٢، ص ١٩٣، ص ٢٥—٢٦.
(٧) ابن خلدون، مقدمة، ٢، ص ٤٨؛ انظر. Sauvqire p.141. كلمة « بهرج »
استعراب كلمة « نبرة »، بمعنى مغموشة. وبالعكس، كلمة « الخالص » من فعل
« خلص »، بمعنى غير مخلوطة بمادة أخرى. انظر. أنستاس مارى، ص ١٣؛ ٣٠؛ ١٠٣.
(٨) ابن ميسر، ص ٤٩.

عملة جيدة بدلا منها . ويروى المقر يزي أنه كان للصيارفة — في ذلك العصر — رجة تُعرف « بركة الصيارفة » ، بجوار المسجد الجامع في مصر^(١) . ولما كان الدين يمنع المسلمين من الاشتغال بالمسال ، فإن معظم أعمال الصيرفة ، كانت في أيدي النصارى واليهود^(٢) . فهكذا كانت الصفقات المالية ، بين القاهرة والمرآكز التجارية الأخرى مثل بغداد، تتم تحت إشراف هؤلاء الصيارفة^(٣) . إن أكبر الظن، أن القاهرة في ذلك الوقت، أصبحت مركزاً رئيسياً للمعاملات المالية ؛ بسبب نشاطها التجاري ؛ كمركز للصادر والوارد .

الردارة المحلية : التقسيم الإدارى — تعيين الولاة — نظام الولايات .

لا نملك عن نظام حكم الولايات معلومات وافية ؛ غير أن الجدول^(٤) انخاض بضرعية الخراج في عهد المستنصر ، يبين لنا مدى التغيير الذى حدث في ذلك العصر ، فى التعابير الإصطلاحية الإدارية ، ولا سيما فى أوائل حكمه . فقد استعملت كلمة « عمل » جمعها « أعمال » بمعنى مديرية ، وكلمة « ناحية » جمعها « نواح » بمعنى مركز ، وكلمة « كفر » أو « قرية »^(٥) . أما كلمة « كورة » بمعنى مركز ، التى

(١) مقر يزي ، خطط ، ٢ ص ٣٤٠ س ٣٠ .

(٢) انظر . L'influence de l'islam au Moyen-Age sur la fondation , Massignon .
The origin:Walter Fischel;et l'essor des banques juives, B,E,O, 1931,p 10.
of Banking in mediaeval Islam, j R, A, S, April, 1933, p 341.

(٣) فى ذلك العصر ، بدلا من نقل المال من يد إلى يد ، كان يلجأ إلى وسيلة مصرفية ، فكانت التعابير الإصطلاحية : « سفتاجه » و « صك » و « رقعه » و « خط » تدل على إذن الصرف . انظر . Fischel . Origin of Banking. J.R.A.S, 1933 p. 576-7 .

(٤) أبو صالح ، السكائس ، تحقيق Evetts ، (١٧ — ١٩) ص ١٠ — ١١ ،

(٥) نفسه .

أخذها العرب كأساس لتقسيمهم الإداري — نقلاً عن البيزنطيين ، و بقيت دون تغيير في عهد الطولونيين ^(١) — فإنها لم تعد تستعمل بعد حكم المستنصر ؛ بل نضيف إلى ذلك ، أن المعلومات التي لدينا عن استعمال كلمة « كورة » ، قبل الخليفة المستنصر ، لا تبدو اطلاقاً دقيقة

فصار « العمل » — وهو أكبر من الكورة — الوحدة الإدارية للبلاد ، يشتمل على « النواحي » و « القرى » ؛ فقسمت مصر في عهد الفاطميين ، إلى واحد وعشرين عملاً ^(٢) ، في حين أنها كانت تشتمل على ستين كورة في العصر الطولوني ^(٣) . وقد عرفت مصر فيما بعد تقسيماً جديداً ؛ فتناقص عدد الأعمال إلى اثني عشر عملاً ، في سنة ٧١٥ / ١٣١٥ ، في ظل السلطان الناصر ^(٤) .

وعلى العكس ، لم يحدث أي تغيير في المصطلحات التي كانت تدل بالأحرى على تسميات جغرافية ؛ فقد كانت أرض مصر في الجملة قسمين : « أسفل الأرض » و « الصعيد » ^(٥) . وكان يطلق أيضاً على « أسفل الأرض » اسم « الريف » ؛ وهو ينقسم إلى « باطن الريف » (البلاد الواقعة بين فرعى النيل) ، و « الحوف الغربي » (البلاد الخصبية من الدلتا الموجودة غرب فرع رشيد) ، و « الحوف الشرقي » (البلاد الواقعة شرق فرع دمياط) . أما « الصعيد » ، فإنه كان ينقسم إلى « الصعيد الأدنى » و « الصعيد الأعلى » ^(٦) .

ومع أن البلاد كانت مقسمة إلى واحد وعشرين عملاً ، فإن القلقشندي ^(٧) ،

(١) انظر . Zaki . Les Tulunides, p, 196 .

(٢) أبو صالح ، الكنائس (١٧ — ١٩) ص ١٠ — ١١ ؛ ترجمة ١٧ — ١٨ .

(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٧٢ — ٧٣ ؛ انظر . Zaki . LesTulunides, p,197.33:Wustenfeld. The Delta in the, :Guest; Die Geog, p92. Middle-Ages; J.A.R.S. October, -1912, p941 sq.

(٤) على حسن ، تاريخ المماليك ، ص ٢٦٦ .

(٥) صبيح ، ٣ ، ص ٣٨٠ — ٣٨٥ ؛ انظر . L'Egypte, Ency, del'Is!, 2, p12:Becker .

(٦) رسائل المستنصر : (٥٦) ورقة ٣٠٢ .

(٧) صبيح ، ٣ ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

لا يذكر غير أربعة أقسام إدارية سياسية ، يقال لكل منها « ولاية » جمعها « ولايات » ؛ على رأس كل منها حاكم يعرف « بالوالي » ، فكانت الولايات ، بحسب قوله ، موزعة على أساس ولاية واحدة بالصعيد ، وثلاث بأسفل الأرض .
ففي الصعيد ، توجد ولاية قوص الهامة ، التي يحكم متوليها على جميع بلاد الصعيد . أما أسفل الأرض ، فيشتمل على : ولاية الشرقية التي يحكم متوليها على أعمال بليس و قليوب وأشموم ؛ وعلى ولاية الغربية التي يحكم متوليها على أعمال الحلة ومنوف وأبيار ؛ وأخيراً على ولاية الإسكندرية التي يحكم متوليها على أعمال البحيرة بأجمعها .

هذا التقسيم الذي أورده القلقشندي ، لا يبدو دقيقاً ، ذلك لأن مؤرخي العصر الفاطمي يذكرون أسماء ولاية كثيرين ، لم يذكرهم القلقشندي . وفوق ذلك ، كان للمدن التي تجاور الولايات ، مثل : الإسكندرية وتينيس وعيذاب^(١) ، ولاية يحكمونها . كذلك يشير القلقشندي نفسه^(٢) ، إلى سجلات عديدة ، لولاة الوجهين القبلي والبحري فلعل هذه الولايات الأربع الكبيرة ، تدخل تحت حكمها الولايات الصغار وبعض مدن الحدود ، أو تكون هي التي استقر عليها الحال في آخر دولتهم^(٣) .

وقد كان حكام هذه الولايات يخضعون للسلطة التنفيذية ؛ فكانوا يعينون بسجل^(٤) في أوائل الحكم الفاطمي ، من بين عناصر متعصبة للدولة ، لتقوية السلطة المركزية . فيحدثنا المقرئ^(٥) ، بأن المغاربة جعلوا في الولايات في البلاد .

(١) مقرئ ، خطط ، ١ ص ١٧٤ س ٣٤ ؛ ١٨١ س ٢٣ ، ص ٢٠٣ .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٨ س ١٢ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٤٩٨ س ١٠ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٤٩٨ س ١٢ — ١٣ .

(٥) اتعاظ ، ص ٨٧ .

وفي بادئ الأمر ، كان الخليفة يعين الولاة من قبله ، ولكن عندما ضعفت سلطته ، أصبح تعيين الولاة من قبل وزراء السيوف . والواقع أن سلطة الخليفة الواسعة ، أخذت في الضعف شيئاً فشيئاً ؛ فيروى المؤرخون ، أن الوزير طلائع بن رزيك^(١) ، كان يبيع ولايات الأعمال بأسعار مقررة .

وكان ضعف الخلفاء أيضاً ، سبباً في زيادة سلطة الولاة ، بحيث أصبحت الوزارة — في القرن الثاني من الحكم الفاطمي — احتكاراً لحكام الولايات . ومن الطريف أن نذكر ، أن بعض وزراء الخلفاء — في أواخر الدولة — كان معظمهم من ولاية قوص ، التي أصبحت في ذلك الوقت ، كالوزارة في الأهمية^(٢) .

وكانت اختصاصات الولاة تتمثل قبل كل شيء في النيابة عن السلطة التنفيذية في كل ولاية ؛ وإن كنا لا نستطيع أن نقرر أن لكل والٍ جيشاً من العسكر للحفاظ على هيبة الدولة ، هذا ، ويروى المقرئ^(٣) بأن ولاية الثغور كانوا يستخدمون جيوشاً مستعدة بالأسلحة لحفظ الثغور ، علي الأخص جيوش : أسوان وتنيس والقنم .

ومن الحق ، ان إدارة الولايات في زمن الفاطميين كانت أفضل تنظيمياً وأكثر استقراراً ؛ فكانت العلاقة بين الإدارة المركزية والإدارة المحلية أشد وأقوى : فنذكر ، على سبيل المثال ، ديوان الإنشاء في القاهرة ، الذي كان يشتمل على « أضاير » تحتوي تفاصيل الإدارة المحلية^(٤) ، عليها « بطائق » تدل على محتوياتها .

(١) مقرئ ، خطط ، ٢ ص ٢٩٤ س ١٧ — ١٨ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٣ ص ٦٥ .

(٢) أبو الغدا ، Annales ، ٣ ص ٥٨٦ .

(٣) مقرئ ، خطط ، ١ ص ١٩٨ س ٣٦ ؛ ١٨١ س ٢٢ ، ٣١٣ س ٨ .

(٤) ابن الصيرفي : أنظر Code, p 109

ونلاحظ باهتمام شديد ، بدء ظهور روح انفصالية بين السلطة التنفيذية والسلطة القضائية ، في الإدارة المحلية ؛ فقد كان قضاة الولايات (خلفاء النواحي)^(١) والمحاسبون^(٢) ، يقومون بعملهم القضائي ، نائبين عن رؤسائهم في القاهرة . ولكن لم تصلنا أية تفصيلات ، عن الشرطة في الولايات ؛ وإن كنا نظن بأن حكام الولايات يقولون بأنفسهم عمل الشرطة ، لاعتمادهم في ذلك على قوة العسكر .

وأهم ما يميز هذه الإدارة المحلية هو نظام الدعوة ؛ فكان الدعاة يعملون — على ما يظهر — في أماكن كثيرة في الولايات ، فمثلاً كان في القلزم داعية^(٣) . ولسوء الحظ ، أننا لا نستطيع أن نعطي فكرة واضحة عن نشاط الدعاة الفاطميين في الولايات ، وذلك لأن أهل القرى المصرية ، كان معظمهم من أهل السنة المحافظين ، الذين لم يكن من السهل تحويلهم عن مذهبهم التقليدي .

وكذلك كان يوجد في مدينة الإسكندرية ، موظف مالي « ناظر »^(٤) ، على نسق ما كان في القاهرة ، وقد كان هذا الموظف عنصراً هاماً في إدارة المدينة . ولكن بسبب نقص معلوماتنا ، عن الإدارة المحلية ، لا نستطيع التمدادى في وصفها في ظل الدولة الفاطمية .

(١) ولاية ، ص ٥٩٢ .

(٢) مقر بزي ، خطط ، ص ٤٦٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢١٣ س ٨ .

(٤) نفسه ، ص ١٧٤ س ٣٥ ؛ ١٧٥ س ٦ — ٧ .

الفصل الرابع

النظم الدينية

القضاء والدعوة .

يُطابق على مناصب رجال الدين — في الدولة الفاطمية في مصر — «الوظائف الدينية»^(١)، وهي كالموظائف الإدارية، تُعتبر من ضمن وظائف أرباب الأقاليم، وتشتمل على نظم القضاء والدعوة : وهما الدعوات المميزتان للدولة الفاطمية في مصر؛ فالأولى تتركز على الشعائر القانونية الفاطمية أو الشيعية ، والثانية على العقيدة الرسمية أو السرية . وكان أرباب الوظائف الدينية — عند الفاطميين — يمارسون هذه أو تلك دون تفرقة ، لأنه لم يكن يوجد حد فاصل بين الدين والقانون في الدولة الإسلامية^(٢)، وعلى الأخص في دولة مذهبية كدولة الفاطميين، حيث تسيطر العقيدة على كل نظم الدولة .

القانون الشيعي :

فحينما جاء الفاطميون من إفريقية ، خلفاء منافسين لخلفاء بغداد ، أقاموا لدولتهم في مصر سلطة قضائية مستقلة ، وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ القضاء المصري ، أصبحت فيه السلطة القضائية — مثل غيرها من السلطات — ملكاً للشيعية .

(١) صبح ، ٣ ص ٤٨٦ .

(٢) -Fyze : Law and culture in Islam, Isl . Cult, Oct, 1943, XVII, p.423 .

ولقد عمل الفاطميين على احلال القانون الشيعي محل القانون السني ، الذي كان أساس الحكم ، منذ غزوة العرب لمصر في ٢١ / ٦٤٢ . فكان هذا القانون الشيعي مهماً ، ليس فقط من حيث استنباط الأحكام في القضايا ، وإنما أيضاً لأنه يؤيد سلطة الدولة ، لمكانة العقائد الشيعية في بقاء دولتهم . هذا ، وأنه في الإسلام ، لا انفصال بين القانون والعقيدة ، فالشريعة جزء من الدين ، بخاصة في دولة الفاطميين المذهبية ، التي يرتبط فيها القانون بالعقيدة .

ومع ذلك ، فإنه لم يحدث تغيير كبير في النظام القضائي ، حينما حلت القوانين الشيعية محل القوانين السنية ، لأن الاختلاف بين التشريع الشيعي والتشريع السني ليس كبيراً . ونحن لا نجد من بين الفقهاء ، أو كتاب التشريع الإسلامي ، من أبرز الاختلاف بين التشريعين ، بل إن بعض الفقهاء لا يجدون للشيعة أو للاسماعيلية فقهاً خاصاً بها ^(١) . ولندكر أنه في عهد المعز ، ترك أبو الطاهر الذُهلي في وظيفة القضاء ظل النظام الجديد ، بالرغم من أنه مالكي المذهب ^(٢) ؛ كما أن قضاة شيعيين ، قدموا مصر في صحبة الخليفة المعز ، عاونوا أبا الطاهر في وظيفته وفي القضاء ^(٣) . فإذا لم ير الفاطميون غضاضة في تولية قاض سني القضاء في عهدهم ، كان معناه أن الاختلاف بين التشريع الشيعي للدولة الجديدة والتشريع السني ليس كبيراً ، ثم إن تولية القضاء سنين وشيعة معاً ، يبرهن على تشابه التشريعين . وقد لاحظ القلقشندي ذلك حينما قال : إن الفاطميين تركوا مذاهب مالك والشافعي ظاهرة الشعار في مصر ^(٤) .

Ismaili law and its founder, Isl. Cult, vol, IX, No 1, Jan. 1935, : Fyzee (1)
Culturgeschichte, I, p. 511 : Kremer. : p 107

(٢) ولاة ، ص ٨٤ .

(٣) منهم النعمان بن محمد بن حيون وعبد الله بن أبي ثوبان . ثم بعد موتهما في ٣٦٣ / ٩٧٤ ، أشرك المعز على بن النعمان مع أبي الطاهر في الحكم . وفي عهد العزيز ، اعتزل أبو الطاهر الحكم ، وكفل قضاء مصر ، وما يتبعها في ٣٦٦ / ٩٧٦ ، إلى علي . أنظر . ولاة ،

٥٨١ — ٥٨٥ ؛ ٥٨٦ ؛ ٥٨٧ ؛ ٥٨٩ ؛ ٥٨٩ ؛ السيوطي ، حسن ، ٢ ص ٩١ .

(٤) قلقشندي ، ٣ ص ٥٢٤ ؛ السيوطي ، حسن ، ١ ص ٢١٢ ، أنظر . Mez : =

وفي الواقع ، أن كلا التشريعين : السني والشيعة ، يعتبر القرآن المستودع الأول للقوانين ، والمصدر الأساسي للتشريع^(١) . ومع ذلك ، فهو لم يكن المصدر الوحيد للعقيدين ، فهناك السنة أيضاً ، وهي مجموعة الأحاديث ، الخاصة بالعقيدة أو الحياة ، التي نقلت عن النبي في مناسبات عديدة ، وهي تحوى قوانين كثيرة ، وتكون المصدر الثانی للتشريع . وأنه لمن الخطأ حقاً ، أن يظن بأن كلمة شيعة وسنة ، تعنى أن الشيعة ليس لها أحاديث نبوية ؛ فقد روى أهل الشيعة أحاديث كثيرة ، مثل تلك التي عند السنة .

وأحاديث الشيعة تسمى « بالأخبار »^(٢) ؛ وأغلبها منقول عن الأئمة أو عن الثقات من محدثي الشيعة ، ويؤمن الشيعة بصحتها المطلقة ، لعصمة نقلتها من الأئمة أو من غيرهم ؛ ولكن السنيين لا يوافقون — بطبيعة الحال — على عصمتها ، ومع ذلك ، يمكننا أن نقرر أن كثيراً من الأحاديث عند السنة والشيعة مشتركة ، وإن اختلف الرواة عند كل منهما .

ومن الحق ، أن الاختلاف بين المذهبين لا يأتي من هذين المصدرين ،

Die Renaissance = ، ترجمة أبي ريبة ، ١ ص ٣٥١ . كان مذهب مالك والشافعي منتشرين في مصر ، قبل مجيء الفاطميين ، فالأول انتشر وذاع على يد عبد الرحمن (م ١٦٣ / ٧٧٩) ؛ وقد سيطر وحده إلى أن جاء محمد الشافعي في ١٩٨ / ٨١٣ ، واستقر في القسطنطينية ، وصار له اتباع كثيرون . وعلى العكس ، لقي مذهب أبي حنيفة ، مقاومة شديدة من جانب مذهب مالك والشافعي ومن جانب الفاطميين أيضاً ؛ فإنهم — كما يروى القلقشندي — أعداء طبيعيين للمذهب الحنفي . ولعل هذا العداء راجع إلى نشأة هذا المذهب في العراق ، مهد الخلافة العباسية ؟ على كل حال ؛ دخل المذهب الحنفي مصر ، بعد زوال دولة الفاطميين ، على يد قواد نور الدين شيركوه وصلاح الدين . أما مذهب ابن حنبل ، فلم يدخل مصر ، إلا في عهد يبرس المندقداري ، لأول مرة ، وإن لم يتوطد نفوذه في البلاد في أي وقت من الأوقات . السيوطي ، حسن ، ١ ص ٢٧٧ ؛ مقرريزي ، خطط ، ٢ ص ٣٣٤ ، ٣٤٣ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ٣ ص ٤ — ١٢ ؛ أنظر .

« L' Egypte » Ency de l' Isl, 2, p. 22. : Becker

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ٣ ص ١ .

(٢) النعمان ، دعائم ، ١ ص ٦١ ، انظر . Die Renaissance : Méz . ، ترجمة أبي ريبة ،

ولكن من تفسيرهما : فقد جرت العادة — عند الشيعة والسنة — أن يُقارن القانون بشجرة لها « أصول » و « فروع » . فالأصول : وهى أساس القانون ، ترتكز على القرآن والحديث ، أما « الفروع » : فهى تفسير الأصول ، أو بمعنى آخر تطبيق الأصول ، أو ما يعرف بعلم الفقه ، وهذا هو المصدر الثالث للتشريع عند الطرفين ، وهو نقطة الخلاف الجوهرية التى تفصل بينهما .

فهذا المصدر الثالث — عند الشيعة — صادر قبل كل شىء عن الإمام ، فلا تقبل الشيعة أى تفسير آخر من غيره ، لأن الشرع — فى رأيهم^(١) — لا يتكامل ولا يستكمل ولا يستقيم ، إلا بتفسير الامام الذى له حق استخراج الأحكام . ويعتقد الشيعة بضعف العمل الأدبى عن أن يقوم بتفسير الأصول ، ولذلك فإن عقل الإمام غير عادى^(٢) ، فهو بمعارفه العليا فى الدين ، يعرف ما وراء معانى القرآن^(٣) .

ومن ناحية أخرى ، كان تفسير الأصول بواسطة شخص آخر غير الإمام ، سبباً فى حدوث اختلاف واضطراب فى تطبيقه^(٤) ، لذلك ، لا تأخذ الشيعة أحكامها (بالاجتهاد) الشخصى ، ولا (بالرأى) المبني على المعارف فى المواد القانونية ، ولا (بالقياس) المطبق حسب المنطق فى المسائل الدينية الخاصة بالقانون موضوع البحث ، ولا (بالاستحسان) وذلك بإصدار رغبة فى إدخال تعديل فى القانون ، ولا حتى (بالنظر) وذلك بالبحث والاستقصاء فى مواد القانون .

(١) تاج العقائد ، ص ٣٧ . انظر . محصاني ، فلسفة التشريع ، ص ٦١ ؛ كرد على ،

الإدارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٢٧٦ .

(٢) النعمان ، دعائم ، ص ٢٧٦ .

(٣) النعمان ، المجالس ، ١ ورقة ٢٨٨ .

(٤) تاج العقائد ، ص ٤٢ .

وبالجملة ، فإن الفاطميين لا يعترفون إلا برأى الامام وحده ، دون الآخرين ،
في استخراج الأحكام^(١) .

ومع ذلك ، فإننا نستطيع أن نؤكد أن تفسير الإمام للأصول لا يختلف عن
تفسير فقهاء السنة أو المذاهب غير السنية كالإمامية ، وذلك ، لأن رأى الإمام —
في الواقع — يعتمد على الأصول : القرآن والحديث .

وفوق ذلك ، كان تفسير الإمام ، أمام رأى مجاهد ، يشبه الإجماع عند الفقهاء
على اختلاف مذاهبهم ، أضف إلى ذلك ، أن (الاجتهاد) لم يُمنع بقائماً ، عند
الشيعة^(٢) ، فهم يتركونه ، على شرط أن يكون قائماً في أسسه على الأصول ، وعلى
رأى الإمام . وليس على البحث الشخصي المستقل ؛ فدور المجتهد هنا دور (مقيد) ،
على عكس دور الإمام ، باعتباره المجتهد (المطلق) .

وعلى هذا ، فإن الشريعتين السنية والشيعة ، تعتمدان على أصول واحدة ،
ولا تختلفان حتى في تطبيق هذه الأصول ، ولكن الفاطميين وهم خلفاء مستقلون
في مصر ، كانوا يريدون أن يسيطروا على القضاء في مصر ، ولذلك
لزم أن يكون القضاء ، بالقانون الإسماعيلي وليس بغيره^(٣) . ومع هذا ،

(١) نفسه ، ص ٤٧ .

(٢) le Califat, P.63. : Sanhoury

(٣) لما أقر العز أبو الطاهر المالكي في منصب القضاء ، في ظل النظام الجديد ، طلب منه
الحكم في القضايا حسب القانون الشيعي . انظر . ولاة ، ص ٥٨٤ .
وحتى الفتيا ، وهي نظام ذوصلة وطيدة بالنظام القضائي الإسلامي ، كانت تؤخذ حسب
القانون الشيعي . ففي صفر ٣٨٢ / أبريل ٩٩٢ ، لما ثار فقهاء المذاهب الأخرى ضد أخذ
الفتوى بالقانون الشيعي ، اتخذ محمد بن النعمان كبير القضاة ، في ذلك الوقت ، بعض العقوبات ضدهم .
انظر . نفسه ، ص ٥٩٤ .

والواقع أنه في ظل خلفاء متعصبين أو أتقياء ، كانت المطالبة بقضاء شيعي محض تتخذ مظهر
الاضطهاد ، بحيث لم يكن يسمح للمذاهب الأخرى بالبقاء ، لا في الظاهر ولا في الخفاء . ففي
٣٨١ / ٩٩١ في عهد الخليفة العزيز ، ضرب رجل بمصر من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ للمالك
ابن أنس . انظر . خطط ، ٢ ص ٣٤١ س ١٦ — ١٧ . وفي ٣٩٣ / ١٠٠٢ في عهد الحاكم ،
قبض على ثلاثة عشر رجلاً من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى ، حسب المذهب السني . انظر . =

لم يمنعوا نهائياً أئمة المذهب السني من القضاء في مصر ، وإن وجدنا بعض الفقهاء
السنيين ، ممنوعون أتباع مذهب سني مخالف ، من الحكم بحسبه ، منعاً
لاضطراب العدالة^(١) . فالقضاء ، في عهد الفاطميين إذاً ، ظل سائراً على منواله ،
بحسب القانون الشيعي .

وقد اتبع الفاطميون نفس التقسيم القضائي ، الذي اتبع في الدول الاسلامية
في العصور الوسطى ، وذلك بأن يتولى كبار أرباب الوظائف الدينية الإشراف
على القضاء في مصر والامبراطورية . فكان هؤلاء الموظفون الكبار ، هم : قاضي
القضاة ، وصاحب المظالم ، والمحاسب ، وصاحب الشرطة . ولم توجد تفرقة
دائمة بين هذه المناصب الأربعة ، لأن أرباب الوظائف الدينية ، كانوا يمارسون
وظائف القضاء دون تمييز .

قاضي القضاة : لقبه - توليته - اختصاصاته - مساعدوه - جلوس القاضي للقضايا - اختياره .

عند وصول الفاطميين مصر ، أصبحت القاهرة مثل بغداد وقرطبة ، مقر
كبير القضاة (قاضي القضاة) .

فقبلهم لم يكن يوجد غير قاض بسيط ، يعين من قبل الخليفة السني ، في بغداد .
ولكن للمرة الأولى في مصر . ظهرت وظيفة قاضي القضاة ، وبذلك صارت رتبته

== نفسه ، ٢ ص ٣٤١ س ٢٥٠ . وفي ١٦/٤/١٠٢٥ ، أخرج الخليفة الظاهر من بمصر من
الفقهاء المالكيين وغيرهم ، وعمل على تقوية القانون الإسماعيلي ، بأن أمر الدعاة بأن يحفظوا الناس
عن ظهر قلب كتابي : دعائم الإسلام ومختصر الوزير ، وهما من كتب الفقه الفاطمي . انظر .
نفسه ، ١ ص ٣٥٥ س ٧ .

أعلى من جميع القضاة الآخرين ، مما يدل على سيطرة القاهرة القضائية في
الامبراطورية .

ولم يظهر لقب قاضي القضاة — كما لم يظهر لقب وزير — في عهد أول خليفة
فاطمي في مصر ، وذلك لأن الفاطميين ، عند وصولهم مصر في ٣٥٨ / ٩٦٩ ،
وجدوا القاضي أبا الطاهر معيناً من قبيل الخليفة العباسي ، منذ ٣٤٨ / ٩٠٩^(١) ؛
فرغبة منهم في تحاشي اغضاب الشعب المصري السني ، أقر جوهر — قائد جيش
المعز — القاضي أبا الطاهر على حاله في القضاء ، في ظل النظام الجديد^(٢) . وقد
أقر المعز بدوره ، عند وصوله مصر في ٣٦٢ / ٩٧٧ ، أبا الطاهر في منصبه ،
متبعاً نفس سياسة جوهر ؛ ولكن أشرك معه في الحكم النعمان بن حيون وابن
أبي ثوبان ، وهما قاضيان فاطميان ، صحباها إلى مصر^(٣) . ولا يظهر لنا أن أحداً
من هؤلاء الثلاثة قد تلقب رسمياً بلقب قاضي القضاة ؛ فقد كان النعمان يُلقب
بقاضي العسكر وابن أبي ثوبان بقاضي مصر والاسكندرية . ولما مات النعمان
وابن أبي ثوبان ، أشرك المعز مع أبي الطاهر ، علياً الابن الأكبر للنعمان ، دون
أن يلقبه بلقب قاضي القضاة ؛ فكان أبو الطاهر يجلس للقضاء في الجامع الأزهر ،
وعلى يجلس للقضاء في جامع مصر^(٤) .

ولكن في عهد العزيز ثاني خلفاء الفاطميين ، ظهر لقب قاضي القضاة ،
لأول مره في مصر^(٥) . فقد ضعف نفوذ أبي الطاهر بسبب إشراك علي بن النعمان
في الحكم ، وقد أراد العزيز في أوائل حكمه ، أن يحرم أبا الطاهر من القضاء حتى

(١) ولاة ، ص ٥٨٢ س ٧ .

(٢) نفسه ، ص ٥٨٤ ؛ السيوطي ، حسن ، ٢ ص ٩١ .

(٣) نفسه ؛ نفسه .

(٤) ولاة ، ص ٥٨٧ س ٢ .

(٥) نفسه ، ص ٥٨٩ — ٥٩٠ ؛ السيوطي ، حسن ، ٢ ص ١٠١ .

في الجامع الأزهر ، لولا تدخل الشهود والأشراف لصالحه . ولما أصيب أبو الطاهر برطوبة عطلت شقته فعجز عن الحركة ، عمل العزيز على التخلص منه نهائياً ، بتقليد القضاء كاه لعل بن النعمان . فيقول ابن حجر ، إن علياً هو أول من خطب بقاضي القضاة ، في صفر ٣٦٦ / ١ أكتوبر ٩٧٦^(١) .

وقد كان تعيين قاضي القضاة — كغيره من أرباب الوظائف الأخرى — من قبل السلطة العليا ، فكان الخليفة يفوض منصب القضاء إلى شخص يحمل هذا اللقب^(٢) . ولكن في النصف الثاني من حكم الفاطميين ، كان القضاء مندرجاً في عموم منصب وزراء التفويض ، فكان الوزير منهم يتلقب بلقب : « كافل قضاة المسلمين »^(٣) ، ولذا كان وزراء التفويض منذ بدر الجمالي ، يقلدون بأنفسهم في القضاء من يقوم به ، ويعتبرون قاضي القضاة (نائباً) عنهم^(٤) ، ويلقبونه فقط « بالقاضي » . ومع ذلك ، كان كتاب التولية يخرج بالضرورة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة ، ولدينا ، مثال بولاية أحد قضاة الخليفة العاضد^(٥) ، إذ في كتاب التولية يقرر الخليفة للقاضي ، الفيابة عن الوزير صاحب التفويض^(٦) . أما في حالة ما إذا كان وزير التفويض نصرانياً ، فإن تولية

(١) يروى ابن حجر ، أن الحسين بن علي بن النعمان ، هو أول من كتب في سجله قاضي القضاة ، في صفر ٣٨٩ / فبراير ٩٩٩ . وأما أبوه فهو أول من خطب بها من قضاة مصر . انظر نفسه ، ص ٥٩٧ س ٢٠ — ٢١ .

(٢) les Statuts gouvernementaux, p 140-2. : Fagnan

(٣) رسائل المستنصر : (١٠) ؛ (١٥) ؛ (١٧) ؛ ابن الصيرفي ، اشارة ، ص ٥٦ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٣٨٢ س ١٦ ؛ ٤٤٠ س ٩ ؛ ابن حجر ، رفع ، ورقة ٥٦ — ٥٥ .

(٤) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٦ — ٧ .

(٥) صبح ، ١٠ ص ٤٢٤ — ٤٣٤ .

(٦) نفسه ، ١٠ ص ٤٢٩ س ١٤ و ١٥ .

القاضي تكون بالضرورة من قبل الخليفة ، وهذا لم يحدث إلا في خلافة الحافظ^(١) .

وكانت « تولية » قاضي القضاة منصبه ، تصحب برسوم فحمة تشبه ما كان لأصحاب المناصب الهامة الأخرى ، فكان الخليفة يستدعيه إلى القصر ، لينحبه كتاب التولية الشامل على اختصاصاته^(٢) . وقد جرت العادة ، أن يُقرأ هذا الكتاب على الملائم في جامع القاهرة ومصر^(٣) ، لتعريف الناس بتولية قاضي القضاة الجديد^(٤) .

فكان القاضي يركب إلى الجامع ، وهو لابس الطيلسان المقوّر والسيوف ، في موكب رسمي من الفقهاء والتجار والشهود^(٥) ، ليطوف في الحارات ، وبين يديه « خلع » الخليفة ، موضوعة في مناديل^(٦) .

وفي العهد الفاطمي ، انتشرت عادة جديدة : هي أن يقدم للقاضي بغلة شهباء لركوبه ، وقد أصبحت بغلة القاضي حيواناً مشهوراً لإختصاصه بهذا اللون ، دون أرباب الدولة^(٧) .

وكان الذي يقرأ كتاب التولية — عادة — هو أحد أقرباء القاضي ، فكان هذا الأخير ، في أثناء القراءة ، يبق قائماً على قدميه ، فكلمات من ذكر الخليفة ، أو أحد من أهله ، أو ما بالسجود توقيراً^(٨) .

(١) ابن ميسر ، ص ٧٨ — ٧٩ ، ابن حجر ، رفع ، ورقة ٨٦ — ٨٧ ؛ أنظر . قبله .

(٢) ولادة ٥ ص ٥٨٩ س ١٣ — ١٤ ؛ ٥٩٢ ؛ ١٦ ؛ ٥٩٧ س ٥ — ٨ ؛ ٥٩٩ ؛ ٦٠٠ . هذه الاختصاصات سيأتي ذكرها فيما بعد .

(٣) نفسه ، ص ٥٨٩ س ١٩ — ٢١ . هكذا كانت تولية علي بن النعمان بن حيون ، من قبل العزيز ، في ٢ صفر ٣٦٦ / أ أكتوبر ٩٧٦ .

(٤) Hist. de Tyan. انظر : Ies Statuts gouvernementaux, p142 : Fagnan (٤) l'Org. Jud. en pays d' Islam 1,p268 .

(٥) ولادة ، ص ٥٨٩ س ١٩ — ٢٠ ، ٥٩٩ س ٢١ ؛ ٦٠٤ س ٤

(٦) نفسه ، ص ٥٨٩ س ١٠ .

(٧) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ س ٣٧ ؛ ولادة ، ص ٥٩٢ س ١٢ ؛ ٦٠٤ س ٣ — ٤

(٨) ولادة ، ص ٥٨٩ ، ٦٠٤ .

ويسمى كتاب تولية قاضي القضاة «سجلاً»، وهي كلمة مألوفة عند الفاطميين، كانت تُطلق على جميع كتب تولية كبار موظفي الدولة^(١)، كما كان يعرف أيضاً تحت هذه الأسماء: «عهد»^(٢)، و«تقليد»^(٣) و«توقيع»^(٤). فكان هذا الكتاب، يتضمن عادة، تفصيلات عن أعمال القضاة في مصر والإمبراطورية، وعن الأمور القضائية والدينية من تعلقات وظيفته.

فكانت سلطة القاضي على أعمال القضاة، لا تمتد فقط إلى أعمال القضاة في الديار المصرية، بل إلى البلاد الخاضعة لها أيضاً، وأكثر من ذلك تشمل على جميع بلاد الإسلام، وعلى ما يصير فتحه من بلدان المشرق والمغرب^(٥). فكانت سلطة القاضي على أعمال القضاة، تختلف من سجل إلى آخر، بحسب قوه الدولة وضعفها، فمند الوزير اليازوري (٤٢٢—٤٥٠/١٠٥٠—١٠٥٨)، لا نجد ذكراً لأعمال إفریقیة القضائية، في سجلات القضاة. على كل حال، كان من ضمن أعمال القضاة في الديار المصرية في أسفل الأرض: القاهرة ومصر وتنيس ودمياط والفرما والاسكندرية، أما أعمال الصعيد، والبلاد الخاضعة لمصر، مثل سوريا والحرمين والمغرب، فهي غير معروفة لنا.

وكان منصب القاضي الفاطمي لا يشمل أموراً قضائية صرفة، بل كان يتضمن أيضاً أموراً دينية ليس لها علاقة بالقضاء^(٦)، ولكنها ضُمت إلى القضاء حسب

(١) نفسه، ص ٥٧٩، س ١٠ و ١٦؛ ٥٩٧ س ٢٠؛ ٦٠٤ س ٦١١؛ ٥ س ١ و ٣ و ١٥؛ ابن خلكان، وفیات، ١ ص ٢٤٧ — ٢٤٨؛ أنظر . Org. Jud, I p264, Tyan.
(٢) ولاة، ص ٥٩٢ س ١٤؛ ٥٩٦ س ١٣؛ صبح، ١٠ ص ٣٨٤.
(٣) ولاة، ٥٩٩ س ٢١.
(٤) نفسه، ٥٨٩ س ٢٤.
(٥) نفسه، ٥٩٩ — ٦٠٠. وردت هذه العبارة في سجل القاضي عبد العزيز بن محمد ابن النعمان، الذي ولى القضاء من قبل الخليفة الحاكم، في رمضان ٣٩٤ / يوليو ١٠٠٤.
(٦) ولاة، ص ٥٨٩ س ١٤، ٦١١ س ٨ — ٩.

« العُرف والاصطلاح » في ذلك العصر ؛ وإن لم يكن لها أدنى تأثير في وظيفة القاضي الأصلية في القضاء^(١).

وكانت هذه الأمور تختلف من سجل إلى آخر ، فتنقص وتزداد تبعاً لموضوع التولية ، الموضح في السجل ، وهي تشير غالباً إلى الصلاة والخطابة في المساجد الجامعة ، والإشراف على الأماكن الدينية والقيام بنفقاتها^(٢) ، والقيام في الذهب والفضة والمكايل والعملة ، والنظر في الموارث وأموال اليتامى ؛ حيث أفرد لها الفاطميون موضعاً تحتم عليه ، تحت إشراف القاضي وأعوانه الشهود^(٣).

ونذكر من ناحية أخرى ، أن سجل التولية كان يشتمل على اختصاصات بعض الموظفين الدينيين الآخرين ، مثل : صاحب المظالم ، وسراقب الأسواق « المحتسب » ، وصاحب الشرطة ، وداعية الذعابة^(٤) ؛ الذي كان قاضي القضاة غالباً ما يلي منصبه . ونضيف إلى ذلك ، أن قاضي القضاة كان يتولى في بعض الأحيان قضاء العسكر^(٥) ، حيث كان هذا المنصب في عهد أول خليفة فاطمي في مصر ، مستقلاً عن وظيفة القاضي ؛ ولـكننا لم نسمع عنه بعد ذلك في عهد الخليفة الثاني ؛ مما يدعونا إلى الظن بأن هذا المنصب أصبح من تعلقات وظيفة قاضي القضاة .

(١) انظر . Tyan . Bergsträsser : Org. Jud, 2p, 12, : Guest, The Governmentors, and judges of Egypt, Z. D. M. G, 68, 1914, p 404 Sq.

(٢) يروي ناصري خسرو أنه كان يوجد في جميع المدن والقرى ، من سوريا حتى القيروان ، وكلاء عن السلطان ينفقون على الجوامع والمساجد ؛ ويدفعون أرزاق من يعملون فيها من القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم . انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer p. 160. وابن حماد ، أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٤٣ .

(٣) ولادة ، ٥٩٥ س ١٠ — ١٣ : ٥٩٦ س ١٩ ؛ ابن ميسر ، ص ٥٩ .

(٤) ولادة ، ص ٥٩٦ — ٧ .

(٥) نفسه ، ص ٥٨٦ س ١٧ : ٥٩٠ س ٩ .

وعلى ذلك كان قاضي القضاة مضطراً إلى اتخاذ أعوان له في أعمال القضاء
الواسعة؛ فكانوا يسمون: « نواب الحكم »^(١)، أو « خلفاء النواحي »^(٢).
كذلك، كان يعين في وظيفته الأصلية في القضاء، أو في كل الأمور التي
لا يشرف عليها بنفسه، أعواناً من قبله؛ فكان له نائب أو أكثر في العاصمة،
للتخفيف عنه. وكان لهذا النائب الحق في أن يستخلف من قبله، على شرط أن
تكون الاستنابة عن إذن القاضي؛ ويقول ابن حجر — في هذا الصدد —
إنه لم يعهد من قبل إلا في مصر أن النائب يستنيب عنه^(٣). وقد كان اختيار
نواب قاضي القضاة أو تعيينهم بخاصة في العاصمة يتم — أحياناً — من قبل
الخليفة^(٤)؛ ولكن الفارقي أدخل في ١٠٠٧/٣٩٨ عاده منح « الخلع » على
نوابه الذين يعينهم، لتكون له السلطة المطلقة عليهم؛ فكان أول من فعل
ذلك من القضاة، لأن « الخلع » — في الواقع — لا تمنح إلا من قبل
الخليفة أو الأمير^(٥).

وبالإضافة إلى هؤلاء، كان القاضي يختار جماعة من الشهود، لتقوم بمعاونته
في وظيفته الأصلية في القضاء، حيث كان القاضي يحتاج إلى خدماتهم، ليس فقط
في مجلس الحكم، وإنما يطلب معاونتهم أيضاً في اختصاصاته الدينية والمدنية
الأخرى؛ فكان الشهود الذين يعملون مع القاضي يطلق عليهم اسم: « الشهود العدول »
جمع « شاهد عدل »^(٦).

(١) نفسه، ص ٥٩٠ س ٧؛ مقريري، خطط، ١، ص ٤٠٤ س ٥.

(٢) ولاة، ص ٥٩٢ س ١٧.

(٣) نفسه، ص ٦٠١ س ١٢ — ١٤؛ ٦٠٤ س ١٤.

(٤) نفسه، ص ٥٩٨ س ١ — ٤.

(٥) نفسه، ص ٦٠٤ س ٧.

(٦) مقريري، خطط، ١، ص ٣٨٦ س ٢٧؛ ابن خلدون، مقدمة، ١، ص ٤٠٥؛

وقد كانت الشهادة في الدول الإسلامية ، من الوظائف الدينية التابعة للقضاء ، فيعتبرها ابن خلدون — في الفصل الذي كتبه عن الوظائف الدينية — ضمن وظائف الدولة الهامة^(١) ؛ وفي الواقع أن الصلة وثيقة بين « الحكم » و « البينة » في القضاء الإسلامي ، حيث كانت الدليل الوحيد للحكم عند القضاة^(٢) .

وكان للقاضي مطلق الحرية ، في اختيار الشهود العدول ، إلا أن السلطة التنفيذية كانت تراقب تعديدهم ، لأهمية دورهم في ساحة القضاء ؛ ففي سجل تولية قاضي القضاة ، أحيط علم القاضي بأن يُطالع الخليفة بمن يعده ، أو بمن يرد شهادته من الشهود^(٣) .

ولذلك جرت العادة أن يُختار قاضي القضاة الشهود بعناية من بين الأشخاص المعروفين بالأمانة ، على الأخص من بين طبقة الأشراف^(٤) ؛ ومن ناحية أخرى ، كان على الشهود أن يُقدموا الضمانات الكافية ؛ حتى لا يسئوا إلى سير العدالة ، أو يعرقلوا عمل قاضي القضاة .

وقد كان للقاضي مطلق السلطة ، في تصفح أحوال الشهود العدول ؛ فكان يراقب سيرهم ، ويسقط المتهمين منهم ، ويعاقب من يسيء استعمال سلطته ، بإلزامه بغرم ثقيل أو بسجنه ، وذلك رعاية لشرط العدالة^(٥) . ولم يكن القاضي المعين حديثاً ، مضطراً إلى الإبقاء على الشهود العدول ، الذين عينهم سلفه ، فكان يستطيع أن يسقطهم حسب رأيه ، وأن يتخذ جماعة من العدول غيرهم^(٦) .

وكان الشهود — كغيرهم من أصحاب المهن في الدولة الفاطمية — يكونون طائفة

(١) مقدمة ، ١ ص ٤٠٤ .

(٢) ولاة ، ص ٥٨٨ س ١١ ؛ Tyan : Notariat, p7 .

(٣) صبح ، ١٠ ص ٣٨٧ .

(٤) ولاة ، ص ٤٩٨ س ١٨ .

(٥) نفسه ، ص ٥١٦ س ١٠ ، ٦٠١ س ١٣ .

(٦) نفسه ، ص ٥٨٨ س ١٩ ؛ ٥٩٦ س ١٥ ، ٦١٢ س ٢٣ .

متميزة خاصة لنظام دقيق ، فكان لها رئيس يسمى : « بوجه الشهود » أو « مقدم الشهود »^(١) ، أما بقية الشهود العدول ، فكانت مراتبهم تختلف حسب تقدم أو تأخر تعديلهم .

وتقدم النصوص المختلفة أرقاماً متضاربة عن أعداد الشهود ، وإن لم يتجاوز عددهم في الغالب الثلاثين^(٢) ، ومع ذلك ، في بعض الحالات ، كان بعض القضاة قد وضعوا نصب أعينهم احاطة مجلس حكمهم بعدد كبير من الشهود ، رغبة في اعلاء شأنهم^(٣) .

ولقد أصبح الشهود في عهد الدولة الفاطمية يحتلون مناصب هامة جداً ؛ فكانوا يُطلبون للقيام بأى عمل ، سواء في المناصب الإدارية ، أو في الجيش ، أو حتى في البلاط^(٤) ، ولكن بقي عملهم الأساسي — كما كان بالنسبة لقاضي القضاة — في ساحة القضاء .

وفي الواقع ان الفصل في المنازعات ، بقي بطبيعة الحال ، من أصل عمل قاضي القضاة أو نائبه والشهود العدول .

وقد استمر جلوس القاضي للحكم ، بنفس البساطة التي كان عليها في جميع الدول الإسلامية الأخرى ؛ فكان يجلس في الغالب في المسجد الجامع^(٥) ، في مصر أو القاهرة^(٦) . ولم يكن الجامع كما في أيامنا مهياً للصلاة فحسب ،

(١) نفسه ، ص ٥٨٩ س ٢٢ ؛ ص ٥٨٨ س ٣ .

(٢) نفسه ، ص ٥٩٣ س ٤ .

(٣) في عهد الحاكم ، أثناء ولاية ابن العوام القضاء في سنة ١٠١٨/٤٠٩ ، بلغ عدد

الشهود المعدلين ألفاً وخمسمائة . انظر ، نفسه ، ص ٦١٢ س ٢٢ .

(٤) مقريري ، خطط ، ١ ص ٤٤٧ س ١٢ . وهكذا نجد مشارف خزانة السروج

من بين العدول .

(٥) انظر . Ency de l'Islam, (Masdjid) 3, p 362—442 .

(٦) ولاية ، ص ٥٨٧ س ٢ — ٤ ؛ مقريري ، خطط ، ٢ ص ٢٤٦ س ١٩ .

وإنما كان أيضاً مكاناً للفصل في أمور الناس؛ حيث كانت ساحته من أكثر الأماكن صخباً في المدينة؛ فيروى ناصري خسرو^(١) أن ساحة جامع مصر لم يكن يقل من فيها من الناس في أي وقت عن خمسة آلاف شخص من الكتّاب، الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها. كذلك كان القاضي يعقد مجلس حكمه — أحياناً — في داره^(٢)، أو في أي جامع آخر.

وكان في الجامع مكان معين يجتمع فيه القاضي بالخصوم، يُعرف باسم: «مجلس الحكم»^(٣)، يتغير بحسب الفصول^(٤): ففي أوان الشتاء يجلس القاضي في «المقصورة»^(٥)، وهي الفسحة الصغيرة المحوطة بسيياج بجانب المنبر؛ وفي أوان الصيف — بسبب شدة الحر — يجلس عند الشباك.

ولم يكن جلوس القاضي للحكم في كل الأيام، ولكن مرتين في الأسبوع؛ كما كان يفعل محمد بن النعمان، المعين في سنة ٣٧٤ / ٩٨٤، إذ كان ينظر قضاياه كل يوم اثنين وخميس؛ وكذلك كان ابنه عبد العزيز يعقد جلساته في نفس الأيام^(٦). ولكن، في بعض الحالات، كان مجلس الحكم يعقد جلساته أربعة أيام في الأسبوع^(٧)، فكان القاضي أحمد بن محمد بن أبي العوام، المعين في سنة ٤٠٥ / ١٠١٤، في عهد الخليفة الحاكم، ينظر قضاياه كل يوم أحد وخميس بجامع مصر، وكل يوم اثنين وثلاثاء بالجامع الأزهر، ويركب أيام الجمع مع الحاكم، ويُطلعه يوم السبت على ما يرى من أمر القضاء بالبلاد؛ وكان يوم الأربعاء لراحته.

(١) انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 148.

(٢) ولاية، ص ٥٨٩ س ٢٣؛ ٥٩٤ س ٢٤؛ ٦٠٤ س ١٠.

(٣) نفسه، ص ٦٠٤ س ١٤؛ مقرئزي، خطط، ١، ص ٤٠٤ س ٤.

(٤) نفسه، ص ٥٩٠ س ١٣ — ١٤؛ ٦١٠ س ٢١.

(٥) نفسه، ص ٥٩٠ س ١٣؛ انظر . Dozy. Suppl, 2, 358.

(٦) ولاية، ص ٥٩٤ س ٣ و ٩.

(٧) نفسه، ص ٦١١ س ١٠ — ١٣.

ولم يكن في العهد الفاطمي إلا مجلس واحد للحكم ، لأن تعدد مجالس الحكم يُثير الاختلاف بين الخصوم ؛ فكان كل منهم يعمل على انفاذ خصومه أمام القاضى الذى يختاره ؛ وهذا ما حدث فى أول الحكم الفاطمى ، لما أقر المعز عند مجيئه بالطاهر ، الذى كان معيناً من قبل الخليفة العباسى ، فى ولاية القضاء ، على شرط أن يكون الحكم بحسب القانون الشيعى ،^(١) وأن يقبل معه فى الحكم ابن أبى ثوبان^(٢) ؛ فكان القاضيان ، فى أغلب الأحيان ، ينطقان بأحكام مختلفة ، مما اضطر الخليفة العزيز الذى تولى الخلافة بعد المعز أن يفوض الحكم لقاضى فاطمى واحد ، بعد إصابة أبى الطاهر بالفالج^(٣) ؛ كما ذكرنا من قبل .

وكان مجلس الحكم يتكون فى الغالب من قاضٍ واحد ، ويشمل عدة طبقات من الموظفين ، مثل : الشهود العدول الذين يكونون جزءاً لا يتجزأ من مجلس الحكم فى الدول الإسلامية ؛ والموقعون والحجاب^(٤) ؛ كما ترجح أيضاً اشتراك صاحب الشرطة فى مجلس الحكم ، للعمل على استتباب النظام وتنفيذ الأحكام^(٥) . وكان الرسم أن يجلس القاضى فى الوسط على « طرحة »^(٦) وخلفه « المسند » ، وأمامه « كرسى »^(٧) توضع عليه الدواة ؛ فكانت هذه الدواة — وهى من خلع القاضى كما كانت من شارات كثير من كبار أرباب المناصب — محلاة بالفضة ولها حامل خاص ، لعله الكاتب الذى يكتب الأحكام . وكان

(١) نفسه ، ص ٥٨٤ س ١٥ .

(٢) نفسه ، ص ٥٨٤ و ٥٨٧ ؛ ابن ميسر ، ص ٤٤ .

(٣) ولادة ، ص ٥٨٩ ؛ انظر . قبله .

(٤) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ س ٣٤ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٧ س ٦ — ٨ .

(٥) ولادة ، ص ٥٩٣ ؛ ٥٩٦ س ٢٢ .

(٦) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ س ٤ ؛ مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ س ٣٣ ؛ انظر .

Dozy : Suppl, 2, p 32. يقول المقرئى . « صرته » .

(٧) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ س ٣٥ و ٣٦ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٧ س ٥٤ .

الشهود يجلسون حوالى القاضى عن يمينه وعن يساره على مراتبهم فى تقدم أو تأخر تعديلهم^(١)، أما الحجاب فإنهم يقفون عند الباب، لادخال الخصوم فى مجلس الحكم.

وكان مجلس الحكم يُعقد علناً، فيظهر الخصوم أمام القاضى بواسطة «الكلاء»^(٢)، وإن كان ظهور الخصوم عادة يكون بأشخاصهم. وليس لدينا للأسف معلومات واضحة عن اجراءات القضاء فى المجلس؛ وهى اجراءات — ولا ريب — لا تختلف فى المعاملات عنها فى الجرائم^(٣).

وكانت القضايا التى تعرض على المجلس متنوعة منها: قضايا جنائية، وقضايا السرقات، وقضايا شرب الخمر، والزنا، والمواريث، والوصايا، والمنكحات، والطلاق، وقضايا الأحوال الشخصية^(٤).

وقد كانت الأحكام والشهادة تسجل فى كتب خاصة تسمى «سجلات الحكم» أو «دواوين الحكم»^(٥)، وهى عبارة عن الأرشيف القضائى، وتودع عادة عند القاضى فى داره، ولهكن ابن العوام (٤٠٥—٤١٤/١٠١٤—١٠٢٣) نقلها إلى الجامع^(٦). وقد كان إنشاء هذه السجلات يقتضى — ولا ريب — صيغة خاصة بجملها^(٧)، وإن جرت العادة فى كتابتها، أن يذكر القاضى اسمه ولقبه وتوابع وظيفته^(٨).

(١) نفسه؛ نفسه؛ ولادة، ص ٥٩٠.

(٢) ولادة، ص ٥٨٩؛ ٦٠٧.

(٣) ابن خلدون، مقدمة، ١ ص ٣٩٩؛ انظر. Law and Culture : Fyze .
in Islam, » Isl. Cult. Oct. 1934, XVII, No. (4), p. 424.

(٤) Tyan (٤) : Hist. de l'org. Jud, 2, p 15.

(٥) ولادة، ص ٥٨٨؛ ٥٩٠؛ ٣ ص ٦١٢؛ ١٦.

(٦) نفسه، ص ٥٩٠، ٦١٢؛ ١٦ — ١٧.

(٧) حاجى خليفة، كشف الظنون (Lexicon encyclopaedicum)، ص ٤٥.

(٨) ولادة، ص ٥٨٧؛ ٥٩٩؛ ٢٣.

وبطبيعة الحال كان الحكم في القضايا يسير وفق القانون الشيعي^(١)؛ ولكن لم يكن للقاضي الفاطمي نفس الحقوق التي كانت للقاضي السني؛ فقد كان هذا الأخير قاضياً للأحكام والقانون، بينما القاضي الفاطمي لم يكن إلاقاضياً للأحكام، لأن الخليفة الفاطمي وحده، له سلطة التشريع^(٢)؛ فكثيراً ما كان القاضي الشيعي يلجأ إلى الخليفة لاستشارته في المسائل الدقيقة، خشية ارتكاب خطأ في تطبيق القانون^(٣).

كذلك كان الشهود — ومعظمهم من الفقهاء — يشتركون أحياناً في الإدلاء بأرائهم^(٤)؛ ولكن القاضي لم يكن مضطراً إلى الأخذ بها، لأنه وحده كان له حق النطق بالحكم. وفي الواقع، ان احكام القاضي كانت غير قابلة للتبديل؛ فقد وقع الوزير يعقوب بن كلس، أمراً في سنة ٣٦٩ / ٩٧٩، مؤداه أنه من حكم بحكم، فليس لأحد وجه الاعتراض على القاضي فيما حكم فيه؛ وكان صدور هذا الأمر، بسبب شكوى جاءت للوزير ضد القاضي علي بن النعمان، الذي اعترض على حكم سابق لعلی بن سعید الجلبجولي، صاحب شرطة مصر^(٥).

أما عن تنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي، فإنه كان يُعهد بها إلى صاحب الشرطة، الذي كان منصبه مندرجاً في عموم سلطته.

مما سبق نستطيع أن نتبين أهمية القضاء في الدولة الفاطمية، وأهمية منصب قاضي القضاة، وما يحتاج إليه من صفات خاصة. فكان القضاة يُختارون

(١) نفسه، ص ٥٨٤ س ١٥؛ يحيى، ص ٤٣٤.

(٢) تاج العقائد، ص ٤٧.

(٣) ولاة، ص ٥٨٥ س ٢.

(٤) نفسه، ص ٥٨٤ س ٥.

(٥) نفسه، ص ٥٩١ س ١١ — ١٤. من حيث المبدأ، كان للقاضي استبعاد حكم سلفه؛ فقد أعيد النظر في كثير من الأحكام في أثناء العهد الفاطمي. نفسه، ص ٥٨٨؛ Guest. Z.D.M. G. 68, 1914, p402. : Bergsträsser. انظر. ٦٠٤ — ٥؛ ٦١٤؛ انظر.

عادة من بين أئمة الدين المعروفين بعلمهم الواسع في الفقه الشيعي ؛ ففي
السنين الأولى من حكم الفاطميين ، ولمدة ثمانين سنة أو تزيد ، كان منصب القضاء
يُكفل في أسر عُرفت بالعلم بالأحكام الشرعية ، مثل : أسرة النعمان ^(١)
والفارقي ^(٢) ؛ فقد ألف عدد كبير من بين قضاة هاتين الأسرتين كتباً في الفقه
الشيعي ، بخاصة العالم الفقيه النعمان بن حيّون (م ٣٦٢/٩٧٤) ^(٣) ؛ ففي عهد الدولة
الفاطمية نشط التقنين الشيعي نشاطاً كبيراً في مصر .

كذلك ، كان يُطلب ممن يتولى منصب القضاء الفاطمي ، أن يحوز صفات
عالية ، فأحكام هذا المنصب وشروطه معروفة في كتب الفقه ^(٤) ؛ فكان الخلفاء
بأنفسهم يراقبون نزاهة قاضي القضاة وسلوكه .

(١) من بين قضاة أسرة النعمان نذكر الأسماء الآتية :

أبو حنيفة النعمان (م ٣٦٣/٩٧٣) انظر . ولاية ، ص ٥٨٦ — ٧ .

أبو الحسين علي (م ٣٧٤/٩٨٤) انظر . نفسه ، ص ٥٨٩ — ٥٩١ .

أبو عبد الله محمد (م ٣٨٩/٩٩٨) انظر . نفسه ، ص ٥٩٢ — ٥٩٥ .

أبو عبد الله الحسين (م ٣٩٥/١٠٠٤) انظر . نفسه ، ص ٥٩٦ — ٥٩٩ .

أبو القاسم عبد العزيز (م ٤٠١/١٠١٠) انظر . نفسه ، ص ٥٩٩ — ٦٠٣ .

أبو محمد القاسم (م ٤٤١/١٠٤٩) انظر . نفسه ، ص ٦١٣ .

(٢) ومن بين قضاة أسرة الفارقي نذكر الأسماء الآتية :

أبو الحسن مالك بن سعيد بن مالك الفارقي (٣٩٨/١٠٠٧) انظر . نفسه ، ص ٦٠٣ .

— ٦٠٨ .

أبو الفتح عبد الحاكم الفارقي (٤١٩/١٠٢٨) انظر . نفسه ، ص ٦١٣ — ٦١٤ .

أبو علي أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي (٤٥٠/١٠٥٨) انظر . ابن حجر ،

رفع ، ورقة ٣٣ .

عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي (٤٥٢/١٠٦٠) انظر . نفسه ،

ورقة ١٧١ .

أبو أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم الفارقي (٤٥٥/١٠٦٣) انظر . نفسه .

ورقة ٣٥ — ٣٦ .

(٣) انظر . Kadi an - : Fyzee : The Guide of Isma'ili literature, p. 34 : Ivanow .

Nu'mân J. R. A. S. jan 1934, p. 1-34.

(٤) النعمان ، دعائم ، ص ٤٢٢ — ٤٢٣ ؛ انظر . Les Statuts Gov-

vernement aux, p 131-7.

ولكى تأخذ العدالة سبيلها القويم ، كان قاضى القضاة يستلم مرتباً عالياً ؛
فيروى ناصرى خسرو ، أن قاضى القضاة يتقاضى ألفى دينار مغربى فى الشهر ،
وفى بعض الحالات ، كان هذا المرتب يتضاعف حتى لا يطمع القاضى فى أموال
الناس ، أو يلحق بهؤلاء أى ظلم^(١) . ورغم ذلك ، فقد وجد قضاة يُقتلون أو
يعزلون لقبولهم الرشوة^(٢) ، وفى إبان الإضطرابات والفوضى ، كان منصب قاضى
القضاة يعكس حالة البلاد ، فلما وقعت البلاد فى شدة عظمى وضعفت السلطة
المركزية ، كان القضاة يُغيرون كل يوم^(٣) ، مما ترتب عليه فساد الذم وضياع
هيمية العدالة .

وكان قاضى القضاة مثل غيره من كبار الموظفين ، له ألقاب رنانة^(٤) ، فكان
الناس يحاطبونه بلفظة « سيدنا »^(٥) ، التى كان يُخاطب بها داعى الدعاة ، مما يدل
على مكانته فى المجتمع .

وكان فى الأعياد الرسمية ، له أعلى مكانة بحكم منصبه الدينى الرفيع ، فله
التقدمة على كل أرباب الوظائف ، ما عدا وزير التفويض ، بسبب سلطته العامة
على القضاء^(٦) ؛ وكان لا يظهر فى هذه الأعياد إلا محاطاً ببطانة من الشهود ،

(١) انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p 161. ؛ ولاة ، ص ٥٩٧ . كان

دخل قاضى القضاة عبد الحاكم بن سعيد الفارقي : ٢٠٠٠ و٢٠٠٠ دينار سنوياً . انظر . ولاة ،
ص ٦١٣ . وكان قاضى القضاة — حسب الفلقشندى والمقرزى — يستلم مائة دينار كل
شهر . انظر . صبح ، ص ٥٢٦ ؛ خطط ، ص ١ ص ٤٠١ .

(٢) يحيى ، ص ٥١٥ ؛ ولاة ، ص ٥٩٩ .

(٣) ابن ميسر ، ص ٣١ — ٣٣ .

(٤) نفسه .

(٥) ولاة ، ٥٩٤ ؛ انظر . A distinguished Family of Fatimid cadis, :Gottheil .

J. A. O. S, XXVII, 1906, p. 232.

(٦) مقرزى ، خطط ، ص ١ ص ٤٠٤ س ٣ — ٤ .

مكونة له ما يشبه الحاشية .

وكان الخليفة كثيراً ما يشرف كبير قضاته والشهود بالجلوس إليهم في الموالد ،
وليامى الوقود الأربع : فى أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه (١) ، بل
كان الخليفة يشرفه — أحياناً — بالصعود معه على المنبر فى بعض الأعياد (٢) .
كذلك كان لقاضى القضاة فى المواكب الرسمية ، حق الركوب بالظبل والبوق
والبنود ، وبين يديه القراء والمؤذنون ، على شرط أن يلى الدعوة أيضاً (٣) .

من كل الذى سبق تتبين عناية الفاطميين بقاضى القضاة ، والدور الهام الذى
كان يضطلع به فى الدولة والمجتمع .

صاحب المظالم : تحديد كلمة « — مظالم — » — تولية صاحب المظالم — جلوس المظالم .

كان منصب « صاحب المظالم » يُعرف باسم « النظر فى المظالم » (٤) وهو من
المناصب القضائية الهامة ، وموضوعه ، كما يظهر من اسم صاحبه ، هو منع الظلم (٥) .
ولفظه « مظالم » مفرداً « مظلمة » أو « ظلامه » من « ظَلَمَ » ، بمعنى انتهاك
حق شخص ؛ وهى تعبیر فى العالم الإسلامى يدل على الظلم ، الذى يأتى من التعدى
أو الفساد ، الذى عجز القضاة العاديون لسبب ما عن النظر فيه ، فيرفع أمره

(١) نفسه ، ١ ص ٤٣٣ ، ٤٦٥ — ٤٦٧ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٠١ — ٥٠٣ .

(٢) ولادة ، ص ٦٠٠ س ٨ ، ٦٠٥ س ٨ ؛ صبح ، ٣ ص ٥١١ .

(٣) مقرزى ، ١ ص ٤٠٤ س ١ .

(٤) مقرزى ، خطط ، ٢ ص ٢٠٧ ؛ انظر . Björkman . Beiträge , p 38 .

(٥) مقرزى ، خطط ، ٢ ص ٢٠٧ ؛ انظر . Amedroz . « The Mazalim juri- sdition, in the Ahkam Sultaniyya of Mawardi » , J. R. A. S. july, 1911 p. 635 .

رأساً للخليفة للنظر فيه ^(١)؛ فهو أشبه بقضاء الاستئناف الحالى ، وإن اتخذ اسم « النظر فى المظالم » .

وهذه العادة فى رفع المظالم إلى الخليفة ترجع إلى ملوك الفرس الساسانيين ، الذين كانوا أول من مارسوا هذا النوع من القضاء ^(٢) ، ولكن نظر المظالم لم يظهر رسمياً فى الدولة الإسلامية ، إلا فى عهد الأمويين ^(٣) . كذلك يروى المقرئى أن قضاء المظالم عُرف فى مصر قبل مجئ الفاطميين ، فى عهد الدوليتين : الطولونية ^(٤) والإخشيدية ؛ فلما وصل جوهر ، القائد الفاطمى ، جلس للنظر فى المظالم ^(٥) . وقد تحقق الفاطميون من الأهمية الكبرى لقضاء المظالم ، فاعتمدوا عليه ^(٦) — كما يرى ابن الصيرفى — للقضاء على الفساد بين عمال الخراج وحكام الولايات ، وذلك لأن الغرض الأساسى من هذا القضاء هو تطهير الدولة من الفساد ؛ فهو إذاً وسيلة ناجحة للمحافظة على سمعة الدولة ، التى حاول الفاطميون بكل الوسائل الممكنة الدعاية لها .

ومنصب صاحب المظالم من الوظائف الداخلة تحت سلطة الخليفة ، فإنه كانت جميع الشكاوى . فتارة ينتدب فيه شخصاً ينفرد به ويسمى « قاضى المظالم » ،

(١) انظر . Fagnan . Lea Statuts gouvernementaux, p. 161.

(٢) نظام الملك، سياسة نامة ، ترجمة Schefer ، ص ٥٦ وما بعدها ؛ Fagnan : Les

Statuts gouvernementaux, p. 161. Christensen . P'Iran sous les Sassanides p 296 Sq. انظر .

(٣) كان الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٦٨٥ / ٨٦ — ٧٠٥) ، أول من أفرز للظلمات يوماً . انظر . نوبرى ، خطط ، ٢ ص ٢٠٧ س ١٩ . انظر . Fagnan : Les Statuts gouvernementaux, p. 166.

(٤) مقرئى ، ٦ ص ٢٦٩ ؛ انظر . Zaki . Les Tulunides, p 224 . كان أحمد بن طولون ، هو أول من جعل النظر فى المظالم من قضاء الدولة . انظر . مقرئى ، خطط ، ٢ ص ٢٠٧ .

(٥) نفسه .

(٦) انظر . Le Code, p 115 .

وهو يعين حينئذ بسجل ، كأي موظف آخر في الدولة ^(١) . وتارة أخرى ،
يعهد به إلى أي موظف كبير قائم بإحدى الوظائف من قبل ^(٢) ، كقاضى
القضاة ، وإن لم يكن هذا المنصب بالضرورة وقفاً عليه ؛ فقد كان من
الطبيعى ، أن يُدعى قاضى القضاة إلى شغل هذا المنصب بسبب معارفه القانونية ،
فكان يذكر أحياناً - فى سجله عند التولية من جملة اختصاصاته القضائية ^(٣) .
ولكن كان من الممكن أيضاً أن يعهد به إلى أى موظف آخر من قبل الخليفة حتى
ولو كان غريباً عن القضاء ، مثل صاحب الباب وهو موظف كبير بالقصر ^(٤) ،
أو مثل : وزير التفويض الذى بسبب سلطته العامة على القضاء ، كانت المظالم من
تعلقات وظيفته ؛ وفى كلتا الحالتين لم يكن ضرورياً أن يُولى صاحب الباب
أو وزير التفويض بسجل ^(٥) ، لأن النظر فى المظالم يكون جزءاً من اختصاصتهما .
أما من الناحية الفنية فإن هذا المنصب كان يعهد به لرجل عظيم الرهبة ،
على اليد ، له سطوة الحماة ، لأن نظر المظالم منصب ترتكز عليه هيبة
الدولة ^(٦) .

وكان مجلس النظر فى المظالم يعقد بالعاصمة مقر الخليفة ، فى « باب الذهب » ^(٧)
بالقصر الكبير ، حسب ترتيب خاص .

(١) ولاة ، ص ٥٨٥ ؛ ٥٨٧ ؛ ٥٩١ س ١٩ .

(٢) مقرزى ، خطط ، ٢ ، ص ٢٠٧ س ٣٤ ؛ ٢٠٨ س ١ .

(٣) نفسه ، ٢ ، ص ٢٠٧ ؛ ولاة ، ص ٥٩٩ س ١٥ — ٢٠ .

(٤) صبح ، ٣ ، ص ٤٨٣ ؛ مقرزى ، خطط ، ١ ، ص ٤٠٢ .

(٥) Les Statuts gouvernementaux, p 157. : Fagnan

(٦) نفسه ، ص ١٥٨ — ٩ ؛ ابن خلدون ،

مقدمة ، ١ ، ص ٤٠٦ ؛ انظر . Amedroz : The Mazalim, J. R. A. S., july, 1911 p635

Mez : Dei Renaissance ، ترجمة ، ١ ، ص ٣٨٠ .

(٧) مقرزى ، خطط ، ١ ، ص ٤٠٢ س ٣٧ . يروى المقرزى فى فقرة أخرى ، أنه =

كذلك كانت أيام نظر المظالم هي الأخرى محددة ؛ فإن كانت المظالم ينفرد بها موظف خاص ، فإنه يعقد المجلس يومياً ، كي يتسلم شكاوى المتظلمين ؛ وعلى العكس ، إن كانت في يد موظف قائم من قبل بإحدى الوظائف ، فإنه يكتفي بأن يحدد يوماً أو أكثر من الأسبوع لجلوسه ، فمثلاً كان جوهر يجلس للمظالم في أيام السبت^(١) .

وكان للمظالم جلوس واحد ، كما هو الحالة في القضاء العادي ، يضم جملة من الموظفين الذين يجلسون حسب طبقاتهم ، بترتيب معين دقيق .

فكان إذا وجد وزير السيف ، وجب أن يحتفظ مجلسه بمظهر القوة ، فيمثل فيه جميع عناصر الدولة : فكان يتكون من القاضي وبين يديه الحجاب ومن جانبه شاهدان من أهم الشهود ، وصاحب بيت المال ، وصاحب الباب ، وقائد العسكر « الاسفهلار »^(٢) ؛ كما كان يشترك أيضاً فيه كاتبان من كتاب القصر ؛ لتسجيل ما يتخذة المجلس من قرارات .

وإذا لم يوجد وزير السيف ، فإن عدد المشتركين في المجلس يكونون أقل ؛ فكان «صاحب الباب» ، مثلاً يرأس المجلس ، وبين يديه « الحجاب » وقواد بعض الطوائف الحربية « النقباء »^(٣) .

أما إذا كان المجلس في يد موظف ينفرد به غير صاحب الباب ، مثل « قاضي

= كان من عادة الخلفاء الجلوس لمن يأتيهم من المتظلمين ، في موضع من جملة القصر الكبير ، يعرف باسم « السقيفة » . انظر . نفسه ، ١ ص ٤٠٥ س ١٩ — ٢٠ . وكانت هذه « السقيفة » توجد بجوار خزنة البنود . انظر . نفسه ، ١ ص ٤٠٦ س ٢٣ . وكان الاستماع إلى المتظلمين في السقيفة ، منقول عن عادة فاطمية في إفريقية ؛ فقد كان النعمان يعقد مجالس المظالم في السقيفة ، في قصر المنصور ، ثالث خليفة فاطمي . انظر . النعمان ، مجلس ، ١ ورقة ٣٣ .

(١) ابن خلكان ، وفيات ، ١ ص ١٦٨ .

(٢) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ ، ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) نفسه . ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ ؛ ٢ ص ٢٠٨ ؛ انظر . Tyan : Hist. de

المظالم « فإنه يجلس و بين يديه الشهود العدول^(١) ، ويكون له حق استدعاء أى موظف آخر للإدلاء برأيه^(٢) .

وكان أغلب المتظلمين لهذا المجلس من بسطاء الناس أو النساء المستضعفات، الذين أتوا من النواحي البعيدة خارج القاهرة ومصر^(٣) ، ليمتظلموا من عُسف الولاة والموظفين — على الأخص القبط — الذين كانوا يبالغون فى التحكم فى المسلمين^(٤) . وقد كانت معظم الظالمات — وكانت فى ذلك الوقت تسمى قصص أو «رقع» — ضد الاشتطاط فى جمع الضرائب من غير وجه حق، أو اغتصاب الأموال بالقوة أو قسوة الحياة. وكان مجلس المظالم رحيماً بالأحرى برعايا الدولة من أهل الذمة، عطوفاً بهم، على الأخص عند النظر فى اسقاط الجزية و التصريح ببناء الكنائس^(٥) . وفى الحقيقة، أنه كانت توجد دائماً فرصة أمام المتظلمين فى مجلس النظر فى المظالم .

وكانت اجراءات قضاء المظالم لها نظام خاص فى عهد الفاطميين ، تحيط بها الهيبة دائماً ؛ فكان « المنادى » ينادى بصوت عالٍ : « يا أرباب المظالم » ، وبذلك تبدأ الجلسة^(٦) . وكان الذين يأتون من النواحي البعيدة لهم الحق فى أن تنظر شكواهم قبل غيرهم^(٧) ؛ فمن كانت له ظلامة يقترب ليقدمها ؛ فتجتمع الظالمات ثم تُقرأ واحدة واحدة أمام هذا المجلس المختلف التكوين .

وكان على الرغم من وجود الوزير أحياناً ، فإن المجلس لا يتخذ قرارات

(١) ولاة ، ص ٥٨٤ .

(٢) صبح ، ١٠ ص ٢٢٤ ؛ انظر . Tyan . Hist. de l'Org. jud, 2, p 247

(٣) انظر . Code, p 114

(٤) مقريزى ، خطط ، ١ ص ٤٠٦ س ١٥ — ٢٢ .

(٥) انظر . Code, p 113

(٦) مقريزى ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ .

(٧) نفسه ، ١ ص ٤٠٣ س ٢ .

(٨) انظر . Code, p 114

فما يعرض عليه من الظلمات ، فكان بعضها يُحال إلى مجلس القاضى ، الذى سبق الكلام عنه للنظر فيها ، وإن كان أغلبها يرسل إلى ديوان الإنشاء لتكملة فحصه .

ولكن كان لابد لهذه الظلمات من أن تمر أولاً بين يديّ كاتبى القصر^(١) ، اللذين سبق أن أشرنا إليهما ، حيث كان لكل منهما عمل قضائى محدد : فالأول ذو مرتبة رفيعة ويسمى « صاحب القلم الدقيق »^(٢) ، كان يكتب عليها بما يقتضيه الحال بعد الاطلاع على قرارات المجلس ، والثانى ذو مرتبة أقل ويسمى « صاحب القلم الجليل » ، يبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق . وبعد ذلك تُحمل الظلمات فى خريطة إلى موظف آخر فى ديوان الإنشاء ، ليفصل فيها برأيه النهائى باسم الخليفة .

فكان هذا الموظف ويسمى « موقع القصص »^(٤) له حق « التوقيع »^(٥) بعلامة الخليفة على القصص ، التى تُقطع فيها برأى نهائى . ولكن الخليفة — أحياناً — كان يطلع على بعض الشكاوى ويوقع عليها بعبارات مناسبة بخطه ، بعد أن يقدمها إليه رئيس ديوان الإنشاء . وقد كانت هذه الظلمات تكون جزءاً كبيراً من عمل ديوان الإنشاء ، فكان ما يقدم منها فى عهد المستنصر كل يوم ثمانمائة مظلمة^(٧) .

ومع تعقيد هذه الاجراءات ، فلم يكن يتخذ قراراً حاسماً ، فى أغلب الشكاوى

(١) مقرئى ، خطط ، ١ من ٤٠٣ .

(٢) نجد أحياناً « موقع » بدلا من « صاحب » . انظر . صبح ، ٣ ص ٤٩١ ؛

مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ ، ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) نفسه .

(٤) انظر . Code, p 112

(٥) نفسه ، ص ١١٥ .

(٦) مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٠٣ س ٨ .

(٧) نفسه ، ١ ص ٣٥٦ س ١٩ .

المقدمة ؛ فكان يكتب في بعضها عبارة : « يُقدم من جديد » ، وفي بعض الأحيان ، يكتب : « ليس من وسيلة » ؛ ويقول ابن الصيرفي إن هذه العبارة الأخيرة ، كانت الغالبة في الإجابة ^(١) . ومن ناحية أخرى ، كان لقرار مجلس المظالم أن ينسخ الأحكام التي صدرت من قبل ، ويوجد بدلاً منها أحكاماً جديدة .

من كل الذي ذكرناه ، نستطيع أن نلمس الدقة التي كانت تسير عليها إجراءات قضاء المظالم ، والدور الهام الذي كان يقوم به صاحب المظالم ؛ كما يمكننا أيضاً أن نقدر أن القائم بهذه الوظيفة كان شخصية هامة في الدولة .

أرباب الوظائف الدينية الأخرى التي تدخل وظائفهم ضمن وظائف القضاء هم : مراقب الأسواق « المحتسب » و « صاحب الشرطة » ، ومع أن وظيفتهما غير قضائيتين ، مثل : وظيفتي « قاضي القضاة » و « صاحب المظالم » ، إلا أن لهما جانبهما القضائي . أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن عمل المحتسب متميز عن عمل صاحب الشرطة في قضاء الدولة الفاطمية في مصر ، فعالباً ما كان يقوم الواحد منهما بالوظيفتين معاً ^(٢) .

المحتسب أصل وظيفته - توليته - اختصاصاته - مساعدوه - تطبيق العقوبات - اختياره .

وظيفة « المحتسب » يُعبر عنها « بالحسبة » أي « مراقبة الأسواق » ، وهي

(١) انظر . Code, p. 114 .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٨٧ س ١٩ .

وظيفة أصلها ديني^(١) من باب الأمر بالمعروف عندما يكون مهماً ، والنهي عن المنكر عندما يكون علناً^(٢) ؛ وهذا الأصل له سند في نصوص القرآن^(٣) ؛ فقد قال الله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر^(٤) » . ونجد هذا الأصل أيضاً يتردد في أحاديث السنة والشيعة ؛ فقد قال عليّ في وصيته^(٥) لابنه الحسن ، أن النبي قال له : « يا عليّ ، امر بالمعروف وانه عن المنكر » .

فكان الحسبة واجب ديني ، وفرض على كل مسلم ، وعلى الأخص القائمين بأمور المسلمين ؛ فكانت أعمال الحسبة — في رأى الشيعة^(٦) — تدخل في عموم واجبات الإمام ، بسبب كونها خدمة دينية ، ولكن كما في غيرها من الوظائف الدينية الأخرى ، كان الإمام يستخلف فيها من يراه أهلاً لها . والواقع أنه ليس من السهل تحديد أصل هذا المبدأ الديني للحسبة عند فقهاء المسلمين ؛ فقد تعدت الحسبة في الدول الإسلامية أصولها المثالية الدينية في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، إلى واجبات عملية تتفق والمصالح العامة للمسلمين ، ذلك لأن معظم سكان المدن كانوا من أرباب الحرف والتجارة ؛ فلم تعد الحسبة مراقبة للأخلاق فقط ، وإنما مراقبة للغش في الصناعة والمعاملة ، وأصبح هذا الأخير الموضوع الأساسي للحسبة ؛ ولذلك كانت كلمة الحسبة تعني « مراقبة الأسواق » وكلمة المحتسب تعني « مراقب الأسواق » ؛ وفي رأى علماء المسلمين^(٧) تُعتبر الحسبة أشبه بخدمة اجتماعية ، لأنها تتفق ومظاهر الحياة الداخلية للمدينة ،

(١) مقریزی ، خطط ، ١ ص ٤٦٣ ؛ ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٥ . وبعدها .

(٢) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ص ٤٠٦ ؛ انظر . Les Statuts, p 513 : Fagnan .

(٣) حاجي خليفة ، ١ ص ١٦٦ ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ٦ ص ٢٩٦ وبعدها .

(٤) سورة ٣ آية ١٠٤ .

(٥) Ismaïli law, p 40 : Fyzee

(٦) تاج العقائد ، ص ٤٨ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ١ ص ٤٠٦ .

حيث نلمس فيها بذرة النظام البلدى الحالى .

وقبل مجيء الفاطميين ، كانت الحسبة فى مصر تابعة لحسبة بغداد ؛ ولكن لما كان الفاطميون خلفاء مستقلين ، صارت القاهرة مقراً للحسبة الفاطمية ، وأصبح لمتوليها حق استخدام النواب عنه بالقاهرة مصر ، وجميع أعمال الدولة ، كقنواب القضاء (١) .

وكان المحتسب — كغيرة من أرباب الوظائف الكبار — توليه السلطة العليا منصبه ؛ فكان يُعين « بسجل » (٢) ، على أساس أن سلطته مستمدة من سلطة الخليفة . ولكن غالباً ما كانت الحسبة تُضاف إلى عمل بعض أرباب الوظائف القضائية ، مثل : صاحب الشرطة (٣) أو قاضى القضاء ؛ فكانت تذكر فى سجل هذا الأخير ، عند الكلام عن النظر فى دار العيار (٤) . كذلك كان طبيعياً أن يدخل عمل الحسبة فى اختصاصات وزير التفويض بسبب سلطته العامة على القضاء ؛ فكان مثل قاضى القضاء يفوض فيها من يقوم مقامه .

وكانت تولية المحتسب تصحب برسوم فحمة ، تشبه ما كان لأرباب الوظائف الكبار فى الدولة ؛ فكان الخليفة يستدعيه إلى القصر ليمنحه بنفسه كتاب التولية ؛ وقد جرت العادة أن يُقرأ سجله فى جامعى القاهرة ومصر (٥) ؛ فكان يخرج من القصر إلى الجامعين فى موكب ضخم ، ليطوف خلال الحارات ، وبين يديه خلع للخليفة .

ومنصب المحتسب الفاطمى يشتمل على عمل أى محتسب اسلامى آخر ، إلا أننا

(١) مقرىزى ، خطط ، ١ ص ٤٦٣ .

(٢) صحيح ، ٣ ص ٤٨٧ س ١٤ .

(٣) نفسه .

(٤) مقرىزى ، خطط ، ١ ص ٤٦٣ ؛ انظر . Hauteceur, Wiet .

Mosquées, p. 120.

(٥) مقرىزى ، خطط ، ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

وجدنا في عمله نوعاً جديداً من الحسبة المذهبية ، ذات طابع خاص ، ظهرت بشكل واضح في قضاء حسبة مصر .

فعمل المحتسب في أساسه عمل اخلاقي ، يشمل النهي عن الأمور التي تسمى « منكرات »^(١) في الشريعة الإسلامية ، وهو — كما بينا سابقاً — كان قد تغير ليتفق مع ضروريات الحياة الداخلية في المدن ؛ فكان عمل المحتسب في الدولة الفاطمية — مثل عمل غيره من المحتسبين في الدول الأخرى — اعطاء مثل أعلى ديني واجتماعي للحياة العامة ؛ ويروي المقرئ تفصيل وافية عن هذا الدور^(٢) . فكان المحتسب الفاطمي بمساعدة نوابه ، يطوف الطرقات ليمنع تزاحمها ؛ وكان يُلزم رؤساء المراكب ألا يحملوا مسراكبهم أكثر من الحمولة العادية ، والحمالين ألا يحملوا بها عنهم مالا تطيق ؛ ويأمر السقائين بتغطية الروايا بالأكسية ، ويحذرهم على لبس السرويلات الطوال ذات اللون الأزرق ، الضابطة لعوراتهم ؛ وينذر معلمي المكاتب ألا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ، أو في مقتل ؛ ويحذر معلمي العوم من التفرير بأولاد الناس واغراقهم ؛ ويتنبع كل من يظهر له سوء سيرته وينهاه بالردع والأدب ؛ وينظر في المكاييل والموازين ويشرف على دار العيار^(٣) ، والصيرفة^(٤) ، وكل ما يمس حياة المدينة .

ولكن الفاطميين حاولوا أن يستخدموا النهي عن « المنكرات » لتحقيق

(١) الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق العربي ؛ انظر ابن خلدون ، مقدمة ،

ص ٤٠٦ .

(٢) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ ؛ انظر . Demombynes

Le Syrie, Introd, L. XXVIII. □

(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٦٤ ؛ انظر . Bernhauer . Les Institutions,

de police, chez les Arabes, J. A. , 1861, XVI, 138.

(٤) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٣٤٠ س ٣٠ ؛ انظر . Mez . Die Renaissance :

ترجمة ، ١ ص ١٠٨ . في سنة ٩٧٢/٣٦٢ ، عزز سليمان بن عروة المحتسب جماعة من الصيارفة ؛ فصاحوا باسم الخليفة معاوية ، عدو الفاطميين ؛ فهم جوهر أن يحرق رحبتهم ، ولكن خشى على الجامع .

أغراض مذهبية بحتة ، وذلك بجعل المبادئ الشيعية جزءاً من قواعد الحسبة ؛ فكانت « المنكرات » الشيعية ، العناصر الجديدة التي دخلت في الحسبة الفاطمية .

ومن المحقق أن هذا النوع من الحسبة الشيعية لم يعرف في مصر إلا بمجيء الفاطميين ، وبخاصة في القرن الأول من حكمهم ، ذلك لأن الدولة في أول عهدها ، كانت تحركها بواعث الروح المذهبية ، أما في القرن الثاني من العصر الفاطمي ، فإننا لم نعد نسمع إطلاقاً عن المنكرات الشيعية . فهل ياترى هذا السكون راجع إلى ضعف الروح المذهبية بسبب ضياع سلطة الخلفاء ، وبموسلطة وزراء التفويض ، الذين نجد من بينهم أعداء لعقيدة الدولة نفسها ؟ .

مهما يكن ، لنا أن نؤكد أن مذهب الحسبة كانت تقوى وتضعف حسب تحمس الخلفاء الديني وتعصبهم للمذهب ، وإن كان التحمس البالغ للمذهب لم يبلغ أشده إلا في عهد خليفة واحد ، هو الحاكم ، الذي اعتنق العقيدة الشيعية المتطرفة ، واتهم من معاصريه بارتكاب كثير من المبالغات الدينية ؛ فقد أراد هذا الخليفة أن يخضع أمور الحياة للنص الحرفي للقرآن والحديث الشيعي ؛ فكانت المراسيم والأوامر التي صدرت في عهده ، تتفق جميعها وقاعدة الحسبة ، وهي التي حاول المؤرخون السنيون السخرية منها ، وكان لفرط تعصب الحاكم للدين ، يقوم بنفسه بتنفيذ أوامر الحسبة ونواهيها ، لإعتقاده بفرغها الواجب على القائمين بأمر المسلمين .

وإذا درسنا عن قرب هذه الحسبة الفاطمية ، نلاحظ أنها تهتم قبل كل شيء بحظر أمور سنية ؛ فقد اتهم الشيعة الخلفاء الأوائل بتحويل أصول العبادة ، لإدخال أحكام مخالفة للعقيدة الشيعية ، فكان عمل المحتسب الفاطمي ايقاف كل ما هو دخيل على معتقدات الشيعة .

فكان لابد إذاً من أن تتفق الصلاة مع قواعد المذهب الفاطمي ، وأن يزداد

فيها ما يتفق والعقيدة الفاطمية . لذلك قرر جوهر في ٨ جمادى الأولى ٣٥٩ / ٢٠ مارس ٩٧٠^(١) الأذان الجديد ، وهو يشتمل على العقيدة الفاطمية وعلى الأخص هذه الفقرة : « حتى على خير العمل » . وفوق ذلك ، أمر جوهر في صلاة الجمعة ، أن يجهر بصوت عالٍ بالبسملة : « بسم الله الرحمن الرحيم »^(٢) ، وأن تزداد أيضاً صيغة « القنوت »^(٣) في الركعة الثانية ، وهي تتكون من هذه الكلمات : « اللهم نحن إليك قانتون » . وفي سنة ٩٨٢ / ٣٧٣ ، أمر الخليفة العزيز بقطع صلاة التراويح التي تتكون من عشرين ركعة وعشر تحيات^(٤) . ولنفس الأسباب ، في سنة ١٠٠٢ / ٣٩٣ ، أبطل الحاكم صلاة الضحى ، ذلك لأن الشيعة لا يقومون بها^(٥) وفي ظل هذا الخليفة أيضاً منع الناس من بيع المأكولات الحظية إلى أعداء الفاطميين ، « كالموخيا » التي كان معاوية يحبها كثيراً ، و « الجرجير » المنسوب إدخاله في الطعام لعائشة ، و « المتوكلمية » وهي نبات يدخل في عمل الحساء ، ويُنسب إلى الخليفة العباسي المتوكل^(٦) . كل هذا يبين لنا إلى أى درجة وصل

(١) ابن حنبل ، أخبار ملوك بني عبيد ، تحقيق . Vond ، ص ٤١ ؛ مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٢٧٠ س ٣١ — ٣٤ ؛ ص ٣٤٠ س ٢٤ و ٣١ ؛ قضاعي ، تاريخ ، ورقة ١٧٨ . كانت صيغة الأذان « بحى على خير العمل » على عهد النبي ، ولكن عمر أمر بقطع هذه الصيغة من الأذان ، وذلك لأنه رأى أن الناس إذا سمعوا أن الصلاة خير من العمل تهاونوا بالجهاد وتحلفوا عنه . انظر . النعمان ، دعائم ، ١ ص ١٧٢ .

(٢) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٢٧٠ س ٣٥ ؛ ص ٣٤٠ س ٣٠ — ٣١ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ٢٧٠ س ٣٤ ؛ ٣٤٠ س ٣١ ؛ انظر . Droit mu- : Query .

:De Sacy : A Dictionary of Islam, p. 101 : Hughes sulman, I, p 81
Chrest, 2, p. 99.

(٤) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٣٤١ س ١٥ ؛ ابن إلياس ، بدائع ، طبعة القاهرة ، ١ ص ٥٢ .

(٥) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٣٤١ س ٢٥ — ٢٦ ؛ انظر . De Sacy .

Druzes, Instrod, CCXVII.

(٦) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٣٤١ س ٢٩ — ٣٠ ؛ مقرئزي ، نهاية الأدب ، ٢٦ ورقة ٥٣ ؛ ابن إلياس ، بدائع ، ١ ص ٥٢ . ذكرت الملوخيا ونوع من السمك لا قشعر له في سجل الختسب غين في عهد الحاكم . انظر . مقرئزي ، خطط ٢ ص ٣٩٧ س ٣٢ .

الحقد المقيت الذي يحمّله الشيعة للسنة^(١)؛ فكان كل ما ينهى عنه المذهب الشيعي أو لا يتمشى معه — ويمكن دخوله في اختصاص المحتسب — يكون جزءاً من عمله .

وعلى العكس ، استغلت الحسبة على وجه آخر ، لتحقيق أغراض الدولة السياسية ، فمن العجيب أن نقرر بأنه على الرغم من مذهبية الدولة وتعصبها ، فإنها تركت للمصريين حرية شرب الخمر والمجون دون قيد ؛ فترتب على ذلك المبالغة في الفساد والانغماس في الإباحية ، مما كان له أثره في الخلفاء أنفسهم ، وأثار الإنكار والانتقاد من أعدائهم ، ولكن الحسبة كانت بالنسبة لهم وسيلة لزيادة تقربهم من المصريين .

ومع ذلك ، كان الخلفاء الأتقياء ، مثل الحاكم ، يحاولون أن يضعوا حداً لهذا المجون ؛ فقرر هذا الخليفة كثيراً من الأوامر الرادعة صيانة للأخلاق المهتدة . ففي سنة ٤٠٢/١٠١١ ، قرئ سجل للمحتسب غين^(٢) ، يوصيه فيه الحاكم بالتشديد في منع شرب النبيذ أو صنعه ، أو أي نوع من المسكرات ، وتتبع السكرى ؛ فمصر في ذلك الوقت ، اشتهرت بصناعة البيرة المسماة « فُقّاق » والنبيذ المسمى « مزز »^(٣) . كذلك رغبة منه في المحافظة على الآداب ، حرم على كل شخص

(١) ازداد هذا الحقد شدة لما أمر الفاطميون في سنة ٣٩٥/١٠٠٤ بسب « السلف » أعداء على وهم : عائشة زوجة النبي ، وأبو بكر وعمر وعثمان ، وطلحة والزبير ، والخليفة معاوية وعمرو بن العاص . فكان هذا السب يقرأ في الجوامع ، أو يكتب على أبواب الحوانيت والبيوت ، وسائر المساجد ، وعلى المقابر ، وحتى « الصحراء » كما يقول المقرئ مبالغاً . انظر . مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٣٤١ — ٣٧ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم ، ٢ ص ٦٣ .

(٢) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٢٩٧ — ٨ ؛ انظر . De Sacy . Chrest, 2,

p. 460.

(٣) مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٣٤٢ ؛ انظر . De Sacy:Sefer Nameh, Schefer,pIII. Chrest, 2, p. 437 sq. يسمى ناصري خسرو هذين النوعين من الشراب « الكشكاب » ، وهو شراب منعش .

الدخول إلى الحمام عارياً بدون منزر^(١) ، وأمر النساء بالألا ينظرن من الطاقات أو الأسطح ، ومنع الخفافين من عمل الأخفاف لهم ، حتى يعوقهن عن الخروج^(٢) . ومنع الناس أيضاً من اللهو العلى ، فنع الغناء ، والعزف على الآلة الموسيقية ، والاجتماع على شاطئ النيل للفرجة ، وحرّم عليهم الجلوس فى الحوانيت (المقاهى)^(٣) .

وفى عهدده تشدد المحتسب فى مراقبة « أهل الذمة »^(٤) ، حيث رُوقب مسلكهم وحُد من حرّيتهم ، وذلك لإظهار ما فى الإسلام من العزة ؛ فقد أعاد الحاكم بعض الواجبات الدينية على أهل الذمة ، فقرأ سجل يُجر فيه أهل الذمة على لبس « الغيار » ، وهى ثياب مميزة لونها أسود ، كلون العباسيين أعدائهم^(٥) . والواقع أن اليهود ، سواء فى دار الإسلام أو فى البلاد المسيحية ، كانوا يتميزون ببعض العلامات من لون خاص فى لبسهم^(٦) .

هذا التطرف فى تنفيذ أمور الحسبة لم يستمر طول عهد الدولة الفاطمية ؛ فقد كان للخلفاء أهداف سياسية ، تمنعهم من الاستمرار فى تطبيق مثل هذه المبالغات ؛ ولذلك فإن الخليفة الظاهر الذى خلف الحاكم ، منسح بعض الحرية وسمح حتى بشرب الخمر^(٧) .

(١) مقرزى ، خطط ، ٢ ص ٣٤١ ؛ انظر . Druzes Introd. CCCX : De Sacy .

(٢) ابن الأثير ، ٩ ص ١١٨ ؛ سيوطى ، حسن ، ٢ ص ١٣ ؛ انظر .

Druzes, introd CCLVIX : De Sacy

(٣) مقرزى خطط ، ٢ ص ٢٨٥ س ٣٩ ؛ ٢٩٧ س ٣٢ — ٣٣ ؛ Wiet :

L'Egypte, IV, p 200

(٤) الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص ١٠٦ — ١٠٧ ؛ مقرزى ، خطط ، ٢ ص ٢٨٦

س ٩ .

(٥) مقرزى ، خطط ، ٢ ص ٣٤١ س ٢٧ .

(٦) Chrest, 2, p 95. : De Sacy

(٧) مقرزى ، خطط ، ١ ص ٣٥٤ س ١٣ .

وهناك من عمل المحتسب أيضاً ناحية مادية تختلط بمبادئ الحسبة المثالية والاجتماعية؛ فقد كان على المحتسب بالإضافة إلى ماسبق؛ الإشراف على التجارة والصناعة في المدن، وذلك بمراقبة التجار وأصحاب الحرف والصناعات، لمنع الغش؛ فكانت هذه المراقبة الحكومية — بقصد الصالح العام — تكون الناحية المادية من عمل المحتسب.

فجميع ما كتبه المؤلفون عن وظيفة المحتسب تشير إلى أهمية دوره من الناحية الاقتصادية، إذ كان على المحتسب أن يتعرف على دقائق كل حرفة وتجارة ليكشف بسهولة عن الغش الذي يرتكب في الأسواق، ضد حياة الناس المعيشية. والمرجع الهام الذي تعرض للمحتسب الفاطمي وعمله، وصلنا من عصر متأخر عن عصر الفاطميين في العصر الأيوبي، وهو من تأليف الشيزري^(١)، وفيه يبين المؤلف أوجه النشاط الاقتصادي في مصر ودور المحتسب، الذي نظن أنه لم يحدث له تغيير كبير؛ حيث أن المؤلف عاش في أواخر الدولة الفاطمية.

فأهم ما يميز الحياة في العصر الفاطمي ازدهار التجارة والصناعة، فنحن لا نعرف أية نهضة اقتصادية مماثلة في أي بلد آخر، فنذجىء الفاطميين مصر، شرعوا في بناء عاصمة جديدة «القاهرة» بجوار «مصر» العاصمة القديمة؛ فكان لبناء هذه المدينة الجديدة أثره في نهضة البلاد الاقتصادية، ونمت اللدينتان معاً، وأصبحت مصر — بطبيعة الحال — مركزاً اقتصادياً لامبراطورية خلافية واسعة الأرجاء يشهد بذلك كتب الرحالين وقتئذ.

فيروى ناصري خسرو^(٢)، أن القاهرة كانت مدينة كبرى قل نظيرها من المدن؛ فكان فيها أكثر من عشرين ألف دكان، ملكاً خاصاً للخليفة.

(١) نهاية الرتبة في طب الحسبة، تحقيق العربي، انظر.

(٢) أنظر. Sefer Nem eh, trad, Schefer, p 127.

ويشير نفس الرحالة^(١)، إلى مصر أو الفسطاط وتميزها بتوافر جميع وسائل الحياة فيها، وجميع ما هو جيد وجميل، ويضيف إلى ذلك، بأن أسواقها مملوءة بكل ما في العالم من المنتجات، حتى النادرة منها والتمينة؛ فهي تفيض بالبضائع التي تأتيها من كل أجزاء العالم.

ومن المحقق، أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر، وهما من أكبر المدن التجارية والصناعية، مدن أخرى كثيرة في طول البلاد وعرضها، تعتبر مراكز اقتصادية نشيطة، مثل: تنيس التي كان فيها — كما يروي ناصر بن خسرو^(٢) — ما يزيد على عشرة آلاف دكان؛ ومثل: دمياط والإسكندرية، ودابق، وشطا وقفت، وعيذاب، وقوص، ومدن أخرى كثيرة اشتهرت بصناعاتها المزدهرة أو بغنى تجارتها.

هذا النشاط الاقتصادي الذي ساد المدن إبان الحكم الفاطمي، كان يخضع لنظام دقيق يتحكم في وسائل الانتاج، عم جميع بلاد الإسلام، ويعتبر النظام الشعبي الوحيد في الدول الإسلامية.

فكانت كل طائفة من التجار وأصحاب الحرف وعلى رأسها شيوخها، تضم صنفاً من أرباب الصناعات أو التجارة وتسمى به^(٣)، ولها حارتها وسوقها الخاص، وكانت الأحياء التي تسكنها — وهي تقع غالباً حول المسجد — مراكز للنشاط الاقتصادي في البلاد. ففي الفسطاط، كانت الطوائف تتجمع على الأخص في (الأسواق) حول جامع عمرو؛ كذلك كان بناء القاهرة، سبباً في ظهور طوائف جديدة، تجمعت في (حارات)، نشأت فيها أماكن للصيرفة ودكاكين ورباع وفنادق، مما دعا إلى ازدهار الصناعة ونشاط التبادل التجاري. ويقدم الشيزري^(٤) جدولاً مفصلاً

١ نفسه، ص ١٤٦ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ١١٠.

(٣) الشيزري نهاية الرتبة. انظر.

(٤) نفسه، ص ٤.

بأرباب التجارة والصناعات في القاهرة ومصر، وهي شبيهة بما في المدن الإسلامية الأخرى في العصور الوسطى، أو حتى في المدن الحالية في الشرق .
هذا النظام النقابي تسبب في ظهور تعبيرات اصطلاحية جديدة، مثل عبارة :
« دار الوكالة ^(١) » ، التي ظهرت لأول مرة في عهد الخليفة الأمر ، وتعني بيتاً واسعاً للتجار ، على الأخص للأجانب منهم ؛ وهي دليل على زيادة النشاط الاقتصادي ، الذي كانت الدولة تراقبه .

ولقد اتخذ المحتسب لواجباته الدينية والعملية الواسعتين أعواناً من بين الخبراء سواء في الصناعات أو في التجارة ، ليقوموا بالطواف والتفتيش عند أبواب الحرف والمعايش ؛ فكان كل من هؤلاء الخبراء يسمى : « عريفاً » ^(٢) أو « نائباً » ^(٣) .

فكان المحتسب يطوف هو أو نوابه في الأسواق أو الحارات ليمشرك الحسبة في مكانها ، أو أنه كان يجلس في أحد الجامعين الكبيرين في القاهرة وفي مصر ، يوماً بعد يوم ^(٤) ، على دكة الحسبة ^(٥) ، للنظر في قضايا اختصاصه .

وتبين لنا نصوص التاريخ أن للقيام بالحسبة سلطة تنفيذية كقضى القضاة ، ولكن العقوبات التي كان يصدرها وتسمى « بالتعزير » ^(٦) ، لم تكن تبلغ عقوبات « الحدود » ؛ وإن كانت تختلف على حسب قدر الذنب ؛ وهي تشبه

(١) مقريري ، خطط ، ١ ص ٤٥١ ؛ انظر . Clerget . Le Caire, II, p313-4 .

(٢) الشيزري ، ص ٣٦ .

(٣) مقريري ، خطط ، ١ ص ٤٦٣ .

(٤) نفسه .

(٥) كان المحتسب يعلق على دكة الحسبة السوط والدرة والطرطور ، لتخاف منها قلوب

المفسدين . انظر . نفسه ؛ الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص ١٠٨ .

(٦) ابن تيمية ، الحسبة في الاسلام ، القاهرة ١٣١٨ ، ص ٣٨ وما بعدها .

التعزير في جميع الدول الإسلامية الأخرى ، وتشمل بصفة خاصة : الردع والجلد والتشهير والتوبيخ والنفي والضرب .

فكان الردع يستعمل غالباً كعقاب ، وذلك بزوال الأمر المخالف عن طريق حذف الوسائل التي تسببه ؛ وقد غلب هذا التعزير في عهد الحاكم ^(١) ، الذي كان يقوم بنفسه بكسر الأواني التي تحوى الشراب المسكر .

وكان المحتسب الفاطمي يتخذ أيضاً الجلد وسيلة للتعزير فيما يصدره من عقاب ، وذلك بضرب المذنب بالسوط أو بالدرّة التي من جلد البقر ^(٢) أو بالعصا ؛ وكان هذا العقاب يختلف على حسب الذنب ، دون أن يؤدي على كل حال إلى حد الموت .

كذلك وصف لنا ناصري خسرو صورة التشهير عندما غش تاجر أحد المشترين ؛ فقد أمر المحتسب بوضعه على جمل ليُشهر به في المدينة ، وقد أعطى للتاجر جرساً بيده ليذيقها ، وهو لا يفتأ عن الصياح بصوت عال : « غششت وعوقبت ، فليقع نفس العقاب على جميع الكذابين » ^(٣) .

وعلى ذلك كانت الحسبة مثل القضاء لها سلطة تنفيذية يقوم بها المحتسب بنفسه ، أو يعهد بها إلى « والى الشرطة » ^(٤) .

وفي الواقع ، كانت الحسبة في العصر الفاطمي من أهم مناصب الدولة ، بعد القضاء والدعوة ^(٥) ؛ فكان يطلب من متوليها أن يكون عارفاً بأحكام الشريعة

(١) مقرئى خطط . ٢ ص ٢٨٦ ؛ يحيى ، ص ٤٨١ .

(٢) الشيزرى ، نهاية الرتبة ، ص ١٠٨ .

(٣) انظر . Sefer Nameh, p 153

(٤) صبح ، ٣ ، ص ٤٨٧ ؛ مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٦٤ — ٥ ؛ انظر :

Institutions de Police Chez les Arabes, J, A, 1861, XVI, p 120. : Bernhauer

(٥) صبح ، ٣ ، ص ٤٨٧ .

وأصول المعاملات^(١) ، وأن يكون ذا صفات أخلاقية عالية ، وكان الخليفة لا يعهد بها إلا لشخص من أعيان الشهود العدول^(٢) ، يراقبه بنفسه عن كثب ، وذلك بقصد المصلحة العامة .

ولكى يكون المحتسب عفيفاً عن أموال الغير ولا تفسده الرشوة ، كان يتسلم بانتظام مرتباً يبلغ ثلاثين ديناراً شهرياً^(٣) ، فضلاً عما يمنحه الخليفة من خلع ؛ فقد أنفد الحاكم إلى محتسبه غين^(٤) ، في سنة ٤٠٢/١٠١١ ، خمسة آلاف دينار ذهباً ، وخمسة وعشرين فرساً بسروجها ولجها ، حتى يشعره بعطفه ويمنعه من الرشوة .

صاحب الشرطة : — تحديد اختصاصه — مساعدوه — تطبيق العقوبات — السجن .

أما عن «صاحب الشرطة» فإنه يشغل وظيفة دينية في نظام قضاء الدولة^(٥) ، يُطلق عليها « الشرطة » ، وموضوعها — كما يظهر مما كتبه مؤرخو العصر الفاطمي — تنفيذ العقوبات التي يصدرها على الأخص قاضي القضاة^(٦) . وهذه الوظيفة من وظائف السيوف^(٧) التابعة للقضاء ، ولذا عدّها الفقهاء من بين الوظائف القضائية في الدولة ، فابن خلدون يرى أن ما يسمى بصاحب الشرطة هو الذي يستوفي الحدود إذا تنزه عنها القاضي^(٨) .

(١) الشيرازي ، نهاية ، ص ١٥ .

(٢) صبح ، ص ٣ ، ٤٨٧ .

(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٤٦٤ س ٦ .

(٤) نفسه ، ٢ ، ص ٢٩٧ س ٢٩ ؛ انظر . De Sacy . Chrest 2, p460 .

(٥) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ، ص ٤٠٠ .

(٦) نفسه ، ١ ، ص ٤٠١ ؛ Prolégomènes, trad. Slane, 2 p 35-36 .

(٧) صبح ، ص ٣ ، ٤٨٢ — ٤ .

(٨) ابن خلدون ، مقدمة ، ١ ، ص ٤٠٠ ؛ Prolégomènes. trad. Slane 2, p 35-36 .

وكان يُطلق على القائم بهذه الوظيفة كلمة : «صاحب» وأحياناً «والى»^(١) ،
وهما كلمتان كانتا تطلقان على كثير من الموظفين الكبار في العهد الفاطمي ، وحتى
في العصر المملوكي ، وتدلان بصفة عامة على موظف هام من أرباب الوظائف .
ولكن «صاحب الشرطة» مع تميزه في عمله بوضوح عن «المحتسب» ، فإنه
لم يكن من السهل تمييزه عن « والى القاهرة » أو « والى مصر » ، فكل منهما
يتداخل عمله في عمل الآخر ، فضلاً عن أنه تنقصنا المعلومات الدقيقة عن اختصاصات
كل منهما .

فكل ما نعرفه عن والى القاهرة أو مصر — بناء على ما أورده المقرئى
والقلقشندي^(٢) — أنهما يشتركان في تنظيم موكب الخليفة بمساعدة طائفة من
العسكر، دون أن يكونا من ضمن حرس الخليفة الخاص، الذى يتكون من قوات،
تُعرف : « بصبيان الركاب » لها مقدمون يختارون من بينهم^(٣) .
كذلك ، عندما غادر الخليفة القاهرة ليقوم بحملة عسكرية ، كان يترك عاصمته
لنائبه والى القاهرة^(٤) ؛ فكان والى القاهرة يقوم أحياناً بتنفيذ العقوبات وأعمال
الشرطة نفسها^(٥) .

ومن ناحية أخرى ، كان تقسيم الشرطة يتفق مع تقسيم ولايتى القاهرة
ومصر ، فكانت الشرطة تنقسم في العصر الفاطمي إلى قسمين متميزين : «الشرطة
العليا» و «الشرطة السفلى»^(٦) ؛ فالأولى في القاهرة والثانية في مصر . ونلاحظ
أن هذين القسمين كانا موجودين قبل تأسيس الفاطميين للقاهرة ، في العصر
الطولونى ؛ فكانت الشرطة العليا تشمل العسكر والقطائع ، والشرطة السفلى

(١) صحح ، ٤ ص ٢٣ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٥٠٧ ؛ مقرئى ، خطط ، ١ ص ٤٤٩ .

(٣) صحح ، ٣ ص ٤٨٤ ؛ ٥٠٧ .

(٤) مقرئى ، خطط ، ٢ ص ١٩٥ س ٣٨ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات ، ١ ص ٣٨٢ .

(٦) ابن الصيرفى ، اشارة ، ص ٢٤ .

تشمل الفسطاط أو مصر . وقد كان تأسيس القاهرة على أيدي الفاطميين يقضى — ولا ريب — بوجود شرطة خاصة بها ، ولذلك جعل للقاهرة — وهى المدينة الخليفة — الشرطة العليا ، بينما جعلت الشرطة السفلى للفسطاط والعسكر والقطائع .

على كل حال ، كان صاحب الشرطة أو الولى يتخذ له مساعدين يسمون : « الأعاون »^(١) جمع « عون » ، وهم يكونون رجال الشرطة ؛ فكان عملهم لا ينحصر فى حفظ الأمن نهاراً وليلاً ، كما هو الحال فى أيامنا ، وإنما كانوا يقومون بتنفيذ الأحكام التى ينطقها القاضى ، وبتحقيق أقوال المتخاصمين ، و بإفناذ الخصوص عند الاقتضاء بالقوة ، وبالحفاظة على النظام وقت جلوس القضاة ، وبالقيام بالتحريات وحراسة قاضى القضاة . من هذا يتبين ، بلا ريب ، أن الشرطة كان عملها الرئيسى تطبيق العقوبات التى ينطقها القاضى بالقوة ، فهى نظام تابع للقضاء .

فالشرطة إذاً ، كالحسبة ، أداة تنفيذ ، حيث أن عمل والى الشرطة هو تنفيذ « الحدود » والأحكام التى يوقعها القاضى أو أى موظف آخر ؛ ففى كثير من الحالات ، كان المحتسب يتقدم إلى الشرطة لشد أزره فيما يوقعه من تعزير . ولم تكن العقوبات التى تنفذها الشرطة تشمل على العقوبات التى تنفذ فى وقتها فقط ، وإنما تشمل أيضاً على العقوبات الطويلة الأمد كالسجن ، وحتى قبل مجئ الفاطميين ، كان الطولونيون يعهدون بتنفيذ عقوبة السجن إلى الشرطة ، على الخصوص^(٢) .

أما فى عهد الفاطميين ، فإن السجن كانت تسمى : « سجون الولاة »^(٣) ، أى السجن التى كان الولاة يشرفون عليها ، حيث أن منصبهم كان يندمج

(١) مقرىزى ، خطط ، ٢ ص ١٨٧ س ٢٢ .

(٢) انظر . Zaki : Les Tulunides , p 204 .

(٣) مقرىزى ، خطط ، ٢ ص ١٨٧ س ٢١ .

في منصب والى الشرطة ويتداخل فيه . وكان لقاضي القضاة — بسبب سلطته العامة على الشرطة — أن يستوضح أحوال المعتقلين في هذه السجون ، ويستخرج أمر الخليفة بالإفراج عن قضي منهم مدة العقوبة ^(١) . وقد وجد في ذلك العهد نوعان من السجون .

١ — سجن المجرمين السياسيين ، وكان وسيلة ماهرة لإخفاء الرجال الخطيرين على الدولة ، وهو يُعرف باسم « خزانة البنود » ^(٢) التي — قبل أن تكون سجنًا — كانت عبارة عن خزانة للسلاح والرايات ، أنشأها الخليفة الظاهر ؛ ولكن بعد حرقها في سنة ٤١٦/١٠٦٨ ، تحولت إلى سجن يسجن فيه الأمراء والأعيان ^(٣) .

٢ — سجن أرباب الجرائم من السراق وقطاع الطرق ونحوهم ، ويُعرف منه اثنان ، أحدهما في القاهرة والثاني في مصر ، والاثنان معروفان باسم : « حبس المعونة » ^(٤) . ونحن نعرف من وصف المقرئى أنها كانت أشبه بجهم الحمراء ، حيث كان السجناء يُحشرون في مكان غير مسقف وهم في الحديد ، يؤذيهم حر الصيف وبرودة الشتاء ، ويتركون هكذا من غير أن يُطعموا شيئاً إلا بما يتصدق عليهم به الناس ، وكان منهم المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، ويستعملون في الحفر والعمائر ونحو ذلك ، تحت أعين « الأعران » ^(٥) ، فإذا انقضى عملهم ، رُدوا إلى السجن في حديدهم .

(١) ابن حجر ، رفع ، ورقة ٢٥٦ ؛ ابن ميسر ، ص ٧١ .

(٢) مقرئى ، خطط ، ٢ ص ١٨٨ ؛ ابن القلانسي ، ص ٨٤ ؛ ابن الصيرفي ، إشارة ،

ص ٥٥ .

(٣) مقرئى ؛ خطط ، ٢ ص ١٨٨ . يروى عمارة أن في دار الوزارة قاعة تسمى

« قاعة البستان » كان يحبس فيها الوزير أعداءه ، فهل ياترى كانت سجنًا سياسياً ؟ انظر .

عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٨٧ .

(٤) مقرئى ، خطط ، ٢ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

(٥) نفسه ، ٢ ص ١٨٧ س ٢٤ .

وفي عهد الحاكم ، ظهر عقاب جديد لسكبار رجال الدولة ؛ فقد كان الخليفة يأمر غالباً والى الشرطة بمصادرة أملاك المتهمين ومنعهم من الخروج من بيوتهم ، وقد كان هذا أبرز عقاب لشخصيات الدولة الهامة في عهد الحاكم الذي أفرد ديواناً للأموال المصادرة باسم : « ديوان المفرد »^(١) .

ولسنا نستطيع أن نستبين مما لدينا من معلومات وردت في كتب المؤرخين القدامى عن الشرطة ، أنها كانت موجودة في جميع ولايات مصر ، وإن كان من المرجح ، أنحكام الولايات أنفسهم كانوا يقومون بها ، وذلك باعتمادهم على قوات العسكر التي كانت تحت تصرفهم .

وعلى العكس ، كانت الشرطة في القاهرة ومصر الأداة الرسمية والشرعية الوحيدة ، التي استخدمتها الدولة ممثلة في الخليفة ، كحاكم مطلق ، في توقيع العقوبات التي يأمر بها ، أو تأمر بها السلطة القضائية .

الدعوة :

كانت الدولة الفاطمية في مصر ، كما في المغرب التي نشأت فيه ، تقوم على أسس العقيدة الشيعية في الإسلام ، ويعنى هذا أن الخلافة الفاطمية أوجدت دولة مذهبية قبل كل شيء .

ولقد عرف الفاطميون — لكي يتوطد حكمهم في البلاد التي فتحوها — أنه لا بد من أن يمكنوا لعقائدهم الدينية ؛ فهم يرون أن يعتمدوا على تفوقهم الحزبي في حكم شعوب مغلوبة حقاً ، ولكن يجب أيضاً أن تعتنق هذه الشعوب مبادئ الدولة ؛

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٨٧ س ١٤ ؛ انظر . Introd, XLII : Druzes .

ولذا سارت القوة الحربية والدعوة الدينية جنباً إلى جنب في تأسيس دولتهم
في مصر .

هذه الدعوة تُسمى فقط : « الدعوة »^(١) أو « الدعوة الهادية »^(٢) ، كان
أساسها أن العقيدة الفاطمية هي وحدها الصحيحة ، وأن غيرها تُعتبر مزيفة ،
فالدعوة إذاً وسيلة لنشر الدين الصحيح .

وليس في نيتنا أن نبحت الناحية الدينية البحتة للعقيدة الفاطمية أو الدخول
في تفاصيل مبادئها الفلسفية ، لأن ذلك يخرج بنا عن نطاق موضوعنا ، ولكن
لما كان الجانب السياسي والجانب الديني متصلين اتصالاً وثيقاً في بناء كل دولة
اسلامية ، وعلى الأخص في دولة مذهبية كالدولة الفاطمية ، فانا سنكتفي أن نشير
هنا إلى الجانب السياسي من هذه الدعوة .

فقد كانت غاية هذه الدعوة السياسية تأييد الحكم الفاطمي في مصر ، حتى
يتوطد بطريقة غير قابلة للنقاش في حق الإمامة الفاطمية في حكم العالم الإسلامي^(٣) ؛
فمنذ ظهور الفاطميين ، وهم في صراع ضد العباسيين ، يدافعون بصبر عن حق على
المقدس وسلالته في الخلافة ، ولذلك فانهم حاربوا أعداءهم المعتصمين ، أولاً بالدعوه
المستترة أو ما يعرف « بالتقية »^(٤) ، وبعد تأسيس الخلافة الفاطمية في إفريقية
ثم في مصر ، أصبحت الدعوة علنية وجزءاً لا يتجزأ من نظم الدولة .

ولما كانت الإمامة عماد كل نظام سياسي ، وقاعدة أقيم على أساسها بناء
الدين الفاطمي ، فإن الدعوة وجهت كل عنايتها نحو تأييد حقها المطلق

(١) رسائل المستنصر : (٥٠) ورقة ٢٧٢ ؛ (٥٤) ورقة ٢٨٨ .

(٢) نفسه : (٤٦) ورقة ٢٥١ ؛ الهداية ص ٧ .

(٣) انظر . الحجاب . : Nasiri Husrau p 256 .

(٤) أنظر . Le dogme , p 201 : Goldziher .

في ولاية أمر المسلمين ، بأن وفقت بين المبادئ الدينية وبين أغراضها ، التي كان محورها الإمام .

ومع أن القرآن مصدر الإسلام الأول ، لا يشير مباشرة أو غير مباشرة للإمامة الفاطمية ، فإن العقيدة الفاطمية لجأت إلى تفسير القرآن ، أو بمعنى آخر إلى المعنى الباطن (التأويل) ^(١) ، وهذه الكلمة تفعيل من آل يؤول ؛ ففي حالة الشبهة ، فإن الفيلسوف المؤيد في الدين (م ٤٧٠ / ١٠٨٧) ، يرى أنه يجب أن يرجع إلى التأويل في القرآن ^(٢) . ويضيف إلى ذلك ، أن سلالة عليّ ، خلفاء الرسول ، يملكون وحدهم هذا التأويل ؛ فقد قال الرسول : « أنا صاحب التنزيل وعلىّ صاحب التأويل » ^(٣) ؛ فكان القرآن إذاً بالنسبة للدعوة معيماً لا ينضب ؛ فكل كلمة لها معنى واضح ، ولها أيضاً معنى باطن ودلالة مقصودة ^(٤) . وعلى الرغم من أن المعنى الباطن ظهر عند مذاهب أخرى ، مثل مذهب إخوان الصفاء ^(٥) ، فإن الفاطميين أعطوه مظهراً فلسفياً ، وكيفوه وفق أغراضهم السياسية .

فبعد الشيعة ، كان تفسير المعنى الباطن للنصوص القرآنية أشبه بمعجزة الإمام ، فينسب الشيعة إلى الأئمة القدرة على إظهار المعنى الصحيح ؛ فكان الأئمة دون سائر الناس لهم سلطة تفسير النصوص ، بسبب معارفهم الخاصة التي يتوارثونها في كتب أجدادهم ^(٦) ، فالإمامة ضرورية لمعرفة مبادئ الدين الصحيحة ^(٧) .

فكانت ، الدعوة ، التي تتكون من تأويل سور القرآن المختلفة ، لا تعنى في

(١) تاج العقائد ، ص ٤٧ ؛ غزالي ، فضائح الباطنية ، ص ١١ — ١٢ .

(٢) المؤيد ، سيره ، تحقيق كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٧ .

(٣) نفسه .

(٤) تاج العقائد ، ص ٤٧ .

(٥) ابن عبد الله ، إخوان الصفاء ، زنبرار ١٣٠٦ هـ ، ١ ، ص ٦١ .

(٦) النعمان ، مجالس ، ١ ورقة ١٦٨ .

(٧) تاج العقائد ، ص ٤٢ .

نظر الشيعة إلا الحب لعليّ وأسرته^(١)، والحمد المقيت لأعدائه؛ وحتى الأحاديث النبوية خضعت هي الأخرى للتفسير الباطن، لتؤدى نفس الغرض .
ونستطيع أن نميز نوعين من الدعوة، إحداهما علمية، والأخرى سرية .
فالأولى^(٢) غير متطرفة، وتتركز في دراسة وشرح الفقه؛ ففي الدول الإسلامية، وعلى الأخص في دولة مذهبية، لا نرى انفصلاً بين القانون والعقيدة .
ففي صفر ٣٦٥ / ٩٧٥، أملى عليّ بن النعمان القاضي مختصراً في الفقه ألفه أبوهم بعنوان: «الاقتصار»^(٣)؛ كذلك رتب كثير من القضاة والدعاة، وحتى الوزراء^(٤)، دروساً في الفقه الفاطمي .

وتظهر هذه الدعوة أيضاً في عرض المعنى (الظاهر) للعقيدة الفاطمية، وهي تشمل تفسير نصوص القرآن بعيداً عن التعقيد، فإن معرفة التفسير الظاهر تتلخص في تأكيد حق الإمام الفاطمي^(٥) .

أما الدعوة الثمانية فكانت سرية تعرض للمعنى (الباطن) للعقيدة، وتكون جوهر الدعوة الفاطمية، خصوصاً وأن المعنى الباطن تحول بسرعة إلى تعقيد شديد في

(١) غزالي، فضائح الباطنية، ص ١١ — ١٢ . فثلا يدل آدم على علي، والشيطان على أبي بكر أول خليفة، والكعبة في مكة على النبي، وبابها على علي، والطواف حول الكعبة سبع مرات، على الاعتراف بالأئمة من محمد حتى الإمام السابع... الخ .
(٢) خاصاً بالدعوة الأولى، يقول M. Canard: «إن هذه الدعوة السياسية، التي كانت في معظم الوقت تهتم بالعقيدة ذاتها، كانت لها مرام خارجية وداخلية . ففي الخارج، كانت ترمي إلى إضعاف قوة العدو على المقاومة، حيث كان الفاطميون يريدون الحلول محله في السيطرة على العالم، وإلى استمالة رعاياه بالانضمام إليهم، ليقودوا الصراع في بلاده . وفي الداخل، كانت ترمي إلى إقناع رعاياهم الذين بقوا غير مكترئين أو معادين لهم، وإلى زيادة حماس أنصارهم، وإلى التغني بقوتهم وعدالة حكمهم؛ وإلى تأييد شرعية مطالبهم وأنهم مؤيدون من الله في التغلب على أعدائهم وامتلاك بلادهم؛ وهي آراء يريدون بها أيضاً إخماد عدوهم» .
انظر . Annales de l'Institut d'Etudes orientales, t 6, années 1942 — 1947, p. 157.

(٣) مقرئزي؛ خطط، ٢، ص ٣٤١ س ٣ .

(٤) نفسه، ٢، ص ٣٤١ س ٥ .

(٥) المجالس السننصرية، تحقيق كامل حسين، القاهرة ١٩٤٧، انظر .

مقاصده ، فاختلطت أصول العقيدة بآراء من الفلسفة اليونانية ، مما أعطها مظهراً مختلفاً وبعيداً جداً عن الدين ، وعن العقيدة الظاهرة للدولة ؛ فكانت هذه الدعوة تستعمل على سبع أو تسع درجات ، دعوة بعد دعوة^(١) ، ولم يكن ينتقل إلى الدرجة السادسة فيها ، إلا الدعاة وحدهم ؛ فقد ظهر للفاطميين ميل غير عادي نحو الحياة الغامضة .
ولكن لما حاول الفاطميون الجهر بهذه الدعوة السرية ، ثار الناس وقتلوا القائمين بها^(٢) ؛ بل كانت الدولة الفاطمية نفسها — أحياناً — تُلقى هذه الدعوة ، خشية إثارة السنيين من رعاياها ؛ ففي سنة ١١٢٢/٥١٦ ، عمل الأفضل على قتل دار الحكمة ، التي كانت مكلفة بالدعوة السرية^(٣) ؛ فلم تفتح بعد ذلك إلا في عهد المأمون ، وزير الخليفة الأمر ، لتقوم بنفس الغرض : وذلك في نشر دعوة الدولة السرية^(٤) .

واعية الرعاية : لقبه — توليته — مساعدوه — اختصاصاته — مجالس الدعوة — اختياره .

وقد وجد في مصر هذان النوعان من الدعوة^(٥) وبلغا أقصى نشاطهما ؛

(١) مقرزى ، خطط ، ١ ص ٣٩١ — ٣٩٥ ؛ غزالي ، فضائح الباطنية ،

ص ٦ — ٧ .

(٢) ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ ص ٦٩ .

(٣) مقرزى ، خطط ، ١ ص ٤٦٠ ص ٢٦ .

(٤) نفسه .

(٥) مقرزى ، خطط ، ١ ص ٣٩١ ص ١٨ ؛ ص ٤٠١ ص ١ . كانت كلمة

« دعوة » تستعمل بمعنى « الدعاية » لتدل على منصب الداعي ، وأحياناً أخرى لتدل على أنصار المذهب الإسماعيلي . انظر . The organization of fatimid pro-

paganda, J. B. B. R. A. S. , 15, 1939, p 18.

فأصبحت القاهرة المركز الديني للدعوة الفاطمية ، ومقر الداعي الأول : « داعي
الدعاة » .

ونظن أن هذا اللقب لم يظهر إلا في مصر دون أي مكان آخر ، ذلك لأن
الداعي الأول في إفريقيا لم يكن إلا « حجة »^(١) ، أي الذي له بعض الإشراف
على غيره من الدعاة^(٢) . كذلك لم يعرف عند العباسيين لقب : « داعي الدعاة » ،
مع أنه كانت لهم دعوة مماثلة في أول حركتهم . وعلى ذلك ، لم يكن لقب داعي
الدعاة معروفاً قبل الفاطميين في أي مكان في العالم ، كما أنه اختفى بزوالهم .

أضف إلى ذلك أن هذا اللقب لم يظهر في أوائل عهد الدولة ؛ فقد لقب به
لأول مرة ، في عهد الحاكم ، الخليفة الثالث ، في صفر ٣٩٣ / ديسمبر ١٠٠٢ ، الحسين
ابن عليّ بن النعمان ؛ فكان أول قاض يتلقب به^(٣) .

وكان القائم بالدعوة — مثل غيره من أرباب المناصب — يخضع للسلطة

(١) أبو منصور ، كتاب الرشد والهداية ، تحقيق كامل حسين ، ص ١٤ ؛ النعمان ،
مجالس ، ١ ورقة ١٠٤ ؛ انظر . Communications sur un dinar : Gateau . fatimide, Hesperis, 1945, p. 71
« ظهور » الأئمة ، يسمى « حاجبا » في أثناء فترة « الست » ، التي غاب فيها الأئمة عن الأعين ،
فكان « الحاجب » العين من الإمام كرئيس للمذهب ، يعتبر ثقة في المسائل الدينية . انظر .
Ismailis and Qarmatians , J. B. B. R. A. S. , 16, 1940 p. 73 : Ivanow
and note I.

(٢) أطلقت لفظة « داعية » في أواخر القرن الثالث / التاسع ، في وقت انتشار الدعوة الفاطمية ،
على دعاة المذهب الفاطمي ؛ وهي أطلقت أيضاً على كل من يدعو إلى مبادئ الدين الصحيحة ،
أو على كل من ينادى بشرعية حق أميرة معينة في امامة المساهين . . الخ . وسابقاً ، كان يطلق على
داعية المذهب الإسماعيلي ، حينما كان معلماً أكثر منه داعية ، اسم « عالم » ؛ وهي كلمة استعملت
أيضاً في المذاهب الأخرى ؛ كما كان المذهب الإسماعيلي نفسه يعرف : « بالتعليمية » . على كل حال
ليس من شك في أن لفظة « داعية » كانت تطلق في الفترة الفاطمية ، على دعاة المذهب
الإسماعيلي ، وبالأخص على رئيس الدعوة في الإقليم ، وحتى على دعاة المذاهب الشيعية الأخرى ،
كالإمامية . انظر . The organization of the fatimid. propaganda, : Ivanow .
J. B. B. R. A. S. , 15, 1939. p, 1 — 10.

(٣) ولادة ، ص ٥٨٧ س ٨ . لم يتلقب النعمان بن حيون « بداعي الدعاة » ، وإنما
كان داعية فقط . انظر . ابن خلكان ، وفيات ، ٢ ص ٢٠٩ .

العليا؛ فكان الخليفة يفوض منصب الدعوة إلى شخص يحمل هذا اللقب. (١) ولكن منذ بدر، كان لوزير التفويض سلطة داعي الدعوة، كما كانت له سلطة قاضي القضاة (٢)، فهو يتلقب فعلا بلقب: «هادي دعاة المؤمنين» (٣)؛ فكان الوزير يقوم مقام الخليفة، في تقليد سجل التولية، إلى نائب عنه يحمل فقط لقب «داعية» (٤)، ويقوم في نفس الوقت بولاية الدعوة كلها. ومع ذلك، كان كتاب التولية يخرج بالضرورة من ديوان الإنشاء باسم الخليفة، ولدينا مثل على ذلك، في سجل تولية أحد الدعاة، من قبل الخليفة العاضد (٥). ومن ناحية أخرى، كان وزراء التفويض السنيون يتلقبون أيضا بلقب: «داعي الدعاة»؛ ففي سجل الوزير شيركوه، وزير العاضد في ١١٦٩/٦٥٤، نجد هذا اللقب مذكورا مع لقب: «كافل قضاة المسلمين» (٦). أما في حالة ما إذا كان وزير التفويض نصرانياً، وهذا لم يحدث إلا في عهد الخليفة الحافظ، فإن الوزير بهرام لم يتلقب بلقب: «هادي دعاة المؤمنين» ولا بلقب: «قاضي قضاة المسلمين» (٧)؛ فكان الخليفة بنفسه يولى داعي الدعوة منصبه.

ولقد كان على داعي الدعوة أن يشرف على الدعوة ليس فقط في مصر، ولكن أيضاً في جميع أنحاء العالم، ولذلك كان عليه أن يعين الدعاة في كل إقليم، وفي

(١) صبح، ١٠ ص ٤٣٤.

(٢) مقریزی، خطط، ١ ص ٤٠٤.

(٣) نفسه، ١ ص ٣٨٢ س ١٧؛ ٤٤٠ س ١٠؛ رسائل المستنصر: (١٥)؛ (١٦)؛ (١٨)؛ (٢٠)؛ (٣٧) الخ.

(٤) مقریزی، خطط، ١ ص ٣٨٢ س ١٧؛ ٤٤٠ س ١٠.

(٥) صبح، ١٠ ص ٤٣٤ — ٤٣٩.

(٦) أبو القدا: (انظر. Rec. des Hist des Crois.)، ١ ص ٤١؛ صبح، ١٠.

ص ٦؛ مقریزی، خطط، ١ ص ٣٩١ س ١٨.

(٧) ابن ميسر، ص ٧١.

كل ولاية ، وبخاصة في بلاد الأعداء . فكان ميدان نشاط الدعاة ينقسم إلى أقاليم ، تسمى : « جزائر » جمع « جزيرة »^(١) ، وهي كلمة في الفترة الفاطمية كانت تطلق أيضاً على أتباع المذهب من الشيعة الإسماعيلية في الأقاليم البعيدة عن نفوذ دولتهم ؛ فكان العالم يُقسم - بحسب قول ناصري حُسر و^(٢) - إلى اثنتي عشرة جزيرة ؛ ونحن لا نعرف أسماء جميع هذه الجزائر ، ولكن الخليفة المستنصر في إحدى رسائله يعد من بينها : الهند واليمن وعمان^(٣) .

وقد كان على داعي الدعاة أن يختار دعائه ليكونوا بمثابة نواب عنه في الأقاليم على نسق نواب قاضي القضاة ، غير أنهم كانوا على طبقات ، ومع ذلك ، فإنهم ليسوا بهيئة كهنوتية ، ولكن جماعة من الموظفين استخدمتهم الدولة ، لتعريف الناس بالعقائد الشيعية ؛ فكان هؤلاء الدعاة يختارون - عادة - من بين الأجانب ، لأن معظم المصرين آنذاك ، لم يكونوا من الشيعة ، كما هو الحال دائماً في كل وقت ؛ وذلك على عكس موظفي الدواوين الذين كانوا يختارون من بين المصريين .

ومن ناحية أخرى كان داعي الدعاة يختار من أعوانه هيئة تتكون من اثني عشر « تقيماً »^(٤) لعلمهم كانوا أعلى درجة من غيرهم ، أو كانوا تحت إشرافه

(١) النعمان ، المجالس ، ٢ ورقة ٤٣ ؛ رسائل المستنصر : (٤) و (١٠) ؛ انظر Ivanow The Rise of the Fatimids, p 20

(٢) الحشاش : Ivanow Nasiri Husrau, p 142 أنظر . The organization of The fatimid Prpoganda, J. B. B. R. A. S. 15. 1939, p. 10.

(٣) رسائل المستنصر : (٥٠) ورقة ٢٧١ — ٢٧٢ ؛ (٥٤) ورقة ٢٨٩ ؛ (٦٣)

ورقة ٣٣٧ .

(٤) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٣٩١ س ٦ ؛ أبو منصور ، كتاب الرشد والهداية ، ص ١٤ . كان عدد نواب الدعوة العباسية اثني عشر وكانوا يسمون أيضاً « النقباء » . وكذلك كان دعاة القرامطة يسمون هكذا : انظر . Masudi : مروج الذهب ، تحقيق وترجمة Barbier de Meynard ، باريس ، ١٨٦١ ، ٥ ، ص ٨٩ ؛ De Goeje : Carmathes, p. 27. ولعل اختيار العدد اثني عشر على نسق الاثني عشر تقيماً من بني اسرائيل المذكورين في القرآن (انظر سورة ٥ آية ١٢) أو عدد الاثني عشر رجلاً من الأوس والخزرج ، الذين عاهدوا النبي على الولاء في العقبة . انظر . طبرى : Annales, I, 1221 : Canard :

Histoire de la dynastie abbasside, trad p.214.

مباشرة^(١)؛ أو لعلمهم كانوا رؤساء الدعاة في جزائر الدعوة . وترجع نشأة هذه الهيئة الشيعية البهتة ، في مصر — بحسب قول المقرئى — إلى يهودى قديم ، هو الوزير ابن كلس (م. ٣٨٠/٩٩١) ، الذى أقام فى الجامع الأزهر فى ٣٧٨/٩٨٨ ، خمسة وثلاثين رجلاً يكفون بعقد مجالس الدعوة ، وتكفيهم الدولة أرزاقهم^(٢) . ويلوح أن داعى الدعاة كان يختار نقباء الدعوة من بين هؤلاء المتعلمين على نفقة الدولة .

وكان عمل داعى الدعاة الأساسى الدعوة التثقيفية والتعليمية على الأخص بين موظفى الدولة^(٣) ، الذين كانوا — على ما نظن — جميعهم من مستعجبي المذهب ؛ وهى ثقافة كانت تمتد إلى عامة الناس وتشمل النساء أيضاً . كذلك كان على داعى الدعاة تثقيف هيئة الدعاة ، وبذل كل عناية فى إعدادهم ، فعلى عاتقهم يتوقف نجاح الدعوة الفاطمية .

ولكى يعمل على بث المبادئ الشيعية : سياسية ودينية ، كان داعى الدعاة يدعو إلى مصر ، من بلاد الأعداء ، رجلاً معروفين^(٤) ، لحضور مجالس الدعوة التى يلقبها بنفسه ؛ وكان الغرض من ذلك جعلهم دعاة للعقيدة الفاطمية فى بلادهم ، وأدوات طيبة

(١) ليس من السهل تتبع أسماء طبقات الدعاة عند الإسماعيلية ، لأن النصوص عنها غامضة . وبالرغم من ذلك ، فإنا نعرف تدرجهم الطبقي الذى يبدأ (بالله) ، ثم بالرسول (الناطق) ومن بعده الأساس (وهو الصامت أو الوصى) ، والإمام ، وأخيراً الدعاة . فنذكر من هؤلاء ؛ الباب ؛ والحجة ؛ والحجاب ؛ والتقيب (ولعلمهم الرؤساء) . بعد هؤلاء تأتى طبقة من الدعاة الأكابر : داعى البلاغ ؛ والداعى المطلق ؛ والداعى المحصور ؛ والمأذون ؛ . والمكسر . وكذلك يوجد نوعان من الأتباع : « المؤمن » وهو عكس « المسلم » و « المستعجب » أى المنتسب إلى المذهب . انظر . The organization of the fatimid Propaganda, J.B.B.R.A.S :Ivanow. 5, 1 939 , p 10.

(٢) مقرئى ، خطط ، ٢ ، ص ٣٤١ .

(٣) نفسه ، ١ ، ص ٣٩١ س ٢٠ — ٢٣ .

(٤) وصل ناصرى خسرو مصر فى ٣٧/١٠٤٥ ، ووصل الحسن بن الصباح

فى ٤٧١/١٠٧٨ . انظر . Ency de P'Islam , 3, p 929-930 , 2, p293 .

لخدمة أغراض السياسة الفاطمية العالمية ، وإن كانوا في نفس الوقت من الشيعة الخلاصين .

وإذا صدقنا المقرئ ، فقد كان على داعي الدعاة أن ينظم باستمرار مجالس الدعوة ، فيخصص يوم الأحد للرجال ، ويوم الأربعاء للنساء ، ويوم الثلاثاء للأشراف وذوي الأقدار^(١) . وإنا نظن أن مثل هذه الدعوة الواسعة لتحتاج إلى عقد مجالسها كل يوم لتعليم وتثقيف هذا العدد الكبير من الموظفين ، ورجال الدولة ، وحتى عامة الناس .

وكانت الدعوة تُقرأ في أماكن متعددة: في الجامع الأزهر^(٢) ، وهو أول مكان للدعوة أنشأه الفاطميون بعد دخولهم مصر في ٩٦٩/٣٥٩ ، وتم بناؤه في عهد العزيز في رمضان ٩٧٣/٣٦١ ؛ وفي « دار الحكمة » أو « دار العلم »^(٣) ، وهي أُضيفت لجامعة الأزهر ، وفتحت أبوابها في عهد الحاكم في ١٠٠٥/٣٩٥ ؛ وفي مكانين آخرين في القصر : واحد للرجال في الصالة الكبيرة ذات الأعمدة : « الإيوان » ، والثاني للنساء في مجلس الداعي المسمى : « الحَسَوِل »^(٤) ، وهو أعظم المباني وأوسعها ، حسب قول المقرئ .

وكانت المحاضرات المقرؤة تسمى : « مجالس الحكمة »^(٥) أو « مجالس الدعوة »^(٦) ، وتلقى تحت إشراف الخليفة نفسه ؛ فقبل قراءتها ، كان داعي الدعاة يتلوها عليه إن أمكن ، ويأخذ علامته بظاها ، كدليل على قبوله . فكان

(١) مقرئ ، خطط ، ص ٢ ، ٣٤٢ س ١ — ٢ ؛ انظر . De Sacy . Druzes Introd, ccxx .

(٢) مقرئ ، خطط ، ص ٢ ، ٢٧٣ — ٢٧٧ .

(٣) نفسه ، ص ١ ، ٤٥٨ — ٤٦٠ ، ص ٢ ، ٣٤٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ص ٤ ، ٢٢٢ .

(٤) مقرئ ، خطط ، ص ١ ، ٣٩٠ ؛ انظر . De Sacy . Chrest, I, p 139 .

(٥) مقرئ ، خطط ، ص ١ ، ٣٩١ س ٢٦ .

(٦) نفسه .

داعى الدعوة ، والمؤمنون يتحلقون حوله ، يتلو هذه المجالس وهو جالس على كرسى الدعوة^(١) ، وهو أشبه بالمنبر .

ولم تكن هذه المجالس — وهى تعرض على الأخص لنواحي العقيدة الظاهرة أو السرية — مجرد تلاوة ، بل كان من الممكن خلالها ، القاء الأسئلة^(٢) ، والمطالبة باجابات عن المسائل العويصة .

وكان كبير الدعوة — فى هذه المجالس — يستعمل سحره وبيانه ، ويبدل قصارى جهده فى حض المستمعين على حب الأئمة ؛ حتى أن ناصرى خسرو يسمح باستعمال المكر^(٣) ، ولم يتردد فى مقارنة الدعوة بالحرب المقدسة . فإذا فرغ داعى الدعوة من كلامه تراحم الناس عليه وقبلوا يديه ؛ فكان من ناحيته يسمح على رؤوسهم ، بمكان العلامة ، حيث وضع الخليفة خطه^(٤) .

وفى هذه المحاضرات الدينية ، كان داعى الدعوة يأخذ (العهد)^(٥) ، على المستجيبين للدعوة ، وهو ميثاق الطاعة للمذهب الفاطمى ، ومؤذاه : ستر المستجيب لكل ما سمعه ، وألا يقدم أية مساعدة إلى أعداء الفاطميين ، وألا يقول إلا الصدق على الدعوة ، وألا يتفق مع أعدائهم .

ونضيف إلى ذلك أنه كان من عمل داعى الدعوة ومساعديه أيضا جمع مال الدعوة ؛ حقاً إن الدولة الفاطمية كانت تتكفل بنفقة الدعوة ، إلا أنها كانت تلجأ إلى مصادر اختيارية يدفعها المؤمنون ، كرمز على الطاعة للمذهب الشيعى ؛ فكانت هذه المصادر المالية تأتى بمبالغ طائلة ، يحملها داعى الدعوة

(١) نفسه ، ص ٣٩١ س ١٠ .

(٢) الحشاش : Nasiri Husrau, p 93—94

(٣) نفسه ، ص ١٤٦ .

(٤) خطط ، ١ ص ٣٩١ س ١١ و ١٢ .

(٥) نفسه ، ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

للخليفة بيده ، بينه وبينه ، لوضعها أولاً بأول في بيت المال ^(١) .
وكانت هذه الأموال التي يدفعها جميع المؤمنين ، إنانا وذكوراً ،
تُجمع من جميع البلاد ؛ فالمستنصر ، في رسالة وجهها إلى الداعي الصليحي ،
يقترح أن تكون هذه الأموال بمثابة ضرائب إجبارية ^(٢) ، وأن تُجبي من
المؤمنين في البلاد ، وأن يكون الداعي هو المسئول عن حمايتها .
ونستطيع أن نميز نوعين من مال الدعوة : أولاً «النجوى» أو «النجاوى» ،
التي ذكرت عدة مرات في رسائل المستنصر ^(٣) ، وهي ضريبة مالية يدفعها على
الأخص المنضمون للمذهب الشيعي من الرجال والنساء ^(٤) ؛ ويلوح أن كلمة «النجوى»
تعني «السر» ؛ كانت الدليل المادي على قبول الأتباع التستر على عقائد الفاطميين ،
وهي تبلغ ثلاثة دراهم وثلث ، ولكن أغنياء الشيعة كانوا يدفعون ثلاثة
وثلاثين درهماً ^(٥) ؛ فكان من يدفع هذا المبلغ الأخير ، يتميز في مجلس الداعي ،
ويخرج له بخط الخليفة ورقة مكتوب عليها الجملة الآتية : « بارك الله فيك ،
وفي مالك ، وولدك ، ودينك » ^(٦) . وكانت توجد ضريبة ثانية ، هي : «القطرة» ^(٧) ،
— وهي أيضاً من مال الدعوة — وسميت هكذا لأنها كانت تدفع في مفاسمة
عيد الفطر .

مما سبق ، كان من الضروري إذاً أن يكون داعي الدعوة بسبب دوره

(١) نفسه ، ١ ص ٣٩١ س ١٤ .

(٢) رسائل المستنصر : (٢٣) ؛ (٣٦) ؛ (٥٧) .

(٣) نفسه : (٢٣) ؛ (٣٦) ؛ (٥٧) .

(٤) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٣٩١ س ٢٥ .

(٥) نفسه ١ ص ٣٩١ س ٤ .

(٦) نفسه .

(٧) رسائل المستنصر : (٢٣) ؛ (٥٧) .

الديني، عالماً بجميع مذاهب أهل بيت النبي، وعارفاً بأسرار العقيدة^(١)؛ فكان لا يُختار إلا من الرجال الماهرين، أصحاب البلاغة، المطبوعين على التفكير العالى، ذوى الذكاء الحاد، والعارفين لقواعد الدين والنظريات السياسية^(٢). فيقول ناصرى خسرو^(٣)، عند الكلام على داعى الدعوة المؤيد: «هو الأستاذ، هو الطيب»، ويقول أيضاً: «إنه الطيب وأفلاطون خادمه».

ولهذا كان منصب الدعوة يوكل غالباً إلى أشخاص يختارون من بين أسر معروفة، نذكر على سبيل المثال، أسرة النعمان^(٤)؛ وأسرة بنى عبد القوى، التى كانت تتولى الدعوة أباً عن جد^(٥).

(١) مقرئزى؛ خطط، ١ ص ٣٩١ س ٥؛ النعمان، كتاب الهمة، ٢ ص ١٣٣

(٢) Mem. sur les Qarmates, p. 2. : De Goeje

(٣) الحشأب : 2-91 Nasiri Husrau جاء هبة الله بن موسى، المعروف بالمؤيد (م ٤٧٠/١٠٨٧) من شيراز إلى مصر فى عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧/١٠٣٥-١٠٩٤)، وهو من نسل سلمان الفارسى. وقد أوردنا جدولاً بمؤلفاته.

(٤) كان نفوذ هذه الأسرة كبيراً، وأفرادها من المتبحرين فى العلوم الفاطمية. فكان النعمان بن حيون (م ٣٦٣/٩٧٣)، جد هذه الأسرة، يعتبر من أكابر علماء الفقه الإسماعيلى فى عصره، ومع ذلك لم يعرف إلا بلقب داعيه فقط، وهو يعتبر من دون شك من أهم وجوه الدعوة الفاطمية (انظر. ابن خلكان، وفیات، ٢ ص ٢١٩). فتجن ندين له بأهم المؤلفات الفاطمية فى العقيدة والنشريع. أنظر. The Guide, p37-40: Ivanow. وزيادة على ذلك، وصل اثنان من سلالاته إلى رتبة داعى الدعوة وهما: الحسين بن على بن النعمان، وكان أول من تلقب بهذا اللقب (انظر. ولاة؛ ص ٥٩٧)؛ والقاسم بن عبد العزيز (نفسه، ص ٦١٤). انظر. Qà di; Ency de l' Islam, 3, p 1019-1020: Fyze. : Mez; an-Numan the fatimid Jurist and author, J.R.A.S., Jan1934

Adistinguished family : Gottheil; Die Renaissance of fatimid cadis, J.A., Q.S., 1906, p 217, s q. ، ترجمة، ١ ص ٣٧٩؛

(٥) قام افراد كثيرون من أسرة بنى عبد القوى، مثل أسرة النعمان، بالدعوة الفاطمية. وكان أهمهم فى الدولة الفاطمية عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوى، المعروف بابن المجلس آخر الدعوة؛ فولى القضاء مع الدعوة. وقد حاول ابن المجلس بالاتفاق مع الشاعر عمارة وغيره التأخر على الدولة الأيوبية واعداد الفاطميين إلى الحكم، ولكن واحداً من المديرين أفشى سرهم، واستبق ابن المجلس من الموت حتى يمكن أن تعرف منه أسرار القصر التى كان عليها بها انظر. مقرئزى، خطط، ص ٣٩١؛ ابن حجر، رفع، ورقة ١٣٨.

كذلك كان داعى الدعاة يحتمل مكانة عالية بين أرباب الوظائف الكبار فى الدولة والإمبراطورية؛ فقد كانت رتبته تلى مباشرة رتبة قاضى القضاة^(١)؛ وكان يستلم مثله مرتباً قدره مائة دينار فى الشهر^(٢)؛ وكان يتلقب بألقاب فخمة، ويخاطب على الأخص بهذه العبارة: «الشيخ الأجل»^(٣) وأخيراً كان من حقه الركوب فى المواكب بالظبل والبوق والبنود، على شرط أن يلى فى نفس الوقت القضاء، الذى كثيراً ما كان يضاف إليه بسبب علو كعبه فى أمور الدين.

فكان داعى الدعاة زعيماً دينياً وروحياً، له سلطة غير محدودة على جميع مسائل الدولة السيامية والدينية.

(١) صبح، ٣، ص ٤٨٧؛ مقرئى، خطط، ١، ص ٣١٩؛ انظر Sefer Namch, trad, Schefer, p 160.

(٢) صبح، ٣، ص ٥٢٦.

(٣) رسائل المستنصر: (٦١) ورقة ٣٣٣.

الفصل الخامس

النظم الحربية

الجيش والبحرية

في هذا الفصل نعرض للنظام الحربى والبحرى : وهما يتميزان عن النظم الديوانية والدينية ؛ تميزاً ذكره جميع مؤرخى الدولة الفاطمية فى مصر .

الجيش : دواوينه — تكوينه — عدده — معسكراته — الجيش والحرب : قيادته —
خروجه — أسلحته — خيامه — دوابه — سروجه — راياته — الخطط
الحربية — عودته .

كان الجيش ، فى أيام قوة الفاطميين ، من أقوى الجيوش التى وطئت مصر بعد جيش الإسكندر المقدونى^(١) ؛ فى عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ، عرفت مصر جيوشاً قوية وافرة العدد ، ولكن أمراء هاتين الدولتين كانوا شبه مستقلين ، فلم تكن جيوشهم فى قوة الجيش الفاطمى ، الذى كان خلفاؤه الفاطميون مستقلين ، استقلالاً تاماً ، ومنافسين لخلفاء بغداد .

وقد كان الابقاء على جيش قوى فى وقت السلم كما فى وقت الحرب يتطلب من الدولة الانفاق عليه ؛ فكانت هناك دواوين خاصة تقوم بتنظيم النفقة

(١) انظر . صبح ، ٣ ص ٤٩٢ — ٤٩٣ .

وإعداد الجيش^(١)، تشبه دواوين الجيش في الدولة الإسلامية الأخرى . وقد
جعل القلنشندي^(٢) هذه الدواوين ضمن دواوين أرباب الأقلام : ديوانية ودينية ؛
فكان يعمل فيها الموظفون من أرباب الأقلام ، وليس من أرباب السيوف ؛
وهي ثلاثة :

١ — « ديوان الجيش » ويشرف على الجنود واعدادهم ، وتظهر أهميته
من كثرة عدد الجيش الفاطمي ، على الأخص في أوائل عهد الدولة^(٣) .

٢ — « ديوان الرواتب » ويختص بتسجيل « عطاءات » الجنود وجميع
موظفي الدولة ، حيث كان جزء كبير من الدخل ينفق على الجيش . فكان
الديوان يشمل أسماء المرتزقين من الجنود ومن استجد منهم أو من مات دون أن
يشتمل على أسماء المتطوعة أو البدو وهي عناصر طارئة على الجيش . فيروي
المقريزي^(٤) أن عدة العساكر المدرجين في الديوان ، في أواخر أيام الدولة ، وصل
إلى أربعين ألف فارس وثلاثين ألف راجل . وهذا العطاء تغير عدة مرات
في عهد الدولة الفاطمية ، وكان يتناسب مع درجة كل جندي^(٥) . ويروي ناصرى
خُسرو^(٦) أن عطاء كل جندي في عهد المستنصر ، بلغ عشرين ديناراً في كل شهر .

٣ — « ديوان الإقطاع » ويختص عندهم بما هو مقطع للأجناد حيث
كانت الدولة تقوم بمنح الإقطاعات التي تصحب عادة « بسجل » — وهي كلمة
جارية الاستعمال في ذلك العصر^(٧) — إلى الأجناد لقاء قيامهم بالواجبات

(١) مقريزي ، خطط ، ١ ص ٩٤ س ٢٧ — ٣٠ ؛ انظر : Bouriant, p 270 .

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٩٢ — ٤٩٣ .

(٣) مقريزي ، خطط ، ١ ص ٩٤ س ٢٧ — ٣٠ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٨٦ س ١٣ ؛ انظر . Bouriant, p246.14-15 .

(٥) انظر . Sefer Nameh , p139 .

(٦) نفسه ، ص ١٦٢ .

(٧) صبح ، ١٣ ص ١٣٢ .

العسكرية . وهذه الاقطاعات — حسب قول المقريزي — لم تكن من الكثرة كما كانت في عهد الدول التي تلت الفاطميين ، وعلى الأخص الماليك^(١) .
ونظن أنه كان بجانب هذه الدواوين الثلاثة للجيش ، دواوين أخرى عديدة في الأماكن التي يجتمع فيها الأجناد ، لتمكين الإدارة الحربية من أن تواجه ما يحتاج إليه الجيش في طول الإمبراطورية وعرضها .

وكان الجيش الفاطمي يماثل في تكوينه جيوش الدول الأخرى ، غير أنه كان له طابع خاص به ، نقلته عنه جيوش الدول التي أتت بعد الفاطميين .

فكان قائد الجيش يسمى في ذلك العصر : « اسفهلار العسكر » وترجمتها الحرفية : قائد الجيش ، أو فقط : « اسفهلار » أي قائد ، كما تسمى وظيفته : « الاسفهلارية »^(٢) أي قيادة العسكر . وينسب إليه القلقشندي سلطة غير محدودة على الجيش ، ولكننا نظن أنه لم يكن له إلا القيادة الحربية ، أما أمور الإدارة العسكرية فلم تكن من اختصاصه . وقد كان « الاسفهلار » يحتل مركزاً هاماً في الدولة الفاطمية ، فهو يأتي في ترتيبه مباشرة بعد « صاحب الباب »^(٣) ، الذي يلي الوزير رأساً ؛ فكان الخليفة بنفسه يوليه منصبه ، ولكن منذ بدر أصبح لوزراء السيف — بسبب سلطتهم العامة — يحملون لقب : « أمير الجيوش » ، فكانوا يعينون قائد الجيش من قبلهم . وقد بلغت سلطة وزراء السيف على الجيش أقصاها ، في أواخر الدولة الفاطمية ، فتلقب شيركوه بلقب :

(١) مقريزي ، خطط ، ١ ص ٨٥ س ٣٥ — ٣٧ ؛ انظر Bouriant, P 245.10-13.

(٢) صبح ، ٣ ص ٤٨٣ ؛ عمارة ، النكت ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٦٩ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٤٨٣ .

« سلطان الجيوش »^(١) ، وكان لقب سلطان وقتئذ وفقاً على السلطة العليا .

وكان للجيش قواد من الأمراء يتميز بعضهم عن بعض بعلامات^(٢) يحملونها في الأعياد الرسمية ، أما في ساحة القتال ، فإنهم كانوا يختلفون على ما يظهر ، بحسب عدد الأجناد التي تحت قيادتهم ، فتميز منهم :

١ — الأمراء الكبار ، ويتحلون بأطواق في أعناقهم ويسمون : « الأمراء المطوقين »^(٣) ؛ وهم بمثابة الأمراء المقدمين في العصر المملوكي ، ويقود كل منهم ألف جندي .

٢ — أصحاب القضب^(٤) ، وهم يركبون في مواكب الخليفة حاملين في أيديهم قضب الفضة ، وهي رماح^(٥) فضية يخرجها لهم الخليفة من « خزانة التجميل » ؛ وهم بمثابة أمراء الطبلخانة في العصر المملوكي ، ويقود كل منهم مائة جندي .

٣ — أدوان الأمراء^(٦) ، وليس لهم الحق في حمل هذه الرماح ، ولكنهم ولا زيب ، كانوا يحملون سلاحاً من نوع آخر أقل قيمة ؛ وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات ، في العصر المملوكي .

وليس لدينا معلومات وافية عن جنود الجيش الفاطمي ، وهم يسمون تارة : « أجناداً »^(٧) ؛ وتارة : « عسكرياً »^(٨) . ولقد كان المبدأ السائد في تنظيم الجيوش

(١) أبو الفداء : (انظر Rec. des Hist. Croisades) ١ ص ٤١ .

(٢) صح ، ٣ ص ٤٨٠ ؛ خطط ؛ ١ ص ٤٠٣ .

(٣) نفسه ، نفسه .

(٤) نفسه ، نفسه .

(٥) انظر . Inostrantsev, p 40 ؛ Schwarzlose, p.178 ؛ وبعده

(٦) صح ، ٣ ص ٤٨٠ .

(٧) صح ، ٣ ص ٤٨٢ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٠١ س ١٧ — ١٨ ص

٤٠٣ س ٢٣ .

(٨) رسائل المستنصر : (١٥) ورقة ٧٤ ؛ (١٩) ورقة ٩٤ ؛ (٤٣) ورقة ٢٣٥ ؛

مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٩١ س ٣٤ ؛ ص ٤٥٠ س ٧ .

وقتذاك — كما يرى نظام الملك (م ٤٨٥ / ١٠٩٥) ، وهو وزير وكاتب شهير في عصره^(١) — أنه من المخاطرة أن يعتمد الأمير في جيشه على رجال جميعهم من جنس واحد ، فهؤلاء ينعلم التنافس من بينهم في خدمته ، ولذلك كان من الأفضل أن يتكون جيشه من أجناد من جميع الأجناس والقبائل في مملكته . وقد سار الفاطميون على هذا المبدأ في تكوين جيشهم ، فاستخدموا عناصر مختلفة وأجناساً متنوعة ، غير معروفة في مصر حتى ذلك الوقت . كذلك صادف جيشهم تغييرات عديدة في عناصره ، خلال حكمهم ، تسبب فيها خلفاء كثيرون ، وحتى وزراء سيف .
ففي أوائل عهد الدولة في مصر ، كان الخلفاء الفاطميون يستمدون قوتهم الحربية من عنصرين أساسيين : العنصر المغربي من ناحية ، والعنصر الشرقي من ناحية أخرى^(٢) .
« فالعراقية » وهم من البربر ، سمو باسم إقليمهم الذي أتوا منه وهو : « المغرب » ، لتمييزهم عن العنصر الشرقي ، الذي اتخذ اسم : « المشارقة » . وقد كان المعز ، وهو الخليفة الذي غزا مصر ، يقر بهم على حساب عناصر الجيش الأخرى^(٣) ؛ فكانوا يكونون غالبية عظمى في جيشه . وقد وصلتنا أسماء عدة قبائل مغربية ، تميز من بينها على الأخص طوائف^(٤) : السكتامية^(٥) ؛ والباطلية^(٦) ؛ والمصامدة^(٧) ؛

(١) انظر . Siasset Nameh, trad, Schefer, P 135 .

(٢) رسائل المستنصر : (٥٦) ورقة ٣٠٠ .

(٣) ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ٤٤٦ ؛ انظر . على مبارك ، المخطوط الجديدة ، ١ ص ٩

(٤) رسائل المستنصر : (٥٦) ورقة ٣٠٢ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٢ ؛ ٥٠٨ ؛ مقرئزي

خطوط ، ٢ ص ٩١ ص ٣٤ ؛ ٤٥٠ ؛ ٦ — ٧ .

(٥) وصل السكتاميون من القيروان مع المعز ، وهم طائفة هامة من العسكر . انظر .

Sefer Nameh, trad, Schefer, P 138.

(٦) وهم من الغرب ؛ وصلوا مصر قبل مجيء المعز إليها . واسم الباطلية أطلق على طائفة

العسكر التي جاءت ، أثناء تأسيس القاهرة تطلب أرضاً لإنشاء حارتها عليها ، فقيل لهم إنها وزعت جميعاً ، فقالوا : « رحنا بالباطل » ؛ فعرفوا بهذا الاسم ، وسميت به الحارة التي سكنوا فيها . انظر . Sefer Nameh, 145 p 138 ؛ مقرئزي ، خطوط ، ٢ ص ٨ ؛ ابن تقي بردي ،

طبعة القاهرة ، ٤ ص ٤٦ ؛ انظر . Ravaisse . Essai, sur l'histoire et sur la :

topographie du Caïre d' après Maq, lère partie, M. M. A. F, tome I, Paris

1889, P 425.

(٧) أصلهم من بلاد المصامدة التي تقع في جنوب إفريقية وتمتد حتى حدود المحيط الأطلسي

انظر . Ency de l' Islam, 3, P 448-452. : Colin: Sefer Nameh p. 124;138 .

والجودرية^(١)؛ وغيرها من القبائل^(٢).

أما المشاركة^(٣)، وهم عناصر من الترك والديلم، أدخلت في جيش الخليفة العزيز^(٤)، لموازنة نفوذ البربر، الذي لم ينقص حقاً إلا في عهد الخليفة الحاكم، على يد وسيطه برجوان^(٥)، عدو البربر الرهيب، الذي حرض الخليفة ضدهم. وغير المغاربة والمشاركة طوائف أخرى في الجيش الفاطمي، تحمل طابع الدولة؛ فقد شرع الخلفاء الفاطميون — من يوم مجيئهم مصر — في تكوين طوائف من العسكر، تكون في قبضة يدهم وفي غاية الإخلاص لهم. ولتكوين هذا

(١) سموا على اسم قأدهم جوذر الذي كان في خدمة جميع الخلفاء الفاطميين بالمغرب، من المهدي حتى المعز. انظر. Sefer Nameh, P 145؛ منصور السكاتب: سيرة جوذر، ورقة ٣. مقريزي، خطط، ٢ ص ٥؛ انظر. Inostrantsev, P 88.

(٢) مثل قبيلة زويلة، التي جاءت من المغرب مع جوهر. (انظر. مقريزي، خطط، ٢ ص ٤ و ٢١)؛ وقبيلة صنهاجة، التي جاءت أيضا من المغرب (انظر. نفسه، ٢ ص ٢١) (٣) انظر. The Story of Cairo p 146. Lane-Poole؛ Sefer Nameh, p 138.

لعل الطائفة المسماة: «الشرابية»، سميت على اسم القائد التركي لإفتكين الشرابي الذي عمل — في الواقع — على إدخال عنصر المشاركة: (الترك والديلم) في الجيش الفاطمي في عهد الخليفة العزيز؟ (انظر. مقريزي، خطط، ٢ ص ٨؛ ١٦؛ ٢١ ص ١٣). أو لعلها سميت بهذا الاسم لأنها كانت تحمل مؤونة الماء (الشراب) إلى العسكر في الحملات الحربية. (انظر. Ravisse, Essai, I, P 425; note 3)

(٤) يحيى، ص ٣٩١؛ مقريزي، خطط، ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٥؛ أنظر. مبارك، المخطوط الجديدة، ١ ص ١٠.

(٥) يحيى، ص ٤٥٣؛ مقريزي، خطط، ٢ ص ٢٨٥. في القاهرة حارة منسوبة إلى برجوان، تسكنها طوائف من العسكر الفاطمي، لعلها من المشاركة. انظر. خطط، ٢ ص ٣.

الجيش الخاص ، شرط المعز^(١) على ولاية الأعمال ، البحث عن يظهرون مهارة
حربية قبل أوانها من بين أولاد الناس ، وأفرد المعز لهم « حُجراً » في قصره
يعلمون فيها الفنون الحربية ؛ وسماهم بسبب سكنهم في هذه الحجرة باسم : « صبيان
الحجر » أو « غلمان الحجر »^(٢) ؛ ويجعل المقرئ في هذه الحجرة في القاهرة ،
بحوار دار الوزارة^(٣) ، قريباً من باب النصر^(٤) . فكانت هذه الطوائف من
الجندين نواة النظام الحربي الأيوبي والمملوكي ، وكانت البيوت التي يقال لها :
« الطباقي »^(٥) ، وهي معسكرات غلمان سلاطين المماليك ، تشبه إلى حد كبير حجرة
هؤلاء الصبيان . ومن المحتمل أيضاً أن هذه الطائفة التي كان معظمها من بين أولاد

(١) نفسه ، ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ؛ انظر . De Sacy : Chrest, 2, P 96

(٢) مقرئ ، خطط ، ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ؛ انظر . Dozy : Suppl, I, P, 252-253
يستعمل القلقشندي لفظه « حجرية » ولا يستعمل أبداً لفظه « صبيان الحجر » ، فلعله أراد
بهذا أن يبين أن « الحجرية » فرقة في الجيش على شاكله « الأمرية » و « الحافظية » ، على
اسمى الأمر والحافظ من خلفاء الفاطميين في مصر ، والتي يطلق عليها جميعاً اسم : « طوائف العساكر » .
وعلى العكس ، يسمى القلقشندي « المصامدة » وغيرها من فرق الجيش : « طوائف الرجال » .
فهو معنى ذلك أن « طوائف العساكر » كانت خاضعة لنظام حربي أكثر دقة من « طوائف
الرجال » ؟ (انظر . صبح ، ٣ ص ٥٠٨) . ومن ناحية أخرى ، كان يوجد في بغداد في
الجيش العباسي ، طوائف « الحجرية » . انظر . ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، تحقيق Caetani ، ٥
ص ٥٠٩ ؛ الصولي ، أخبار الرازي والمتقي ، ترجمه Canard ، ص ٤٩ وملاحظة ٣ ؛ حسن
إبراهيم ، تاريخ الاسلام ، ٣ ص ٤٦٨ .

(٣) مقرئ ، خطط ، ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٥٥٠ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٢ ؛ ٥٠٨ .

(٥) مقرئ ، خطط ، ١ ص ٤٤٣ .

المصريين^(١) تضم عناصر المالك ، الذين كانوا في خدمة الخليفة ، فكلمة مملوك^(٢) استعملت عدة مرات في العصر الفاطمي .

وكان هؤلاء المجندون يخضعون لنظام دقيق ، فجعل لكل مائة قائد يسمى : «زمام»^(٣) ، وقسموا إلى قسمين : «الحجرية الكبار» و «الحجرية الصغار»^(٤) . فعمل هذا التمييز راجع إلى سن المجندين^(٥) ، أو إلى التفوق والشجاعة في التدريب على الحرب ، وهي كانت داخلة في التقدير عند الفاطميين^(٦) . وقد كان على هؤلاء المجندين أن يتعلموا امتطاء صهوة الجواد بمهارة ، ولذلك أعد لهم اصطبل برسم دوابهم ، يعرف باسم : «اصطبل الحجرية»^(٧) . وعلى الجملة ، كان يجب على هذه العناصر من المجندين أن تكون دائماً متجهزة للحرب ، لتخرج عند أول إشارة . ومن ناحيته أخرى ، كانت من طوائف الجيش فرق من الجند تنسب إلى الخلفاء أو إلى الوزراء أو حتى إلى بعض أفراد حاشية الخليفة .

فندكر من طوائف الخلفاء طائفتين على اسمي الخليفة الأمر وخلفه الحافظ وهما : طائفتي الأمرية والحافظية^(٨) .

(١) نفسه .

(٢) رسائل المستنصر . (٤٣) ورقة ٢٣١ ؛ مقرئزي ، خطط ، ٢ ص ٢١ س ١٠ ؛ أنظر .
Une inscription de Babr al'Jamali, extrait de rev, Sy, Paris, 1929. :Sauvaget

(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٤٣ — ٢٣١ .

(٤) نفسه ، ١ ص ٥٥٠ س ٨ ؛ صبح ، ٣ ص ٥٠٨ س ٧ . كان هؤلاء المجندون يتميزون عن « صبيان الخاص » ، وحتى عن « صبيان الركاب » . فالأول يكونون حرس الخليفة الخاص (انظر . ابن ميسر ، ص ٩٠ س ٩-١١ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨١) . والثواني يكونون حرس المواكب الخلافة . (انظر . صبح ، ٣ ص ٤٨٤) . وسيأتي الكلام عليهما عند الكلام عن البلاط الفاطمي .

(٥) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٤٣ .

(٦) نفسه ، ١ ص ٤٤٤ .

(٧) نفسه ، ١ ص ٤٦١ .

(٨) نفسه ، ١ ص ٥٥٠ ؛ صبح ، ٣ ص ٤٨٢ ؛ ٥٠٨ .

ونذكر من طوائف الوزراء طائفة الوزيرية^(١)، وهي أول هذه الطوائف ، ويرجع الفضل في تكويتها إلى الخليفة العزيز ، الذي سمح لوزيره ابن كلثوم بتكوين حرس خاص به ، ينتسب إليه . وقد ازدادت طوائف جند الوزراء ، على الأخص في عهد وزراء السيف ، لاعتمادهم عليها في بسط نفوذهم ، فنذكر منها : « الجيوشية »^(٢) ، على اسم بدر (أمير الجيوش) ؛ و « الأفضلية »^(٣) ، على اسم ابنه الأفضل ؛ و « البرقية »^(٤) ، التي أنشأها الوزير طلائع على اسم المكان الذي أتت منه هذه الطائفة من إقليم برقة .

وأخيراً ، وجدت طوائف تحمل أسماء أشخاص كانوا في خدمة الخليفة ، مثل : « اليانسية »^(٥) ، على اسم يانس وزير الحافظ ، أو يانس الخادم الذي كان من خدام العزيز والحاكم ؛ و « العطوفية »^(٦) ، على اسم عطوف ، الذي كان في خدمة ست الملك أخت الحاكم .

كذلك كانت عناصر من مختلف الأجناس ، تدخل من جملة العسكر الفاطمي ، كما هو الحال في جميع جيوش الدول الإسلامية .

ف نجد السود من عبيد الشراء على الأخص من السودان ، الذين ازداد عددهم

(١) ابن الصيرفي ، إشارة ، ص ٢٣ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٤٥٠ س ٦ ؛ ٢ ص ٥ ؛ صبح ، ٣ ، ص ٤٨٢ س ٦ ؛ ٥٠٨ س ٤ .
(٢) صبح ، ٣ ، ص ٤٨٢ ؛ ٥٠٨ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٤٥٠ .
(٣) نفسه ؛ نفسه .
(٤) ابن منقذ ، الاعتبار ، تحقيق حتى ، ص ٢٣ ؛ مقرئزي ، خطط ، ٢ ، ص ١٢ ؛
٢٥ ، انظر . Wiet . : Egypte, 4, P 292.
(٥) مقرئزي ، خطط ، ٢ ، ص ١٦٠ - ١٧ ، ص ٢١ س ١٤ ؛ انظر . Ravaisse .
Essai, I, P 426, et note. 3
(٦) مقرئزي ، خطط ، ٢ ، ص ١٣ ؛ انظر . Ravaisse . Essai I, P 425.

في عهد الحاكم ، وتضاعفوا في عهد المستنصر ، الذي كانت أمه سوداء^(١) ؛ فكان السود يكونون فرقا هائلة في الجيش الفاطمي ، بقيت حتى آخر عهد الدولة^(٢) ؛ وقد كان ابن طولون أول من أدخل السودانيين في جيش مصر . فنذكر من هذه الطوائف على الأخص : الفرحية ، والريحانية ، والليمونية ، والحسينية^(٣) ، والمنصورية^(٤) .

ونجد أيضاً في الجيش الفاطمي عناصر غير نظامية ، في وقت الحرب ، كما في وقت السلم ، تؤلف طلائع الجيش ، كما كان الحال في الجيش الطولوني والإخشيدى ، نذكر منها : شرادم « البدو »^(٥) ؛ وقبيله « لواته »^(٦) البربرية ، التي كان الخليفة المستنصر يشتمكي منها علناً في رسائله إلى صليحي اليمن ، لأنهم يثيرون الاضطراب بين المشاركة والمغاربة في جيشه^(٧) .

وكان في الجيش أيضاً عناصر أجنبية أتت مع وزراء السيوف ، على الأخص شيركوه وصلاح الدين ، نميز منها : الأكراد ؛ والغز^(٨) ؛ والأرمن^(٩) ؛ والروم^(١٠) ؛

(١) ابن اياس ، بدائع ، ١ ص ٤٨ ؛ مقريزي ، خطط ، ١ ص ٣٣٥ س ٢٨ — ٣١ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ٢ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢) ابن منقذ ، ص ٦ .

(٣) نفسه ؛ مقريزي ، خطط ، ٢ ص ٢ س ٨ ؛ ص ١٤ ؛ ص ٢١ س ١٥ ؛ انظر . Ravaisse ; Essai, I, P 425 . وهي أسماء أربع طوائف من عبيد الشراء .

(٤) المنصورية اسم السودان الساكنين في حارة المنصورة في القاهرة . انظر . خطط ، ٢ ص ١٩ .

(٥) رسائل المستنصر : (٥٦) ورقة ٣٠٢ ؛ عمارة ، تحقيق Derenbourg ، ١ ص ٧٨ . يقول Schefer : إن هؤلاء البدو أصلهم من الحجاز . انظر . Sefer Nameh, P. 138 .

(٦) رسائل المستنصر : (٥٦) ورقة ٣٠٢ ؛ (٥٧) ورقة ٣٠٧ .

(٧) نفسه .

(٨) صبح ، ٣ ص ٤٨٢ و ٥٠٨ .

(٩) مقريزي ، خطط ، ٢ ص ١٢ س ١٥ . ؛ ابن اياس ، بدائع ، ١ ص ٧٠ .

(١٠) يسميهم المقريزي أيضاً « العرافة الجوانية » . انظر . مقريزي ، ٢ ص ٢١ س ١٤ . وتدل « الجوانية » على حارة الروم العليا (نفسه ، ٢ ص ١٤ و ٨) وسميت كذلك لتفرق من حارة الروم السفلى ، التي كانوا يسكنونها أيضاً . (نفسه) .

والفرنج^(١)، والجيل^(٢)، والعرب والعجم^(٣)؛ أما العناصر الأوربية فإنها كانت تذكر بصفة عامة في الجيش الفاطمي تحت اسم: «الصقالبة»^(٤)، وذلك لأن معظمها من العناصر السلافية البلقانية.

أما عن المصريين، فلم يذكر المؤرخون وجودهم في فرق حربية إلا في طوائف «صبيان الحجر»، إلا أننا نظن بأنه في آخر حكم الفاطميين^(٥)، أصبح المصريون بالضرورة يتكونون عناصر هامة؛ ففي الواقع، كانت بلادهم مهددة من جانب الصليبيين، فاضطر المصريون إلى القيام بالدفاع عنها؛ فكان الجيش الفاطمي — كما يظهر من النصوص — يتكون معظمه من جنود وأمراء من المصريين؛ فقد وجد خلفاء ذلك العصر في المصريين، منبعاً لا ينضب من الرجال.

وليس لدينا للأسف أرقاماً دقيقة عن عدد قوات الجيش الفاطمي. ففي أوائل حكمهم في مصر، كان لدى الفاطميين جيش كبير جاءوا به من إفريقية، يتكون من مائة ألف رجل^(٦)؛ فكان — كما ذكرنا سابقاً — أكبر جيش عرفته مصر منذ الإسكندر الأكبر^(٧). ولكن هذا العدد الكبير انخفض في أواخر الحكم الفاطمي؛ فيروي المقرئزي^(٨) أن عدد من كانوا في جداول الديوان،

(١) صبح، ٣ ص ٤٨٢.

(٢) الجبل سكان جيلان، وهي اسم بلاد كثيرة حول جنوب بحر قزوين. الصولى: أخبار الراضى والمتقى، القاهرة ١٩٣٥، ص ٦٢؛ انظر. احمد أمين: ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٦، ص ٤٩.

(٣) يذكر المقرئزي أيضاً كلمة العجم (انظر. خطط، ٢ ص ٢١ س ١٣)؛ وهي

كلمة يفسرها Dozy على أنها تعني الزوج الوثنيين. انظر. Suppl, 2, P, 98.

(٤) مقرئزي، خطط، ١ ص ٩٤ س ٢٨.

(٥) نفسه، ٢ ص ٣ س ٤.

(٦) نفسه، ١ ص ٣٧٨؛ انظر. شرح اللمعة، ورقة ٢.

(٧) مقرئزي، خطط، ١ ص ٩٤ س ٢٧ و ٣٠؛ انظر. Bouriant, P 270. 4-5.

(٨) نفسه، ١ ص ٩٤ س ٣٥-٣٦؛ نفسه، ص ٢٧٠ س ١٧.

في عهد الوزير رزيك بن صالح (م ٥٥٦/١١٦٠) يبلغ أربعين ألف فارس
وثلاثين ألف راجل .

ولسكى يسكن الفاطميون هذا الجيش الجرار في معسكرات ، عملوا — منذ
وصولهم مصر — على توزيعه في المناطق الحربية في مصر والإمبراطورية .
فحينما جاء جوهر مصر ، أنزل عساكر المعز من مختلف الأجناس ، في مواضع
بالقاهرة — العاصمة الجديدة — عُرفت : « بالحارات » ؛ فكانت كل
حارة تسكنها جماعة من جنس واحد تسمى به ، وتتكون من معسكرات العساكر
وأسرهم ، ومن دكاكين وأسواق لحاجاتهم . وكان الغرض من اسكان العساكر
في أماكن معينة ، منعهم من مضايقة سكان البلاد ، بالنزول في دورهم^(١) .
ويعتبر عمرو أول حاكم مسلم لمصر ، وزع عساكر جيشه في أماكن معروفة في
الفسطاط ، تُعرف : « بالخطط »^(٢) ؛ كذلك ابن طولون ، وهو حاكم شبه مستقل
لمصر ، أنزل عساكره في قطيعات مختلفة في عاصمته : « القطائع »^(٣) .

فندكر من أسماء الحارات في القاهرة : حارة الرِّيحانية^(٤) ؛ وحارة برجوان^(٥) ؛

(١) انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, P 126 .

(٢) مقریزی ، خطط ، ١ ص ٢٨٦ ؛ ٢٩٦ — ٩ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣١٣ .

(٤) الریحانية اسم لطائفة من السودان عبيد الشراء . انظر . نفسه ، ٢ ص ٢ ؛ Ravaisse :

Essai, I, P 425, مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .

(٥) كان يسكنها طائفة من العساكر تختص بالطواشي برجوان ، وسيط الحاكم ، الذي

قتل بأمر الخليفة في ٣٩٠ / ١٠٠٠ . مقریزی ، خطط ، ٢ ص ٣ ؛ شرح اللمعة ، ورقة ٦ ؛

Essai, I, P 423 . Ravaisse : Sefer Nameh, trad, P 144 .

وحارة زويلة^(١)؛ وحارة المحمودية^(٢)؛ وحارة الجودرية^(٣)؛ وحارة الوزيرية^(٤)؛
وحارة الباطلية^(٥)؛ وحارة الروم^(٦)؛ وحارة الديلمة^(٧)؛ وحارة الأتراك^(٨)؛ وحارة

(١) زويلة اسم ضاحية في القيروان واسم بلدة بجوار مدينة المهديّة اختطها عبيد الله المهديّ (٢٩٧ — ٣٢٢/٩٠٩ — ٩٣٤). ولما اختط موضع للعساكر الآتين من هذه الأماكن في القاهرة تسمى هذا الموضع بهم. مقرّيزي، خطط، ٢ ص ٤؛ شرح اللمعة، ورقة ٦؛ ابن دقان، الانتصار؛ طبعة بولاق ١٨٩٧، ص ٣٧؛ Essai. L. P 423 : Sefer Nameh, trad, : Ravaisse : Schefer. p144 et note 2 : مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ٦؛ انظر. قبله.

(٢) سبب تسمية هذه الطائفة غير معروف، وقد بقيت طائفة المحمودية من جملة طوائف
عسكر الدولة الفاطمية، حتى أواخر حكمها. انظر. خطط، ٢ ص ٤ — ٥؛ Essai, I, P 424: Ravaisse ;
(٣) انظر. Sefer Nameh, trad. Schefer. P 144 et note 3؛ مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ٦.

(٤) الوزيرية اسم طائفة الوزير يعقوب بن كلس (م ٣٨٠/٩٩٠)، وهي من جملة
طوائف العسكر الفاطمي. خطط، ٢ ص ٥؛ شرح اللمعة، ورقة ٥؛ Essai, I, P 424. :
مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ٦ و ١١.

(٥) انظر. قبله؛ خطط، ٢ ص ٨؛ شرح اللمعة، ورقة ٦؛ ابن دقان، الانتصار،
٥ ص ٣٧؛ Essai. I.P 425 : Ravaisse ; Sefer Nameh, trad, :
Schefer, P 145 et note I. : مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ٦.

(٦) سكن هذه الحارة عساكر الروم؛ وكانت تنقسم إلى حارة الروم السفلى وحارة
الروم العليا. انظر. مقرّيزي، خطط، ٢ ص ٨؛ شرح اللمعة، ورقة ٦؛ ابن دقان،
الانتصار، ٥ ص ٣٩؛ Essai, I, P 424 : Ravaisse ;
trad. Schefer P 144 et note : مبارك، الخطط الجديدة، ١ ص ٦.

(٧) عرفت الحارة بهذا الاسم لنزول الديلم الواصلين مع القائد أفتكين، الذي هزمه العزيز
في ٣٦٨ — ٩٨٧. انظر. مقرّيزي، خطط، ٢ ص ٨ — ٩؛ شرح اللمعة، ورقة ٤؛
Essai, : Ravaisse ; Sefer Nameh, trad, Schefer P 144 et note. (5)
I, P 424, : انظر الخطط الجديدة، ١ ص ١٦.

(٨) هذه الحارة على اسم الأتراك الذين قدموا مصر مع أفتكين بعد هزيمة العزيز لهم
في ٩٧٨/٣٦٨. انظر مقرّيزي، خطط، ٢ ص ١٦؛ Essai, I, P 424 : Ravaisse ;

كتامة^(١) ؛ وحارة الصالحية^(٢) ؛ وحارة البرقية^(٣) ؛ وحارة العطوفية^(٤) ؛
وحارة الأكراد^(٥) ؛ وحارة المرتاحية^(٦) ؛ وحارة الفرحية^(٧) ؛ وحارة الطوارق^(٨) ؛
وحارة الشرايية^(٩) ؛ وحارة اليانسية^(١٠) ؛ وحارة المنصورية^(١١) ؛ وحارة
المصامدة^(١٢) ؛ وحارة الحسينية^(١٣) .

- (١) هذه الحارة على اسم طائفة من عساكر البربر قدموا من القيروان مع المعز . انظر .
Essai, I, p 425. : Ravaisse ; Sefer Nameh. trad, Schefer, P138. ؛ شرح اللمعة ، ورقة ٦ ؛
مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٩ .
- (٢) اسم طائفه من عسكر الوزير الصالح طلائع بن رزيك (م ١١٦٠ / ٥٥٦) انظر .
مقریزی . خطط ، ٢ ص ١٢ .
- (٣) البرقية اسم طائفة في الجيش قدمت من برقة . انظر . نفسه ؛ Essai : Ravaisse
I, p. 425 ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .
- (٤) مقریزی ، خطط ، ١ ص ١٣ ؛ انظر . Essai, I, p 425 : Ravaisse ؛ مبارك
الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ ؛ قبله .
- (٥) كان يسكن هذه الحارة الأكراد ، ولها تسمية أخرى هي : « البستان » . انظر . خطط ،
٢ ص ١٤ ؛ Essai, I, p 423 : Ravaisae ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .
- (٦) المرتاحية اسم طائفة في الجيش الفاطمي . انظر . خطط ، ٢ ص ١٤ ؛ Ravaisse :
Essai, I, p 423 ؛ مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .
- (٧) هذه الطائفة من عبيد الشراء كانت من جملة العسكر الفاطمي . انظر . خطط ، ٢ ص
١٤ ؛ Essai, I, p 426 ؛ Sefer Nameh, trad, Schefer, p 145 Ravaisse ؛
مبارك ، الخطط الجديدة ، ١ ص ٦ .
- (٨) يسكن هذه الحارة الصبيان من جملة العسكر ، الذين كانوا معدين لمحل أسلحة تسمى :
(طوارق) . انظر . مقریزی ، خطط ، ٢ ص ١٦ ؛ Essai, I, p 425 : Ravaisse ؛
Suppl, 2, p 41
- (٩) الشرايية ربما جاءت مع افتكين الشراي فسميت على اسمه ، أو لأنها كانت مكلفة
بحمل مؤونه الماء (الشراب) إلى الجيوش في الحارات . انظر . خطط ، ٢ ص ٩ و ١٦ ؛
Essai, I, p 425 et note 3 : Ravaisse ؛ انظر . قبله
- (١٠) هذه الحارة على اسم طائفة عساكر يانس الصقلي الذي كان في خدمة العزيز ؛ أو على
اسم يانس (م ١٠٣١ / ٥٢٦) وزير الحافظ . انظر ؛ خطط ، ٢ ص ١٦ — ١٧ ؛ شرح
اللمعة ، ورقة ١٢ ؛ Essai, I, q 426. : Ravaisse ؛
- (١١) سكن هذه الحارة السودان المعروفون باسم المنصورية . انظر . خطط ، ٢ ص ١٩ .
- (١٢) نفسه ، ٢ ص ٢٠ ؛ Essai, I, q 426. : Ravaisse ؛ Sefer Nameh, trad, Schefer p 145 : et note 3 ؛
انظر . Ravaisse : Essai, I, p 426 et note ؛ قبله .
- (١٣) هذه الحارة على اسم الحسينية ، طائفة من السود عبيد السودان . انظر . مقریزی ،
خطط ، ٢ ص ٢٠ ؛ Essai, I, p 425. : Ravaisse ؛

فسكنت في القاهرة حول القصر، العساكر النظامية^(١)، مثل: الروم، والترك، والسودان، والسكرد، والبربر؛ أما العساكر غير النظامية فإنها نزلت في أطراف المدينة، سواء في الجنوب مثل: السودانيين، أو في الشمال مثل: عبيد الشراء.

ونحن لانعرف عدد هذه الحارات، التي نزلها العساكر، لأن الجيش الفاطمي كان عدده في ازدياد أو نقصان مستمر، إلا أننا نعرف أن المدينة قسمت إلى خمس عشرة حارة في عهد جوهر، وأنها قسمت إلى عشر حارات^(٢)، في وقت زيارة ناصري خسرو، في أوائل حكم الخليفة المستنصر.

أما عن حاميات العساكر في داخل البلاد في مصر، فليس لدينا إلا تفاصيل قليلة. فيروى المقرئزي^(٣)، أن الفاطميين كان من عادتهم انزال العساكر في مراكز الحدود (المعور) : في دمياط وتنبس ورشيد وعيذاب وأسوان والإسكندرية^(٤). وكذلك يلاحظ ناصري خسرو^(٥) وجود حامية مسلحة تسليحاً قوياً، في تنبس للسهر على حمايتها من هجمات العدو. وفي فقرة جديدة، يتكلم المقرئزي أيضاً^(٦)، عن وجود قوات على أهبة القتال في الفرما بولاية الشرقية للدفاع عنها، وكانت بعض هذه القوات يطلق عليها: «المركزية» لأنها تقيم في المدن، وبعضها الآخر يعرف: «بالمقطعين» لأنها تعيش على الأخص على الإقطاعات^(٧).

(١) انظر . خطط ، ٢ من ١٤ ؛ History of Cairo, p 166-7 : Lane-Poole ؛ Le Caire, I, 128. : Clerget

(٢) انظر . Sefer Namah, trad, Schefer, p 144

(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ١٩٨ ؛ ٢١٢ ؛ ٢١٣ س ٨ .

(٤) نفسه ، ١ ، ص ١٠٩ س ١٥ ؛ ابن عمات ، قوانين ، تحقيق القاهرة ، ص ٢٢ ؛

انظر . Bonriant, P 314.

(٥) انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p 112

(٦) مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٢١٢ س ٩ .

(٧) نفسه .

وقبل أن نعطي فكرة عن تنظيم الجيش الفاطمي في أوان الحرب ، سنبين العلاقات التي كانت قائمة بين الدولة الفاطمية وأعدائها خلال حكمها في مصر ؛ ففي القرن الأول ، كان فاطميو مصر في عدااء مطلق مع بيزنطة والدولة العباسية ، فالعلاقة الطبيعية بينها وبينهم هي الحرب .

فبيزنطة ، دولة مسيحية ، وعلى ذلك فإن الحرب ضد هذه الدولة أمر ضروري ، لأن العقيدة الإسلامية ، بصفة عامة ، تمنع العلاقات السلمية مع شعب لا يؤمن بمبادئه ^(١) ، وكان هذا المبدأ مطلقاً بحيث أن الشريعة الإسلامية تميز بجلاء بين نوعين من البلاد : بلاد الأعداء وتسمى : « دار الحرب » ؛ وبلاد المسلمين وتسمى : « دار الإسلام » ^(٢) . وقد كان المعز نفسه ، لما جاء إلى الإسكندرية ، يلحح بالكلام عن الحرب المقدسة ، مع جماعة من سكان القسطنطينية أنت لاستقباله ^(٣) . ولكن هذه العلاقة بين بيزنطة والفواطم لم تكن دائماً علاقة حرب ، ذلك لأنه في القرن الأول من الحكم الفاطمي في مصر ، كانت توجد دولة حاجزه تعوق الجهاد : أولا دولة الحمدانيين ، ثم دولة المرادسيين .

أما عن العباسيين ، فإن الفاطميين كانوا راغبين حقاً في محق سلطانهم ، وقد حرموهم أمداً طويلاً من حقهم في الخلافة ، ومع أن الفاطميين حينما قاموا بفتح مصر كانوا واضعين نصب أعينهم قتال العباسيين حتى بغداد ، فإن العداوة الشديدة لم تظهر طيلة الحكم الفاطمي ، بسبب العقبات الحربية الكثيرة ؛ فقد كان الخلفاء العباسيون في بغداد يحكمهم البويهيون الشيعة ، الذين كانوا يعترفون بالسلطة الروحية لفاطمي مصر ؛ ولذلك فإن العداوة ضد العباسيين ظهرت أولاً

(١) المحقق ، شرح الإسلام ، ترجمة Query ، ص ٢٠٠ .

(٢) La propriété territoriale, p 8. : Van Berchem

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعه القاهرة ، ٤ ص ٧٢ ؛ انظر . Canard :

L'impérialisme des Fatimides et Leur propagande, Annales de l'Inst. d'Et Or, 6, 1942-6, P. 180.

في شكل صراع سياسي بالدعوة ضدهم ، أكثر مما ظهرت في شكل قتال حربي ؛ ولكن بقيت نار الكراهية بين الفاطميين والعباسيين لا ينطفئ أوارها ؛ وبين ناصري حُسِر وهذا المظهر من العلاقات ، بقوله : إن الخليفة عليه أن يقاتل الكفرة بحد السيف ، وأن يقاتل المنشقين من المسلمين بالدعوة^(١) .

ولكن في القرن الثاني الفاطمي ، غلب الأتراك السلاجقة البويهيين على العباسيين ، وهم عنصر سني جديد ، شديد التعصب ، وعلى ذلك ، فإن العلاقات بين الفاطميين والعباسيين ، اتجهت نحو صراع سياسي ، يختلط بالجهاد .

وفوق ذلك كان على الفاطميين القتال في ذلك القرن ضد الصليبيين ، الذين غزوا الأراضي المقدسة ، فاتخذ الجهاد مظهراً صريحاً وأصبح جزءاً من عمل الجيش الفاطمي ، بل وجميع الجيوش الإسلامية في ذلك الوقت . ولم يتردد الجيش الفاطمي في قتال الصليبيين ، بالتعاون مع دول إسلامية أخرى سنية^(٢) ؛ فكانت الحملات في أواخر الحكم الفاطمي ، ترسل كل ستة أشهر^(٣) .

كذلك يجب أن نشير إلى أن جميع دول الإسلام^(٤) ، وبخاصة الدولة الفاطمية ، تعتقد بحق سيطرتها على العالم ، أو على الأقل على بلاد المسلمين ؛ فكان نشر العقيدة الفاطمية بالقتال جزءاً من الواجب الديني ؛ فغرض الحرب هو تحويل الناس وقيادتهم نحو الدين الصحيح . ولكي يتحقق هذا المبدأ ، كان بعض الرجال ذوي الصبغة الدينية يصحبون الجيش ، فقد كان النصر الحربي يحتاج إلى الحماس الديني ؛ فكان الفاطميون يرسلون عادة مع الجيش قاض يسمى : « قاضي العسكر »^(٥) ، كما كان قاضي القضاة نفسه في العاصمة ، يقوم — أحياناً —

(١) الحشاش : Nâsiri Husrau, p 145

(٢) مقريري ، خطط ، ١ ص ٢١٢ ؛ Wiet : L, Egypte, 4, p 287.

(٣) ابن تفرى بردى ، تحقيق Popper ، ٣ ص ٧ ؛ انظر . Hurat : Ency de

L, Islam (art afdal), 1, p 148.

(٤) انظر . Van den Berg. Droit musulman, p 97.

(٥) ولاة ، ص ٥٨٦ .

باختصاصات قاضي العسكر بالفصل في قضايا العسكر في الحملات أو في المدن ، وهو لم يكن في الغالب غير أداة دينية للدعوة . بل في عهد الخليفة المستنصر ، أرسل داعي الدعوة المؤيد^(١) ، على رأس جيش للتعاون مع قائد فاطمي يدعى البساسيري ، كان يقاتل في بغداد ضد الخليفة العباسي القائم .

على كل حال ، كان الجيش الفاطمي حسن التنظيم في أوان الحرب ، وإن لم تصلنا المعلومات الوافية عنه .

ففي وقت الحرب ، كان الخلفاء يكلون قيادة الجيش إلى قائد يعينونه لذلك ، ولم يقوموا بقيادته إلا في مرتين فقط : المرة الأولى^(٢) ، في عهد العزيز ، حين ذهابه في حملة كبيرة لقتال التركي افتسكين ، الذي كان قد استولى على سوريا ؛ والثانية^(٣) ، في عهد الخليفة المستنصر ، في أثناء الثورة التي هددت بقلب الخلافة الفاطمية ، فلم يتردد المستنصر في أن يركب للحرب بنفسه على رأس الجند والناس ، لقتالة الثائرين .

كذلك ، كان وزير السيف ، بسبب سلطته العامة ، له قيادة الجيش ، كما كان الخليفة — أحياناً — يكل هذه القيادة إلى موظف من قبله ليس لوظيفته أي مظهر حربي ؛ وقد حدث هذا — كما بينا سابقاً — في ارسال حملة حربية إلى العراق بقيادة المؤيد ، داعي الدعوة .

وكان الخلفاء الفاطميون يتمسكون بوداع الجيش رسمياً عند رحيله سواء في العاصمة أو في خارجها ؛ وهذا التقليد ينسب — على ما يظهر — إلى الخليفة

(١) سيرة المؤيد ، ص ١٠٠ .

(٢) يحيى ، ص ٣٩٠ ؛ مقرئزي ، خطط ، ص ٢ ص ١٠ .

(٣) ابن ميسر ، ص ١٩ .

المعز؛ فقد ورد في مناسبة غزو مصر، أنه خرج من قصره في القيروان ليودع الجيش وقواده^(١).

ويقول لنا المقرئزي^(٢)، خاصاً بوداع الجيش في العاصمة — بوجود ميدان واسع في القاهرة — يسمى: «بين القصرين» أي بين القصر الكبير في الشرق والقصر الصغير في الغرب، يستخدم في استعراض قوات الجيش الفاطمي، ويتمتع عشرة آلاف من العسكر ما بين فارس وراجل.

ومن ناحية أخرى، يروي المقرئزي^(٣) أن الخليفة العزيز في ٩٧٨/٣٨٤، عرض عساكره في خارج القاهرة عند مكان يسمى: «سطح الجُبِّ»، فنصبت له خيمة فخمة وضرب لابنه المنصور خيمة أخرى، ولم تنزل العساكر تسير بين يديه من ضحوة النهار إلى صلاة المغرب.

ونحن نجعل الرسوم الخاصة بالاحتفال بوداع الجيش في العاصمة أو في خارجها، ومع ذلك، فمن الوصف الذي وصلنا عن فتح مصر على يد جوهر^(٤)، يظهر لنا الخليفة متكئاً على فرسه وقد تقدم نحوه قائد الجيش، جوهر، ليقبل يده، وحافر فرسه؛ وفي هذه المناسبة، وزعت هدايا وخلع كثيرة، على جوهر وعلى القواد.

أما عن سير العساكر في الاستعراض أو عند رحيلها للقتال، فإن الجيش يتقدم بطوائفه من الرجالة^(٥)، وهم في زى الحرب؛ فكانت كل «طائفة» تتكون من وحدة قائمة بذاتها^(٦). كما كان بجانب كتلة العساكر الرئيسية،

(١) مقرئزي، خطط، ١ ص ٣٧٨ س ٦ — ٧.

(٢) نفسه، ٢ ص ٢٨ س ١٦.

(٣) نفسه، ٢ ص ١٦٣.

(٤) ابن خلكان، وفيات، ١ ص ١٦٦ — ١٦٧؛ انظر O'Leary: Ashort history of the Fatimid Khalifate, P. 100.

(٥) مقرئزي، خطط، ١ ص ٤٨٢ س ١١.

(٦) أنظر. Sefer Nameh, trad. Schefer, P 138.

يشتمل الجيش على البدو الذين يكونون عادة طلائعهم^(١)؛ وعلى الحوashi^(٢)، مثل: الخدم الذين يقومون بتمل أمتعتهم؛ وعلى الأطباء والمؤذنين، والقراء^(٣)، وقاضي العسكر^(٤).

وكانت أمتعة الجيش الضرورية مثل: الخيام، والأسلحة، والأدوات المختلفة، و صناديق المال تحمل على الجمال؛ فيروي المقريزي أن خزائن المال وأمتعة الجيش حملها عشرون ألف جمل، لما خرج العزيز إلى الشام^(٥)

وقد كان الجيش الفاطمي معيلاً بتسليح كامل للحرب، فزيارة لخزائن السلاح^(٦) تبين لنا مدى أهمية هذه الخزائن للجيش الفاطمي. فكانت هذه الخزائن تحتوي على خوذات فارسية «خود»^(٧)، وعربية «بيض»؛ وسميوف حديدية؛ وسميوف على اختلاف أنواعها عربية وفارسية «قلجوريات»^(٨)؛

(١) مقريزي، خطط، ١ ص ٢١٢ س ١١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ١ ص ٤٨٢ س ١٢.

(٤) ولاة، ص ٥٨٦ س ١٧.

(٥) مقريزي، خطط، ١ ص ٩٤ س ٣٢. يذكر ابن ميسر ٣٠ الف جمل. انظر.

تاريخ مصر، ص ٥٠.

(٦) تقع خزانة السلاح الفاطمية في القاعة التي كان يطلق عليها اسم: «الايوان الكبير»، وهي القاعة ذات الأعمدة، التي كان يجلس بها الخلفاء في استقبالهم الأسبوعية، كل اثنين وخميس. ولكن فيما بعد، في أيام الخليفة الأمر (٩٥٠-١١٠١/١١٣٠)، نقل جلوس الخليفة إلى القاعة المعروفة: «بقاعة الذهب»، وتحول الأيوان الكبير إلى مستودع للأسلحة وسمى: «خزائن السلاح». انظر. مقريزي، خطط، ١ ص ٣٨٦ س ٨-٩؛ ٣٨٨ س ٢٢؛ ٣٠؛ ٤٠٧؛ ٤٠٨-٤١٧؛ ٤١٨؛ انظر. De Sacy: Inostrantsev, P.491. Chrest, I, Paris 1826, P 125-126.

(٧) مقريزي، خطط، ١ ص ٤١٧ س ٢٨؛ انظر. Inostrantsev, P 48.

(٨) ليس من السهل وصف هذا السيف بدقة، ولكن لما كانت كلمة «قلجوريات» تجاور «سيوف عربية»، فانا نفهم أن هذه الكلمة من أصل فارسي وتدل على سيف فارسي انظر. Inostrantsev, P 50.

والرمح الزان المسماة : « الخطيئة »^(١) ؛ والأسنة الطويلة المسماة : « القنا »^(٢) ؛
والرمح الخشبية المسماة : « فُنطاريات »^(٣) ؛ وجعاب السهام ؛ والدروع ؛ وسهام
من خشب « الخَلنج » ؛ وسهام يقال لها : « نُشَاب » من الخشب أيضا ، ذات
نصول مثلثة الأركان ؛ وسهام يقال لها : « الجراد » طولها شبر وتبلغ الهدف
بسرعة فائقة فتقتضى على الفارس أو الراجل^(٤) ؛ وسترات تسمى : « كُرْاغندات »^(٥) ،
مبطنة بالقطن أو بالحرير « ديباج » ، وتستعمل كدرع ؛ والدروع العربية ، والدروع
الفارسية المسماة : « زرد » أو « جواشن »^(٦) ؛ ونوع من الدروع يسمى : « زرديات
سابلة »^(٧) ، تغطي كل الجسم ؛ ودروع تغطي الخيل تسمى : « تجايف »^(٨) ، حيث
يروى ناصرى خُسر^(٩) ، أن الخيل كانت محمية بدرع ، وأنه كان يوضع عند مؤخرة

(١) مقریزی ، خطط ، ١ ص ٤١٧ س ٢٩ ؛ انظر . Schwarzlose Die :
Waffen. Leipzig, 1886, P 226 كلمة « خطيه » مأخوذة من « خط » اسم لإحدى مدن
بلاد عمان ، التي كانت تباع فيها الرماح المستوردة من الهند.

(٢) مقریزی ، خطط ، ١ ص ٤١٧ س ٣٣ ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, P 414

(٣) القنطاريات نوع من الخشب يستعمل في صناعة الرماح. انظر . Dozy : Suppl, 2, P 413

Schwarzlose, P 219 ؛ Cultergeschichte, 2, P 285: Kremer ؛ Inostrantsev, P 50

(٤) مقریزی ، خطط ، ١ ص ٤١٧ س ٣٧ ؛ انظر . Inostrantsev, P 49

(٥) مقریزی ؛ خطط ، ١ ص ٤١٧ س ٣١ ؛ انظر Dozy : Suppl, 2, P 342 et 462 ؛

Un traité d'armurerie, : Cahen ؛ Schwarzlose P 334 ؛ كنوز ، ص ٢٣ ؛

Inostrantsev, P 50 B. E. O. XII, 1947-8, texte P. 116, trad P. 138

(٦) « دروع » كلمة عربية ، أما « زرد » و « جواشن » فهما فارسيتان . انظر .

Inostrantsev, P. 48 ؛ traité, texte P 116, trad P 138 ؛ Cahen

(٧) مقریزی ، خطط ، ١ ص ٤١٧ س ٣٢ ؛ انظر . Schwarz ؛ Inostrantsev, p 50

lose, P 34F . ترجمه . Ouatremère (انظر . Mamelouks, I, 2, 114, N. 138)

« الزرديات السابلة » بهذه العبارة : « Cuirasses Flottantes » أى دروع فضفاضة .

كذلك يذكر المقریزی (خطط ، ١ ص ٤٥٤ س ٥) نوعا آخر من الدروع يغطي كل

الجسم « زرديات بالمغافر ملثمة » ، وهذه لا تبين من لابسها — عليهما يظهر — إلا الأحداق .

انظر . نفسه ، ١ ص ٤٥٥ س ٣ .

(٨) انظر . Schwarzlose P 324 ؛ Inostrantsev, P 48 . هذه الكلمة عند Dozy

(انظر . Suppl. 2. P 200) تدل على قطع اللبود المصمته ، التي تستخدم في تبطين الدروع

لفرسان والخيل .

(٩) انظر . Sefer Nameh. trad. Schefer, P. 137 .

الحصان خوذة وأسلحة أخرى تثبت على السرج . وكانت توجد أيضاً أنواع من الأقواس المختلفة ، مثل : « قوس اليد » التي تشد باليد ، فتخرج السهام التي تشبه الجراد لصغر حجمها ، دفعة واحدة في جهات متعددة^(١) ؛ و « قوس الرجل »^(٢) ، التي تشد بدفعها من الرجلين ؛ و « قوس الركاب »^(٣) ، التي تشد من ركاب الخيل ؛ وأخيراً « قوس اللولب »^(٤) ، التي تشد بواسطة لولب .

وفوق ذلك ، يذكر الأبرقي^(٥) ، وهو معاصر لآخر خلفاء الفاطميين ، آلة حربية فيها عدة أقواس يشدها رجل واحد ، وتميز بأنها ترسل عدة سهام بشدة واحدة ؛ كما يذكر قوساً لتذف قارورات النفط^(٦) ، التي كانت تلقى أيضاً بالسهام والمنجنيقات^(٧) .

ومن ناحية أخرى استعمل الجيش أسلحة الحصار الثقيلة ، مثل : « المنجنيقات »^(٨) ؛ و « الدبابات » ؛ و « الأبراج » ؛ و « الستائر » ؛ وهي تستخدم في نهب حوائط الأماكن الحصنة وتدميرها^(٩) .

كذلك استخدم الجيش أسلحة مدبية ، تسمى : « مثلثة »^(١٠) ، لها أحجام مختلفة لنشرها على الأرض لتعوق تقدم العدو .

وفي الجملة ، كان الفاطميون لا يدخرون وسعاً ، في تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من أسلحة .

(١) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤١٧ ؛ Cahen ; Traité XII, 1947-8, texte p 110 ;

Inostrantsev, p 49;51 : Suppl, 2, p 418 : Dozy ؛ انظر trad, p 132

(٢) نفس المراجع .

(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤١٧ ص ٣٦ .

(٤) نفسه ؛ انظر . Dozy . Suppl, 2, p 418 .

(٥) انظر . Cahen . Traité. XII, 1947-8, texte, p 112, trad, p 134 ;

(٦) نفسه ، النص ، ص ١١١ ؛ والترجمة ، ص ١٣٣ .

(٧) نفسه ، النص ، ص ١٢٢ — ٣ ؛ والترجمة ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٨) نفسه ، النص ، ص ١١٨ ؛ والترجمة ، ص ١٤١ .

(٩) نفسه ، النص ، ص ١٢٠ ؛ والترجمة ، ص ١٤٣ .

(١٠) نفسه ، النص ، ص ١٢١ — ١٢٢ ؛ والترجمة ، ص ١٤٤ .

وكان الجيش يجهز أيضاً بالخيام^(١)، فيصف لنا المقرئ بدقة^(٢)، خزائن الخيام، التي تميز فيها أشكالاً مختلفة من خيام الجيش، مثل: «الحصون» و«القصور» و«الفساطيط» و«الشراعات» و«المسطحات».

وكانت الخيام تخزن لحاجة الجيش في المواضع الحربية في البلاد، فتخرج إلى العسكر في حالة تهديد مفاجئ، كما حدث عند تهديد الصليبيين للفرما في ولاية الشرقية^(٣).

كذلك تزود الجيش الفاطمي بعدد وافر من الدواب، وعلى الأخص الخيل التي كان لرجال السيف وحدهم والأشخاص العاملين في الجيش حق ركوبها؛ أما رجال القلم، فإنهم لا يركبون إلا الحمير^(٤). ويذكر المقرئ أسماء بعض اصطبلات الخيل الفاطمية، مثل: اصطبل «الحجرية»^(٥) الخاص بصبيان الحجر، واصطبلين آخرين للخليفة، يسمى أحدهما: «طارمة» بمعنى رواق، ويسمى الآخر: «مُجَمَّزة»^(٦)؛ وهما يضاحيان اصطبل الحجرية في الأهمية؛ ولكننا نظن أنهما لا يحتويان إلا على خيول الأعياد والحفلات.

وقد أقام الفاطميون خزائن لصناعة السروج، التي تعد خصيصاً للدواب في الحرب؛ فيروي المقرئ^(٧)، أن الخليفة الأمر، فسكر في الغارة على بغداد، ولذلك أعد

(١) صبح، ١٠ ص ٤١٠ س ١٣ وما بعدها؛ خطط، ١ ص ٤١٨ وما بعدها؛ ٤٨٢ س ١٣.

(٢) خطط، ١ ص ٤١٨—٤٢٠؛ انظر. Kremer: *Culturgeschichte*, 2, p 298-300.

Inostrantsev, p 99. : *Mém. géog et hist*, 2, p 380-383. : Quatremère

(٣) مقرئ، خطط، ١ ص ٢١٢ س ١١.

(٤) انظر. Sefer Nameh, trad, Schefer, p 154.

(٥) مقرئ، خطط، ١ ص ٤٦١.

(٦) نفسه، ١ ص ٤٤٤.

(٧) نفسه، ١ ص ٤١٨؛ صبح، ٣ ص ٤٧٧؛ انظر. Inostrantsev, p 56.

سروجاً مجوفة وبطنها بصفايح من قصدير، ليجعل فيها الماء ، فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منها الفارس .

وكان استكثار الرايات من الرايات لا ينتهي عند حد في الغالب ؛ فقد كان عدد الرايات ، لما خرج العزيز إلى فتح الشام ، خمسمائة راية^(١) ، وسنرى في فصل مقبل ، أن الفاطميين اتخذوا الرايات البيضاء ، التي سميت لهذا السبب : « مبيضة » ، مخالفة للعباسيين الذين سميت راياتهم : « مسودة »^(٢) ، أي سوداء . وقد جرت العادة عند الفاطميين أن يعقد الخليفة لقائده اللواء قبل خروج الجيش ، فيخرج القائد بعد ذلك من قصر الخليفة ، لكي يقوم بما أرسل من أجله^(٣) . وقد كانت الرايات الفاطمية تحمل عادة اسم الخليفة والقابله مطرزة على أطرافها^(٤) .

وكان للجيش الطبل والبوق ؛ فقد دخل جوهر الفسطاط وبين يديه تدق الطبول^(٥) ، كما اتخذ العزيز خمسمائة بوق لما خرج إلى فتح الشام^(٦) .

من هذا نرى أن الجيش الفاطمي ، كان حسن الإعداد ، مثل غيره من جيوش الدول الكبرى ، في ذلك العصر .

أما عن معلوماتنا عن مسلك الجيش في الحرب فإنها توجد مبعثرة في كتب عديدة ، وإن كان من الطبيعي أن يتبع الفاطميون نفس الخطط الحربية في الدول الإسلامية الأخرى .

(١) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٥ ؛ De Sacy : Chrest, 2, p 495.

(٢) نفسه ، نفسه .

(٣) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٤ .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم تحقيق Popper ، ٢ ص ١٧١ .

(٥) العيني ، العقد ، ١٩ ورقة ٢٣٢ .

(٦) ابن خلدون ، مقدمة ، ٢ ص ٤٥ .

فوجد أن الفاطميين أحاطوا عاصمتهم — القاهرة — بأسوار ضخمة تشبه القلاع المنيعه ، لتقف صعبة المنال أمام العدو ^(١) . فبنى جوهر في ٩٦٨/٣٥٨ ، أسواراً سميكه من الطوب من قطع كبيرة الحجم ، بحيث يستطيع فارسان أن يمرآ عليها جنباً إلى جنب ^(٢) . ولما اتسعت العاصمة بعد ذلك ، أمر بدر بدوره في ١٠٨٧/٤٨٠ ، ببناء سور جديد من قطع الطوب إلا الأبواب كانت من الحجارة ، وكان هذا السور سميك أيضاً ، يبلغ عرضه في بعض الأماكن نحو عشرة أذرع ^(٣) .

وزيادة في تحصين العاصمة ، حفر جوهر في ٩٧٠/٣٦٠ خندقين ، عرض كل منهما عشرة أذرع في عمق مثلها ، وذلك في شرق العاصمة ، من ناحية سوريا ^(٤) . كذلك كانت القاهرة تستطيع أن تقاوم طويلاً ، في حالة الحصار ؛ فحسب قول المقریزی ^(٥) ، كان يوجد فيها « أهراء » كثيرة لخزن القمح .

أما في حالة هجوم مفاجئ ، على مكان غير محصن في البلاد ، فإن القيادة قررت نظاماً دفاعياً عنه ؛ فيروى المقریزی ^(٦) بدقة الخطة التي اتبعت في الدفاع عن الشرقية ضد هجوم الصليبيين عليها ؛ فقد أرسل الولى بسرعة شرادم البدو لانهاك جناحى جيش العدو أثناء الليل وشغله بحرب العصابات ، ثم وجه — بعد ذلك — فيالق الجيش للمسكرة في الولاية ، وكانت تتكون — كما ذكرنا سابقاً — من

(١) انظر . Sefer Nameh, trad, Schefer, p. 128-131 .

(٢) نفسه ، ص ١٢٦ ؛ خطط ، ١ ، ص ٣٧٧ ؛ انظر . Ravaisse : Essai, I, p 422 ؛ مجلة المقتطف ١٩٣٤ : تأسيس القاهرة ، كتبها Creswell وترجمها رجب ، ص ٣٠٥ وما بعدها .

(٣) مقریزی ، خطط ، ٢ ، ص ٣٧٩ ؛ Ravaisse : Essai, I, p 421 etnote 1 .
بنى هذا السور للمرة الثالثة ، في سنة ١١٦٠/٥٦٦ ، في عهد صلاح الدين ، وكان يومئذ وزير العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين (انظر . خطط ، ١ ، ص ٣٧٧ و ٣٧٩) .

(٤) مقریزی ، خطط ، ٢ ، ص ١٣٦ — ١٣٨ ؛ انظر . Ravaisse : Essai, I, p422 .

(٥) مقریزی ، خطط ، ١ ، ص ٤٦٤ و ٤٦٥ .

(٦) نفسه ، ١ ، ص ٢١٢ ؛ Bouriant, p 26-7 .

عسكر تُعرف : « بالمرركزية » و « المقتطين »^(١) ؛ فكانت كل هذه القوات تعمل على شغل العدو وتأخير زحفه حتى وصول الجيش الرئيسي من العاصمة .
وفي القتال كان الجيش الفاطمي يستخدم كل أساليب الحرب المعروفة في عصره . فلم يسكن يتردد في حرق الأرض أمام العدو لتعطيل تقدمه ، كما فعل المصريون عند مهاجمة الصليبيين لبلادهم ؛ فقد أمر الوزير شاور ، في سنة ١١٦٨/٥٦٤ ، بحرق القسطنطينية^(٢) ، لوقف هجوم الصليبيين ، وكان يلزم لذلك عشرون ألف قارورة نפט وعشرة آلاف مشعل نار . كذلك كان الجيش يلجأ إلى التحصن من عدوه وراء الترع التي تستخدم كخط للدفاع^(٣) . كما كان يلجأ — في بعض الأحيان — إلى طلب « الهدنة » من محاصريه ، وإن كان هذا الطلب يتوقف بطبيعة الحال على مقدار ما تقدمه مصر من مال ؛ فقد دفع العزيز عشرين ألف دينار لقاء الهدنة ، التي وضعت حداً للنزاع بين المصريين والقرامطة^(٤) .

وكان الجيش الفاطمي إذا زحف للقتال ، لزم الصفوف^(٥) ، ووزع نفسه في ميمنة وميسرة وقلب ، يكون فيه قائد الجيش بخيمته أو بمظلته ، وكلاهما رمز القيادة^(٦) .
وحسب الخطط الحربية في ذلك الوقت ، كان الجناحان يجب نشرهما على نطاق واسع ، لتحاشي الكمين^(٧) ، والفرسان يجب توزيعهم في كواكب تتقدمها

(١) الأوائل يتسلمون أرزاقهم لقاء خدماتهم ، فهم المرتزقة ، أما الآخرون فانهم يملكون اقطاعات ، فهم المقتطون .

(٢) مقريري ، خطط ، ١ ص ٣٣٩ س ٤ و ٥ ؛ ص ٣٥٨ س ٢٦ .

(٣) رسائل المستنصر : (٣٥) ورقة ١٦٧ و (٤٣) ورقة ٣٤ .

(٤) شرح اللمعة ، ورقة ٥ .

(٥) ابن خلكان ، ٢ ص ١٥٣ ؛ النعمان ، دعائم ١ ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٦) رسائل المستنصر : (٤٣) ورقة ٢٤ .

(٧) Traité, XII, 1947-8, texte p 125-6 ; trad p 148-9 : Cahen

الرجالة في طوائف لتكون درعاً لها ، مع مراعاة جعل العسكر كله جبهة واحدة للقاء أى هجوم من جانب العدو بكل قوة ؛ فكان هذا التكتيك من شأنه أن يربك العدو ، الذى قد يوجه هجومه نحو إحدى الطوائف ، كما حدث عند مهاجمة الفرنجة في مصر ، فوجدت نفسها محاطة بالعسكر ، من كل جانب .

وقد أثبت عساكر الجيش الفاطمى مهارة فائقة فى استعمال أسلحة الحرب ؛ فكان الرجالة من « المصامدة » مثلاً — وهم من قبيلة مصمودة المعروفون بطول القامة وسواد اللون — لا يقاتلون إلا بالحراب أو بالسيف ، ولا يجيدون استعمال أى سلاح آخر غيرها ^(١) .

كذلك كان العسكر الفاطمى يجيدون استخدام آلات الحرب الضخمة ، مثل : « المنجنىقات » العظيمة ، التى ترمى بالحجارة أو بالمواد الملتهبة ^(٢) ؛ وأسلحة الحصار ، مثل : « الستائر » و « الأبراج » و « الدبابات » ، التى تقوم بنقب حوائط الأسوار ^(٣) .

أما عن استعمال النار الإغريقية (النفط) ، فنعرف أنه كانت توجد فى الجيش الفاطمى طائفة تسمى : « بالنفطيين » ^(٤) مهياة خصيصاً لرمى النفط فى القوارير ^(٥) ، أو بآلات الحصار كالمجنىقات ، أو بالنشاب ، أو فى قدور النفط ^(٦) ، أو من على الجياد ^(٧) .

(١) انظر . Sefer Nameh trad. Schefer p 124 . يروى ناصرى خسرو أنهم سود لأن أصلهم من بلاد مصمود ، التى تمتد جنوب إفريقية حتى المحيط الأطلسى . انظر قبلة .

(٢) رسائل المستنصر : (٣٥) ورقة ١٧٠ ، (٤) ورقة ٢٣٥ .

(٣) انظر . قبله ؛ صبح ، ٢ ص ١٣٨ .

(٤) مقرئى ، خطط ، ٢ ص ٣ س ١٤ .

(٥) نفسه . ٢ ص ٣ س ١٥ .

(٦) صبح ، ٢ ص ١٣٨ .

(٧) Traite, texte p 122-3; trad, p 145-6. : Cahen

مهما يكن من أمر ، فإن الجيش الفاطمي كان يسيطر دائماً على ميدان القتال ،
ويشن الهجوم على الأعداء ، ويعرف حقاً كيف يخيف ، فبفضل قوة شكيمته
امتدت رقعة الإمبراطورية الفاطمية من المحيط الأطلسي حتى بغداد .

وكان الجيش المظفر عند عودته ، تسير طوائفه المختلفة في حارات العاصمة
بين جمهور الشعب المتحمس ، وبين مظاهر السرور .

وفي أثناء هذه الاحتفالات — التي قد تستمر عدة أيام — يستعرض الخليفة
الأسرى والغنائم . فكان الأسرى الأشداء يوضعون في أقفاص من حديد ؛
وذلك كما حدث عندما أسر الخليفة الحاكم عدوه أبا ركوة ، فقد سُهر هذا الأخير
على جمل في العاصمة ، بعد أن غُطيت رأسه بطرطُور ضخم عمل من الخرق المصبوغة ،
وجُعل خلفه قرد معلم نيمده درّة يضرب بها بدون توقف الأسير المسكين^(١) ؛
فقد كان حماس المنتصر يغيره أحياناً نحو مسلك غير إنساني .

الأسطول . قوته — دواوينه — دور الصناعة — عدده — أنواع السفن — رجال
الأسطول — أسلحته — خروجه — الفن البحري — الغنائم .

قبل وصول الفاطميين مصر ، لم يَقم « أسطول »^(٢) الطولونيين والإخشيديين

(١) ابن القلانسي ، ص ٦٥ ؛ ابن تغرى بردى ، تحقيق Popper ، ص ٢ ، ٩٩ .
(٢) كلمة « أسطول » أصلها يوناني ، وهي تطلق على مجموع السفن الحربية وعلى السفينة
الواحدة . انظر . عبادة ، سفن الأسطول الإسلامي ، ص ١٠ ؛ الشاذلي ، الأسطول في اللغة
والأدب والتاريخ ، ص ٣٥ (مجلة الثريا ، السنة الثانية ، عدد ٣ ، مارس ١٩٤٥ .)

إلا بدور ضئيل^(١)، وذلك على عكس الأسطول الفاطمي في إفريقية، الذي كان قد أثبت شدة بأسه عدة مرات في البحر الأبيض بغزواته المظفرة ضد بيزنطة وإسبانيا وإيطاليا وفرنسا^(٢).

وعند مجيئهم مصر، زاد من سطوة اسطولهم، اعتماده على قواعد بحرية كثيرة، في البلاد التي استولى عليها الفاطميون من الإخشيديين؛ وبذلك سيطروا على السواحل السورية حتى بيزنطة، وعلى شواطئ البحر الأحمر، وعلى ساحل إفريقية الذي كان في حوزتهم من قبل.

ولم يكن من المستطاع الاحتفاظ بهذه السواحل الطويلة أو الاستيلاء على مرافئ جديدة — حتى يتمكنوا من الاستمرار في أمور الجهاد البحري بحماس ونجاح — بدون أسطول ضخم، شديد البأس. فيروى القلقشندي بدقة^(٣)، أن وحدات الأسطول الفاطمي كانت مرتبة بجميع الشواطئ الساحلية، مثل: الإسكندرية ودمياط وعسقلان وعكا وصور وغيرها من مرافئ سوريا. ولكن هذه السيادة البحرية على سواحل سوريا لم تبق لهم طول عهدهم، فقد غلبهم عليها الصليبيون، في القرن الأخير من حكمهم^(٤).

وقد خصصت الدولة الفاطمية جزءاً كبيراً من ميزانيتها للنفقة على إعداد أسطول قوى، وتجهيزه بما يحتاج إليه من أدوات الحرب أو من الرجال. وكما وجدت دواوين للجيش، وجد ديوان واحد للأسطول هو: «ديوان

(١) Les Tulunides, P. 173 : Zaki

(٢) النعمان، مجالس، ١، ورقة ٢٢٨ — ٢٣٠؛ انظر. Amari. Bibliothéca : Arabo-Siculia, p 254.

(٣) صبح، ٣، ص ٥٢٣.

(٤) نفسه.

الجهاد»^(١)، كان يقوم بالإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها ودفع النفقة للرجال العاملين فيها .

وقد كانت أهم مراكز إنشاء المراكب المسماة : «دور الصناعات»^(٢)، في العصر الفاطمي، توجد في العاصمة؛ فكانت القس، التي أنشأها الخليفة المعز^(٣)، في شمال القاهرة على ساحل النيل، تقوم ببناء ستائة قطعة^(٤)؛ كما كانت جزيرة الروضة، التي عرفت في العهد الفاطمي باسم : «جزيرة مصر»، تقوم أيضاً بإنشاء المراكب البحرية .

وقد وجدت أماكن أخرى متعددة في مصر وفي الإمبراطورية لبناء المراكب؛ فيروى المقرئ أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بنشاط بمدينة الإسكندرية ودمياط^(٥) .

وكانت الدولة الفاطمية تبذل جهدها للحصول على الخشب الضروري لإنشاء المراكب سواء من مصر أو من الخارج . ففي مصر كانت تقيم الحراس لحماية أشجار لا تحصى من السنط، في البهنساوية والأشمونين والأسيوطية والأخيمية والقوصية^(٦)، وهي ذات أعواد قوية تصلح في عمل المراكب . ولم تتردد مصر أيضاً في الحصول على الخشب اللازم لأسطولها من البندقية، مما دعا بيزنطة إلى

(١) نفسه ، ٣ ص ٤٩٦ .

(٢) مقرئى ، خطط ، ٢ ص ١٨٩ .

(٣) نفسه ، ٢ ص ١٩٥ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ؛ ابن ممتى ، قوانين ، ص ١٦ .

(٦) مقرئى ، خطط ، ١ ص ١١٠ و ٣٦ و ٣٩ ؛ انظر . Bouriant, P 318 ؛ انظر .

Les Forêts, M. I. E. 1900, P 141 etsuiv. : 'Ali Bahgat

الاحتجاج عند الدوج (Doge) أو حاكم البندقية ، الذي اضطر أمام هذا الاحتجاج إلى وقف إرسال الخشب إلى مصر^(١) .

وليس في الإمكان أن نؤكد أن الأرقام التي لدينا عن عدد مراكب الأسطول الفاطمي في غاية الصحة ؛ فيروى المقرئ في أن عددها في أوائل الدولة يزيد على ستمائة قطعة^(٢) ، ولكن هذا العدد انخفض بالتدريج حتى صار عبارة عن مائة قطعة في آخر الدولة^(٣) .

فيأتي في طليعة مراكب الفاطميين في مصر أسطول تجاري يملكه الخليفة ، في غاية النشاط . فقد عرف خلفاء الفاطميين الانتفاع بمزايا الموقع الجغرافي لمصر ، في مفترق سبيل المراكب الآتية من آسيا والشرق الأقصى ، فانشؤا أسطولا تجارياً كبيراً ، بقصد التجارة العالمية وعلى الأخص مع الهند . ويروى ناصرى خسرو ، في رحلته^(٤) ، بعض الفقرات الطريفة عن أسطول الخليفة : فقد كان من بين ألف مراكب راسية في تيفيس ، ما هو ملك للتجار ، عدد كبير ملسكا للخليفة . ولا ريب ، أن مراكب الخليفة التجارية كانت تبني في دور صناعة الدولة ، وإن لم تصلنا أية معلومات دقيقة عن طريقة صنعها أو تجهيزها .

أما عن الأسطول الحربي ، فلدينا أسماء بعض وحداته ، مثل : « الشواني » ،

(١) انظر . Die Renaissance : Mez . ترجمة أبي ريدة ، ٢ ص ٣٦٤ .

(٢) مقرئ ، خطط ، ٢ ص ١٩٣ س ١٢ وما بعدها .

(٣) نفسه ٢ ص ١٩٣ س ١٢ — ١٣ .

(٤) انظر . Sefer Nameh, trad., Schefer, P112 et 115 .

جمع « شيني » أو « سُونة»^(١) ، وهي من أهم قطع الأسطول الفاطمي وأطولها ،
وتجذف بمائة وثلاثة وأربعين مجذاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع وللهجوم ،
وتحتوى على أهراء نخزن القمح، وصهاريج لخزن الماء الحلو . و « الحراريق » جمع
« حَراقة»^(٢) ، وهي من أكبر المراكب أيضاً ، وإن كانت أقل من الشونة
حجماً ، وتستعمل على الأخص في حرق سفن العدو؛ ولذلك كانت مزودة بالنفط ،
الذى يرمى بالمتجنقات أو بالسهم أو في القوارير^(٣) . و «البطس» جمع «بُطسه» ،
وهي من السفن الحربية العظيمة ، التي تشتمل على عدة طبقات وعلى قلع
كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعة^(٤) ، وهي تستخدم في حمل الأزواد والذخيرة
وعلى الأخص الرجال ؛ فيروى المقرئى أن إحدى « البطس » كانت تحمل
ألفاً وخمسة مائة شخص^(٥) . والمراكب المسماة «أغربه» جمع « غراب»^(٦) ، وهي
من المراكب الحربية شديدة البأس ، ولعلها سميت بهذا الاسم بسبب شكل

(١) صبح ، ٣ ، ص ٥٢٣ س ١٣ ؛ مقرئى ، خطا ، ١ ، ص ٤٨٢ ، س ١٠ ؛ ٤٨٣ ؛
س ١٤٧ و ٢ ؛ ص ١٩٣ س ١٢ و ٤ ؛ ابن ممتي ، قوانين ، ص ١٦ ؛ انظر Syed Sulaiman :
Arab Navigation, Isl. Cult. Vol XV, October, 1941 P 440 ; Vol. XVI, January
Amari P 280; "Schiff" P3et53 : Kindermann ; 1942 P. 82. عبادة ، سفن ، ص ٤-٥ ؛
Dozy : P 300 et 324 ; Suppl, I, P 717 : هذا المركب يسمى أيضاً «حمامة» . انظر .
مقدسي ، تحقيق De Goeje ، ص ٣٢ .

(٢) مقرئى ، خطا ، ص ١٩٤ ؛ ابن ممتي ، ص ١٦ ؛ Basile le : Rosen ؛
Uber arabisches Schiffwesen P 438 : Gildmeister ؛ Bulgaroctone p 285
Kindermann, P 22 ؛ Dozy : Suppl, I, 274 ؛ عبادة ، ص ٥ . توجد مراكب تحمل نفس الاسم للزهة والرياضة
والتنقل عند الحلفاء . انظر . عبادة ، ص ٥ .

(٣) un traite, texte p 122 - 3 ; trad p 145 - 6 : Cahen

(٤) انظر . Amari, p321 ؛ Kindermann, p 7 ؛ عبادة ، ص ١٠ ؛ Syed : Arab,
Suppl, I, p 94: Dozy ; navigation Isl Cult. XV no 4, Oct 1941, 440

(٥) مقرئى ، ١ ، ص ٤٨٠ س ٢٤ — ٢٥ ؛ يسميها المقرئى : « بطشه » .

(٦) عبادة ، ص ٧ ؛ انظر . Kindermann 7 ؛ Dozy : Suppl, 2, p 204-5

مقدمة هيكلها ، التي كانت على شكل رأس غراب . و « المُسطّحات » جمع « مُسطّحة » أو « مُسطّح »^(١) ، وهي نوع من كبار سفن الحرب المسطوحة . و « الطرائد » جمع « طريدة » ، وكانت تستخدم في نقل الخيل^(٢) . و « الشلنديّات » جمع « شلندي »^(٣) ، وكانت من كبار المراكب المسطحة ، وتستخدم في نقل البضائع . و « القراقير » جمع « قرقورة » ، وكانت من السفن العظيمة المعدة لنقل المؤن للأسطول^(٤) . و « الحملات » جمع « حمالة » ، وكانت تحمل الذخيرة للأسطول^(٥) .

وبالإضافة إلى هذه التقطع الحربية الرئيسية يشتمل الأسطول على قطع أخرى ، مثل : « الطرادات » جمع « طراد » أو « طرادة » ، وهي سفن حربية صغيرة ، على هيئة البرميل ، بدون سطح ، وتستخدم في مطاردة العدو لسرعتها^(٦) . و « الشبايك » جمع « شبك » أو « شباك » ، وهي من سفن الأسطول الصغيرة^(٧) ، ذات ثلاثة قلاع ،

- (١) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٨٣ س ١٥ ؛ ٢ ص ١٩٣ س ٤ و ١٣ ؛ صبح ٣ ص ٥٢٣ ؛ انظر . عبادة ، ص ١١ ؛ Dozy : Suppl, I, p. p 652 .
(٢) ابن ممتى ، ص ١٦ ؛ Amari, p 310 ؛ انظر عبادة ، ص ٥ ؛
Suppl, 2, p 34 ؛ Dozy : Kindermann p 13—14
(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٨٢ س ٣٦ ؛ ٢ ص ٤٨٣ س ٨ ؛ ٣ ص ١٩٣—٤١٠ ؛
ابن ممتى ، ص ١٦ ؛ يحيى ، ص ٤٢٩ ، انظر : عبادة ، ص ٥ — ٦ ؛
Suppl, I, 783 ؛ Dozy : Kindermann, p 51
يقول المقدسي أن « الشلندي » هو « البارجه » انظر . أحسن التقاسيم ، ص ٣٢ .
(٤) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٧٦ س ٣٩ ؛ انظر عبادة ، ص ٥ .
Kindermann p 4 ؛ Dozy : Suppl, 2, p 335 ؛
يقول المقرئزي بوجود « قراقير » تسير في الليل ، لنقل الناس في الأعياد .
(٥) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٨٣ س ١٥ ؛ ٢ ص ١٩٣ س ١٣ ؛ صبح ، ص ٥٢٣ ؛
ابن ممتى ، ص ١٦ ؛ انظر . Amari, p 333 ؛ عبادة ، ص ١٢ ؛ Kindermann, p 23-34 ؛
Dozy : Suppl, I, p 327 ؛
(٦) عبادة ، ص ٦ .
(٧) يكتب المقدسي (ص ٣٢) « شبك » بدلا من « شباك » انظر . عبادة ،
ص ٧ ؛ Dozy : Suppl, I p 723

وقد تسيّر بالمجاذيف . و « الفلايك » جمع « فلوكة » ، وهي مراكب صغيرة سريعة ، تتحرك بالمجاذيف^(١) . وكانت « القوارب » جمع « قارب »^(٢) و « الزوارق » جمع « زورق »^(٣) ، ضمن قطع الأسطول أيضاً ، وهي مراكب من غير شراع ، وتستعمل — في العادة — لنقل الأشخاص .

وكانت الدولة تملك أسطولاً نهرياً يسير في النيل مثل المراكب التي يقال لها : « عُشاريات » جمع « عُشارى » ، وكانت تسمى في العصر المملوكي « حَرَّاقَة »^(٤) ، وتستخدم في حمل غلات الدولة وغيرها^(٥) . ويقول ابن الطوير^(٦) ، بوجود عشرين مركباً من نفس النوع تسمى : « دَمَاميس » جمع « دِيماس » أو « دِيْتاس »^(٧) ، برسم الخليفة وبعض الموظفين الكبار في الدولة . وكانت « الشدوات » جمع « شَدَات »^(٨) ، و « السميريات » جمع « سميرية »^(٩) ، تستعمل في نقل المؤن والعساكر في الأنهار . أما المراكب المسماة : « علابيات » و « حاتم » و « سنايك »^(١٠) ، فكانت معروفة من قبل في عهد ابن طولون وتسير في النيل . ويشير القلقشندي^(١١) ، عند كلامه عن الأسطول الفاطمي ، إلى وجود

(١) عبادة ، ص ٧ ؛ Dozy : Suppl, 2, p 381 ; Knidermann, p 74

(٢) مقدسي ، ص ٣٢ ؛ عبادة ، ص ١٢ ؛ Dozy : Suppl, 2 p 323

Kindermann, p 20.

(٣) مقدسي ، ص ٣١ ؛ Kindermann, p 37-8

(٤) عبد اللطيف : الأفاضة والإعتبار ، ترجمة DeSacy ، باريس ١٨١٠ ، ص ٢٩٩-٣٠٠ ؛

انظر . زكي ، كنوز ، ص ١١٤ .

(٥) مقريري ، خطط ، ص ٤٨٢ س ٣٩ .

(٦) نفسه ، ص ٤٦٩ س ٣٥ ؛ ٤٨٢ س ٣ .

(٧) نفسه ؛ صبح ، ص ٥٢٠ ؛ انظر . عبادة ، ص ٧ ؛ Dozy : Suppl, 2, 135 ؛ زكي ،

كنوز ، ص ١١٢ ؛ Kindermann p 62

(٨) مقدسي ، ص ٣٢ ؛ انظر عبادة ، ص ١٠ .

(٩) Kindermann, p 38; p 42-3 : Suppl, I, p 682 : Dozy

(١٠) مقريري ، خطط ، ص ٢ ص ١٨٠ س ٧ ، انظر عبادة ، ص ١٢ .

(١١) صبح ٣٤ ص ٥٢٤ س ٢

أسطول صغير ، قليل العدد يتكون من ثلاثة أو خمسة مراكب في صرفاً عيذاب ،
كان يقوم بأعمال الحراسة في البحر الأحمر وتنظيفه من القرصان .

ويصف لنا ابن جبير^(١) ، الذي زار مصر في عهد صلاح الدين ، كيفية صنع
المراكب ، التي كانت تمخر البحر الأحمر وتسمى : « جلاب » جمع « جَلَبَة » ؛ فهي
كانت تبني بطريقة عجيبية جداً ، لا يستعمل فيها مسمار البتة ، وإنما خشبها يخيطن
بجمال مصنوعة من قشر الجوز المفتول ، وتتخللها عيدان الفخل ، ثم تسقى المراكب
بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن سمك القرش وهو أحسنها ، وذلك لتلمين
الأعواد ؛ فقد كانت مياه البحر الأحمر تأكل المسامير وتجعلها غير صالحة ، وكانت
هذه المراكب تلحقها تحمّل على ظهر الجمال ، وتسير بالجاذيف أو بالشرع .

أما عن رجال الأسطول ، فلم تصلنا عنهم أية معلومات ذات قيمة ، وإن كانت كل
مركب تحمل عدداً مناسباً من البحارة والجذفين والمقاتلة ، الذين يختارون بعناية ؛ ففي أيام
الوزير طلائع بن رزيك ، نسمع عن مركب فيها ألف مقاتل^(٢) . ومع ذلك فقد لنا بعض
المعلومات بصفة عامة ، على طبقات رجال الأسطول : فكان قائد الأسطول يحمل
لقب : « رئيس الأسطول » أو « مقدم » ، وهو يختار من بين أعيان القواد البحريين البالغين
عدهم عشرة^(٣) . وحسب قول القلقشندي^(٤) ، كان عدد قواد الأسطول المدرجين
في ديوان الجهاد ، في آخر عهد الدولة ، يزيد على خمسة آلاف ؛ وهذا العدد
لا يدل بطبيعة الحال على عدد المقاتلة أو البحارة ، الذين كان عددهم ولا بد كبيراً
جداً .

(١) رحلة ، ص ٦٩ ؛ مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٢٠٣ .

(٢) مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٩٤ س ٣٦ ؛ انظر . Bouriant p 270. 17, 18

(٣) مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٤٨٣ س ٢٤٩ ص ١٩٣ س ٥ — ٦

(٤) صبح ، ٣ ، ص ٥٢٣ .

وفي حالة خروج الأسطول ، كان « النقباء » ، وهم أشخاص معروفون من ديوان الجهاد ، مسئولين عن جمع المقاتلة للأسطول من بين الذين يعرفون الحرب البحرية^(١) ؛ فكانوا يجمعونهم من جميع أركان البلاد . ويلاحظ المقرئ^(٢) أنه لم يكن أحد يجبرهم على العمل في الأسطول ، وكان الناس يقدرون جهادهم ويسمونهم : « المجاهدين في سبيل الله » ، ويتبركون بهم .

وكانت المراكب تزود بأنواع السلاح البحري المختلفة ، ولكننا نجعل التفاصيل الدقيقة عن الأسلحة البحرية ، وربما كانت تشبه أسلحة الجيش . فيروي القلقشندي^(٣) أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية ، كانت عبارة عن القسي ، التي تشد بواسطة اليد أو الرجل ، أما عن أسلحة المراكب الكبرى ، فإنها كانت تزود على الأخص : « بالمنجنقات »^(٤) ، و « العرادات »^(٥) ، لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ؛ و « بالسكلايب »^(٦) ، وفائدتها ، أنها تلتقي على مراكب العدو فيوقفونه ثم يشدونه ويرمون عليه الألواح كالجسر ، ويدخلون إليه ويقاتلون من فيه . وكان الأسطول الفاطمي — مثل أساطيل الدول في ذلك العصر — يستخدم النفط أو النار الإغريقية^(٧) ، التي تكلمنا عنها فيما سبق ؛ فكان يستعمل نوعاً من

(١) مقرئ ، خط ، ١ ص ٤٨٣ س ١٦ — ١٧ ؛ ٢ ص ١٩٣ س ١٣ .

(٢) نفسه ، ٢ ص ١٩٣ س ١٥ — ١٦ .

(٣) صبح ، ٣ ص ٥٠٨ س ٢ — ٣ .

(٤) مقرئ ، خط ، ١ ص ٤٨٠ س ٢٠ .

(٥) صبح ، ١٠ ، ص ٤١٣ س ١٢ . العرادة أصغر من المنجنق .

(٦) ابن الأثير ، ١٠ ص ٣٤٣ ؛ انظر . Dozy : Suppl. : p 481 ؛ عبادة ، ص ٨ .

(٧) صبح ، ١٠ ص ٤١٣ س ١٢ ؛ ابن الأثير ، ١٠ ص ٣٤٣ .

يتكلم ابن هافى عن النار التي يستعملها الإسطول الفاطمي في غاراته البحرية فيقول :

عليها غمام مكفهر صبيره له بارقات جمّة وورعود .

إذا زفرت غيظاً ، ترامت بمارج كما شب من نار الجحيم وقود .

فأفواههن الحاميات صواعق وأنفاسهن الزافرات حديد .

انظر ديوان ، تحقيق زاهد على ، بيروت ١٣٨٦ ، ص ٢٦ .

النفط يسير على الماء دون أن ينطفئ^(١)؛ فكان هذا النفط يحرق المراكب العدو^(٢). وعلى العكس، كانت المراكب الفاطمية، تحتمى من نار العدو وقذائفه، بتغطية هيكلها بدرع من الخارج يسمى: «لُبوس»^(٣)، عليه غطاء يسمى: «لبود»^(٤)، من جلود البقر الطرية، أو من البسط^(٥)؛ أما الرجال فيحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان^(٦). وليس من شك، في أن القطع البحرية الفاطمية، كانت مزودة أيضاً بكل ما هو ضروري للحرب في البر^(٧)؛ فكانت المراكب تحمل الأسلحة التي تستخدم في نقب أسوار الموانئ المعادية^(٨)، مثل: «الأبراج»، و«الدبابات»، و«السلاليم»، وحتى «الجهال»^(٩).

ومن الطريف أن نذكر وجود قفص فيه حمام^(١٠)، ضمن معدات أسطول صقلية، فكان هذا الحمام — على ما يظهر — يستعمل في ابقاء الاتصال بين مختلف وحدات الأسطول، أو بينه وبين القيادة العامة في البر. أضف إلى أن مركب «رئيس الأسطول» كان يزود بقانوس خاص لتمتدى به المراكب الأخرى، فيقلعون باقلاعه ويرسون برسوه^(١١).

وقبل أن يبحر الأسطول جرت العادة بتوزيع «النفقة» في المقاتلة، بحضور

(١) انظر Cahen، p 122-3، trad 145-6 : Un traité،

(٢) مقریزی، خطط، ١، ص ٤٨٠ س ٢٠؛ انظر. Dozy، Suppl, 2، p 512 :

(٣) نفسه، ٢، ص ١٩٣ س ٣٥؛ نفسه، ص ٥١٠ .

(٤) ابن القلانسی، ص ١٧١ .

(٥) صبح، ١٠، ص ٤١٣ .

(٦) مقریزی، خطط، ١، ص ٤٨٠ س ١١ و١٥ .

(٧) انظر. Amari، p333; 366.

(٨) صبح، ١٠، ص ٤١٣ .

(٩) انظر . Amari، p 293 .

(١٠) مقریزی، خطط، ١، ص ٤٨٣ س ١٢ انظر .

الخليفة والوزير وصاحب ديوان الجيش ، فيجتمع المقاتلة مائة مائة ، مصحوبين
بنقبأهم في قاعة التوزيع ، وكان المال يوزع بالوزن وليس بالعد .

وقد جرت عادة الفاطميين أن يقيموا احتفالاً رسمياً يوم سفر الأسطول يسمى :
«الموادعة»^(١) ؛ فكان الخليفة يحضر بصحبة الوزير والأعيان إلى ساحل
«المقس» ، وهو ميناء يقع على ساحل النيل خارج القاهرة ، حيث تجتمع المراكب ؛
فتقوم هذه المراكب — أمام الخليفة — بالحركة ، كما يفعل تماماً في حالة القتال ؛
فكان الخليفة في هذه المناسبة يدعو للأسطول بالنصرة والسلامة ، ويمنح بعض
الهدايا والخلع^(٢) ، إلى رئيس الأسطول والقواد .

ولم يترك لنا المؤرخون معلومات وافية عن خطط الفاطميين في الحرب البحرية ،
ولكن يمكننا أن نعرف مما ورد في كتب التاريخ أو في دواوين الشعر ؛ أن هذا
الأسطول كان شديد البأس في الحرب البحرية ؛ فهو لم يرجع أبداً من القتال
بدون غنيمة أو أسرى .

ولكن في آخر عهد الدولة ، ضعف الأسطول وقصر نشاطه على تموين
المرافئ الساحلية في سوريا ، التي كانت لا تزال في أيديهم ؛ فيروى أبو الفداء^(٣)
أن خلفاء مصر ووزراءهم كانوا يرسلون كل عام المؤن والسلاح لأسطولهم المحاصر
للعسقلان .

أما عن نظام الدفاع البحري عن الموانئ الفاطمية ضد غارات الأعداء ،
وبخاصة الصليبيين ، كانت تشبه النظام الذي أتبع في عصور متأخرة ، ففي مدخل

(١) صبح ، ٣ ص ٥٢٣ ؛ خطط ، ١ ص ٤٨٠ س ١٩ ؛ ابن ميسر ، ص ٤٤ ؛

انظر . عبادة ، ص ١٧ .

(٢) مقرئزي ، خطط ، ١ ص ٤٨٠ س ٢١ و ٢٢ ؛ ٢ ص ١٩٣ س ٣٣ .

(٣) أبو الفداء : انظر . (Rec. des Hist des Crois) ١ ص ٣٢ .

الميناء يوجد برجان تشد بينهما سلسلة من الحديد ثقيلة ، حتى لا تستطيع المراكب الدخول من غير إذن (١) .

وعند عودة أسطول الفاطميين المظفر ، يقام احتفال رسمي يشبه الاحتفال الذي أقيم عند رحيله ؛ فيحضر الخليفة بصحبة أعيان الدولة ، ليشهد بعبطة أسطوله المنتصر .

وقد جرت العادة أن يستولى الخليفة على الأسرى والسلاح (٢) ، وأن يترك الباقي من الغنائم مثل المال والملابس لرجال الأسطول .

وكان الخليفة يأخذ الأسرى من النساء ويأمر بإدخالهن في حريمه ؛ أو يهدى بعضهن إلى كبار رجال الدولة ؛ كما كان يلحق الصبيان من الأسرى في حرسه الخاص : « صبيان الخاص » (٣) ، حيث يربون ويتعلمون الخط والرمية ؛ أما من أستريب به من بقية الأسرى أو الشيوخ الذين لا ينتفع بهم ، فإنه كان لا يتردد في إمضاء حكم السيف فيهم .

وقد بقي الأسطول الفاطمي نموذجاً للأسطولين : الأيوبي والمملوكي .

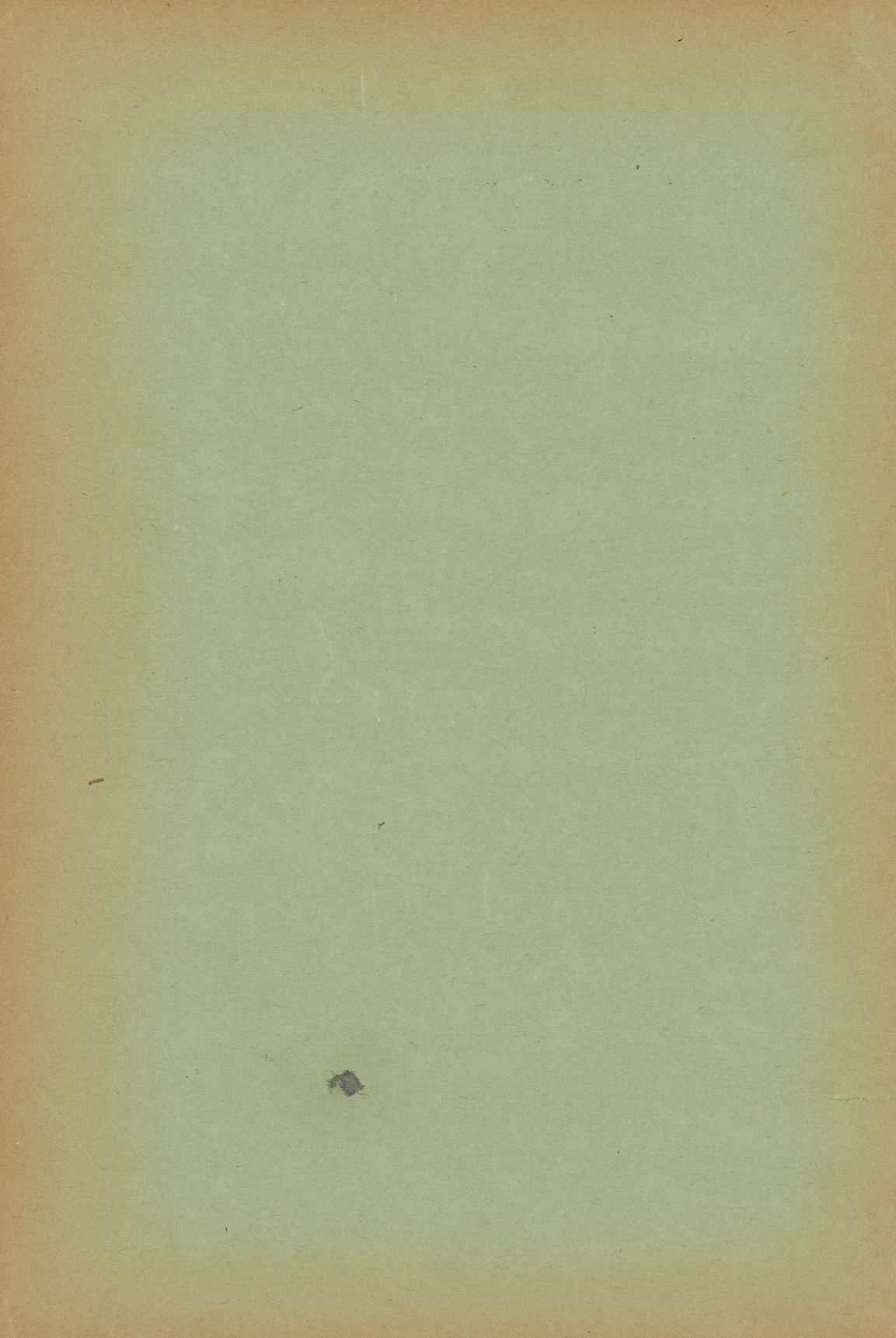
(١) مقرئزي ، خطط ، ١ ، ص ٢١٥ س ١٥ .

(٢) نفسه ، ١ ، ص ٤٨٠ س ٢٦ ، ٢ ، ص ١٩٣ س ٣٧ .

(٣) نفسه ، ١ ، ص ٤٨٠ س ٢٦ — ٣٢ ، ٢ ، ص ١٩٣ س ٣٦ .

الكتاب الثاني

(تحت الطبع)



A. M. MAGUED

Maître de Conférences à L'Université Ibrahim
Docteur ès Lettres de la Sorbonne

INSTITUTIONS ET CÉRÉMONIAL
DES FATIMIDES
EN EGYPTE

TOME 1

Le Caire

1953

Libraire Anglo - Egyptienne.

التمن ٤٠

تصويب الخطأ

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الفاطيون	الفاطيون	٢	٨
وكان	وكان	١١	٨
تشابه	به تشا	٨	١١
مراتب	مرات	١٣	١٢
الشيرازي	الشبرازي	١١	١٨
ابن زولاق	ابن زولان	حاشية (١)	٢٣
الجزء	الجزاء	١٢	٢٦
عن	من	٢	٢٩
بباريس	٢ بباريس	١٣	٣٠
الموردي	الموردي	١٤	٣٣
Beanhauer	Bernhauer	١٥	٣٣
تحت	تحن	٨	٣٧
Chez	Ches	١١	٤١
بالذهب	بالذاهب	١٣	٤٣
Sauvaire	احذف :	حاشية (١)	٥٢
٢٤٠٨٨	ب ١٧٦٦٥	حاشية (٢)	٥٣
أبي	أبو	حاشية (١)	٥٥
The	the	حاشية (٥)	٥٥
الآراء	الآراء	٥	٥٦
يدعونا	يدعون	٥	٥٨
جعلوا	جعلوا	٦	٦١
Husrau	Husrqu'	حاشية (٦)	٦٣

صواب	خطأ	سطر	صفحة
Mu'izz	Mucizz	حاشية (١)	٦٤
يخزون	يخرجون	١٠	٦٩
Sefer	Sefsr	حاشية (٦)	٦٩
; p 30 — 32	p 30 - 32	حاشية (١)	٧٨
الروزباري	الروزباري	حاشية (١)	٨٢
Van Berchem	Van Berchen	حاشية (٣)	٨٧
اعتبر	أعتبر	١٣	١١٨
مقدس	مقدس	حاشية (٣)	١١٨
تفيس	تفيس	١٣	١٢٢
J. A.	J. A. S	حاشية (١)	١٢٦
La fondation	Le fondation	حاشية (٣)	١٢٧
٢ ص ١٩٣	١٩٣ ص	حاشية (٤)	١٢٩
J. R. A. S.	J. A. R. S.	حاشية (٣)	١٣١
ديوان	وديوان	١٦	١٣٣
الفاطمين	الفاطمين	٨	١٣٥
الفاطميون	الفاطمين	١	١٣٦
العقل	العمل	٩	١٣٨
٩٥٩	٩٠٩	٥	١٤١
٩٧٢	٩٧٧	٨	١٤١
وكانت	فكانت	٦	١٤٤
عادة	عاده	٩	١٤٦
الملك	ملك	حاشية (٣)	١٥٦
Ravaisse	Ravisse	حاشية (٣)	١٩٦

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0315333400

893.717

M276

pt.1

BOUND

JUL 13 1957

